رواية

أشباح وطنية



إبراهيم عيسى

أَشْبَاحٌ وَطَنِيَّةْ

رواية

إبراهيم عيسى

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

إهداء

إلى أختي عبير عيسى التي ظلت تسألني خمس سنوات:

لماذا لا تكتب رواية جديدة؟ أين روايتك الجديدة؟

كانت الوحيدة التي تسأل، فكتبت لها ولي هذه الرواية، لعلها ترضى عنها وعني.

أخوك إبراهيم

شكر

إلى زوجتي الملائكية أميرة (أم يحيي) التي تحملت هذه الرواية حين كنت أرويها شفهيا لها في الصحو والمنام ... شاكرا لها وممتنًا على أنها كانت تشرد وتسرح بأفكارها وقتها وتتركني أدرك (لوحدي) أن الرواية تستحق أن أعيد كتابتها ... فأعدت.

إبراهيم عيسى

يناير ٢٠٠٥

لمحت شيئًا مرة أخرى.. أسود ولامع وسريع وخاطف وعلى حوافه حروف لهب، جمر محمر وساطع يقفز عابرا الطريق، يظهر مروقًا كالبرق ويختفي كذرات دخان.

أول الأمر سكتَتْ تماما، دفنتْ في صدرها هذا الإحساس الهائل بالرعب، فما الذي يمكن أن تقوله، تلتف مثلاً لأصحابها في السيارة وتقول لهم.

- الحقوا لقد رأيت أشباحا سوداء تمر أمام السيارة في الطريق.

ضغطت عزة بعنف على فرامل السيارة حتى فزع الجميع من صوت احتكاك هادر لعجلات السيارة على الأسفلت وترنحت السيارة يمينًا ثم لفت نصف دورة إلى اليسار وسط صراخ مشروخ من غادة وزعيق مجنون من تامر الذي اصطدم رأسه في سقف السيارة بينما ارتمت زجاجات بيرة وعلب طعام على الأرض مبعثرة ومفتتة أغرقت ولوثت الملابس والمقاعد بينما كان صوت عزة مثل صوت قطع

جوافة انحشرت في موتور خلاط، غليظ وعميق وعريض ورعشة محمومة تسطو على مقاليد جسمها كلية.. فخرجت الحروف تدفع بعضها بعضا وتضرب حرفًا فتاهت الجملة المرتعشة التي قالتها اضطرابا وارتجافًا.

توقفت السيارة بعد رجة وهزة ولفة ودورة وسمع الجميع صوت الصمت يملك الطريق تماما..

انكمشت عزة في مقعد القيادة وهي ترد على صرخة تامر عليها:

- فيه إيه يا بنت المجنونة
- أشباح..

كانت الكلمة مجزأة النطق، حروفها الخمسة استغرقت في لمها دقيقة كاملة من الرعشة واللجلجة والتهتهة والنهنهة.. جمع تامر حروفها في أذنه:

- إيه أشباح..

علقت غادة:

- إيه الخبل ده... ..؟

نزل تامر من السيارة، لف حتى باب مقعد القيادة، حاول أن يفتحه، تأبى عليه الباب، خبطه بحذائه وهو ينادي على عزة:

- عملتي إيه في الباب...؟

فتحه بعد دفعة وضغطة، وربت على كتف عزة،

- يا للا انزلي أنا اللي ح اسوق

وبنظرة آمرة موجهة إلى غادة:

- رجعي عزة ورا وقعديها معاكم.

مدت غادة يدها كي تجذب عزة نحوها، فارتعشت عزة محمومة وردت مترددة:

- أشباح ناس لابسه أسود جلاليب سوداء وعبايات فوقها ومحزمة راسها بشال أخضر ملفوف زي الصعايدة.. عدت قصادي طول الطريق من أول ما خرجنا من الصحراوي.

زادت غادة من حرارة الطبطبة على كتف عزة واختلست نظرة سريعة محشوة بالمعاني إلى تامر أومأت له بالفهم.

غادة بصدق دعمته ست علا ببيرة:

- تعالي يا حبيبتي.. هدي نفسك.

عزة تعرف – لا تعرف تماما – رغم الرعب الغائر في قلبها أن شيئًا مما رأته لم تره فعلاً.. أو ربما رأته، لعلها نفس الضلالاَت التي ظنت منذ شهور أنها راحت في داهية وغارت من حياتها أخيرا.

لقد نظر الطبيب إليها في فحص بارد، وقال لها كأنه يحصي عدد البيض في الثلاجة:

- عندك مرض اسمه ضلالات.

من يومها كانت تلك الاضطرابات تداهمها فإذا فرت وراوغت، تعود وتلاحقها، في البلاتوه وهي تصور البرنامج، وهي تمشي في جراج التليفزيون وهي تجلس بين صحبة الشلة، وهي تعرف أن أصابعهم كلهم تشير كلها عليها بأنها مجنونة الشلة، ومن ثم فلم يكن أحد ليصدقها إن قالت أنها منذ وصلت بالسيارة إلى هذا الطريق وقد رأت وشوشًا وأجسادا ورجالاً وعباءات وسوادا يعبر وكائنات تمضي أمام السيارة وفوقها، تصعد على مقدمة السيارة وترقص وتضرب وتضغط وتنقر زجاج السيارة كأنها مناقير غربان سوداء كليحة، فهمت من الوهلة الأولى أنها تلك الضلالاَت أو الاضطرابات الوهمية، مجموعة من صور وأفكار وهمية

غير حقيقية مترابطة ومستمرة تسيطر على تفكيرها وتحتل كل ذرة في كيانها كأنها شيء من الوسواس الخناس الذي يوسوس لها صوتًا وصورة في كل مشية وخطوة، هي دائما ترى ضلالاً أو وهما أو هما، رجالاً يحاولون الاعتداء عليها، يمسكون بها، يشطرون أعضاءها، ينزعون لبسها وأنفاسها، حين رأت هذه الوجوه والأجساد المارقة البارقة الآن لم تستبن هل هي تلك الضلالات، تحاصرها وتلاحقها أم أنها كائنات شبحية، للجميع أن يراها ويحسها.؟ صمتت طول الطريق وأصابعها قابضة على الدريكسيون متيبسة ومتخشبة ورعشة تشق نفقًا من صدرها حتى أطراف أظافر قدمها المضمومة في حذائها، لكنها لم تتحمل ثم لم تحتمل فندت منها الصرخة مطاوقة بعد كتم.

بعد علاج دام عامين امتلأت بالخوف المرعوب من عودة الضلالات.. فها هي تعود سوداء كالأشباح ظهرت مرتين على مدى الخمسين كيلومتر وهي تقود السيارة الشيروكي، بجوارها سارة تلتفت بجذعها إلى الكنبة الخلفية حيث يجلس تامر السباعي وقد استندت غادة على ذراعه سائبة الأعضاء مسبلة العيون وهو بقامته النحيلة وقسماته الجامدة ونظراته

المباهية واللامبالية وعلب البيرة على فخذه وقد فرد ساقيه على ظهر مسند المقعد الأمامي الذي تجلس عليه سارة، هل هذه هي سارة فعلاً، ما لها وقد تغيرت ملامحها، نحفت وشفت ورقت إذ فجأة وتتبادل ببرود أو جمود مع غادة ذلك الوشم الجلدي الأسود المعلق على عنقها. قالتها ولم يصدقوها:

- أشباح، وا العظيم ناس عدت قدامي بتجري وبتطير فوق العربية.

نزعها تامر من مقعد القيادة وجلس هو وأجلسها الفزع قرب أنفاس غادة وقد عادت للخلف وجلست منكمشة ومرتجفة ومستبعدة رغم هذا القرب في حضن غادة التي لمت بعثرة هدومها وجلستها وارتسمت في جدية مصنوعة على عجل وبينما سارة تضع كفيها على كتف وظهر عزة.. إذا بالعيون تتسع حتى الجنون وتامر يصرخ مكتسحا تماما بالخوف، كان كمن يتلقى لكمات خشوم في أنفه، يرتد برأسه وترتعش قبضتاه على مقود السيارة التي تسارعت سرعتها، تصطدم في كل متر برجل أسود يرتدي جلبابا من السواد القاتم ويرتمي شاله الأخضر الذي يلف به رأسه على زجاج

السيارة، وكانت أقدام ترقص وتضرب على سطح السيارة، ترج قلوبهم، تخلعها من مكامنها مع صك الصاج المعدني الذي يتطربق ويدغدغ، وغزو الأجساد التي تخبط في مقدمة السيارة تتابعا وتتاليا، ارتفعت عجلات السيارة كأن يدا تمسك بها من مؤخرتها وتساقط الجميع على زجاجها الأمامي ليتهشم منفجرا مفتتًا ولا نهائيا، اختفى الأسفلت من تحتهم وتعلقت السيارة في الهواء ثم انهارت إلى رمل كاسر على جانب الطريق.

ندت من وائل شهقة:

- إيه ده شبكة المحمول واقعة هنا؟

قال كريم:

- كان لازم تسمعوا كلامي ولا نقترب من هذا الطريق المهجور ده، كنا طلعنا على الصحراوي على طول.

- منها عزة أصرت على الطريق المنيل، هي فين؟

قالها وائل وهو يغلق جهاز الكومبيوتر وقد تصفح أرقام البورصة وقرأ عليهم آخر الأسعار فاطمئن جلال لشيء كان يقلقه، وأفرد كريم شرحا محشوا بالثرثرة عن عبقرية توقعاته

للأسهم المالية، كأن وائل لم يسأل، وكأن أحدا لم يفكر في الإجابة، وقد علت أصوات الموسيقى الصادرة والهادرة من جهاز الأسطوانات.

شقت الدولة هذا الطريق الجديد منذ شهور الصيف الفائت يخرج من الطريق الصحراوي في انحناءات ملتوية ثم خطان من الأسفلت في الاتجاهين، كان شق الطريق يتكلف عشرات الملايين التي وجدوا لها منفذًا في الموازنة فهو طريق مطلوب لاختصار أكثر من ساعة زمن بين القاهرة والساحل، خصوصا تلك القرية التي ابتناها شركة مقاولات مزدحمة بمؤسسين ذوي نفوذ، كان الطريق بكرا وبلا تجهيزات نهائية ولم يفتتح رسميا بعد بحضور السيد الرئيس كما اعتاد مقاولو مصر الفرح بكباريهم ومجاريهم وطرقهم بحضور حبور الرئيس شخصيا طيلة السنوات الماضية، كان افتتاح كوبري حدثًا سياسيا وفتح طريقٍ حفلاً رئاسيا، لم يكن قد اكتمل لكن كثيرين من مريدي الساحل زهق شباب أو زهق سادة قرروا عبور الطريق المختصر خصوصا في نهارات الصيف المنيرة والطويلة، كان خاويا من الاستراحات، وكان خطرا بخلوه من محطات الوقود، فصار ولوجه مغامرة مصر

الصيفية ودليل شجاعة عند شباب القرى الشاطئية وعلامة حماقة لدى شيبها، ولكن الكبراء والمسئولين استخدموه كذلك مع مواكب حراسة وعربات احتياطية ونوافذ مطلية بالغامق الذي يحول دون الرؤية والتراب. وقد أقامت شركات الهواتف المحمولة على عجل وبارتباك أعمدة تقويةٍ انهارت مع أول ريح شتوية تنفستها صحراء الطريق، لكننا الآن وقد أوشك يناير على المثول فقد تكاثفت ظلمة الليل وبكرت عتمات النهار وزاد رذاذ برد وأقدمت نوات عصف، فتشاكل جلال وعزة مع الشلة وحسموا الدخول في هذا الطريق لتسريع الوصول وبدء ليلتين من الاحتفال بوائل وبراءته، في المنطقة المعلقة بين النهار والمغيب، في المسافة المترددة بين الضوء والعتمة، كان جلال يقود السيارة الشيروكي وهو يجذب شعرة بيضاء فوق سوالفه وينظر لها بين إصبعيه، ممسكًا بطراطيف أصابعه بدريكسيون السيارة الشيروكي، نظرة مرمية منه على وجهي وائل وكريم، قابلها كريم باستفهام غامض:

- مال عينك حمراء كده ليه يا جلال؟

علاق وائل بسرعة ملهوفة على التدخل:

- طول عمر جلال عينه حمراء.

فهم كريم المغزى وابتسم، ها هو وائل بفتوة جسده وعضلات صدره المنفوخة يجري ليحمي جلال بصدره من أي طلقة نقد أو هجمة سب، جلال يصنع لنفسه كرسي عرش عندما يجلس على مقعد قيادة الشيروكي، ينتفخ إحساسه بالنفوذ وكأنه يمد ساقه في وجه الدنيا حين يضغط على البنزين، يصبح أقل كلاما وأكثر اعتلاء، لحظة ما يدير دريكسيون السيارة فكأنما يدير العالم بالريموت كنترول، ورأس الكون عند نعل سيارته.

قال كريم وهو يرمي علبة بيرة من مقعده لوجه وائل الجالس في الكنبة:

- ألا تلاحظ يا جلال أن كل العربيات التي تمر من هذا الطريق جراند شيروكي......!

كانت ملاحظته مسددة في فخر جلال مباشرة فهو مؤسس رابطة عشاق فتيس الغرس، مجموعة من صحبة المدرسة والجامعة التي كبرت في السن والنفوذ وهي لا تزال تحتفظ بوله الطفولة بالجيب شيروكي، وحدهم دون خلق ا الذين يحتفلون في الثالث والعشرين من شهر يولية من كل عام

بعيدهم الخاص عيد ميلاد الجيب، ولعشرات المرات ولسنوات سمعوا من جلال هذه الحكاية المكررة أنه عندما أراد الجيش الأمريكي الحصول على سيارة للاستخدام في مختلف الأغراض، قامت ثلاث شركات بقبول هذا التحدي وتقدمت بعروضها لتصنيع سيارة خفيفة، قادرة على المناورة، متينة يعتمد عليها ورشيقة. وخلال الأشهر القليلة التالية قامت شركات ثلاثة بالعمل بنشاط إلى أن أنتجت كل منهم النماذج التي قدمت للجيش الأمريكي لاختبارها في الميدان. وبعد أشهر من الاختبارات القاسية، كان موديل ويليز – أوفرلاند هو الموديل الذي اجتاز جميع الاختبارات بالصورة المرغوبة. وفي ٢٣ يوليو عام ١٩٤١ تم منح العقد للشركة، وكان هذا التاريخ هو تاريخ ميلاد الجيب. كان طقس رابطة عشاق فتيس الغرس في ثلاثة وعشرين يوليو من كل عام هو الذهاب بسياراتهم الجيب إلى صحراء الهرم ليلا ووضع سيارة أحدهم في منتصف دائرة من السيارات المماثلة، وتسليط كشافات الإضاءة عليها ثم وضع تورتة كبيرة على سطحها ويصعد جلال على قمة السيارة (ظل يفعل ذلك حتى شعر أنه كبر أكثر من اللازم فأولى المهمة

لغيره) يشعل شمعة كبيرة في التورتة ثم تنطلق موسيقات من كل سيارة ثم تندفع انفجارات زجاجات البيرة لتغطي جوانب السيارة وسط رقص من البنات والأولاد من رابطة عشاق فتيس الغرس، بعدها تشهد أرائك السيارات ما يجب أن تشهده في جملة هذه الطقوس، العام الوحيد الذي أوقفوا هذا الاحتفال لما انتشر في الصحافة والإعلام غث كثيف حول عبدة شيطان وخَرف مشابه فتراجعوا عن الحفل خوفًا واتقاء.

كان طريقًا جديدا معبدا وممددا للمسافرين لقرى الساحل المترفة والفخيمة التي يستوطنها كُبرات البلد، وكان متاحا للعيون أن ترى المرسيدس والشيفرولية والبي إم في الذهاب والعودة، لكن وحدها الشيروكي تحولت إلى تلك السيارة الرسمية لهذه الرحلات الأسبوعية التي يشقها كبار أنجال الكبراء نحو القصور والشاليهات، الغريب أن ثلاثتهم كلما جاءت سيرة الشيروكي كلما شعروا أنهم ألصق ببعض واستشعروا دفئًا في أنفاسهم، شيء كالحبل الصري، كالرباط الخفي يلفهم من أذرعهم وقلوبهم حول هذه السيارة التي يملك كل واحد منهم طراز أو اثنين منها، كريم داود أول من أركبهم الجيب شيروكي وكانوا أطفالاً وكانت لا تزال جديدة

على مصر فقد كان جده يملك سيارة من بين حوالي ١٢٠٠٠ سيارة أنتجوا في مصر بين عامي ١٩٧٨و ١٩٨٦ وحين بدأ إنتاج الجيب شيروكي (موديل XJ) عام ١٩٩٢ كانت هدية جلال من والده فهيم النحاس، أما وائل فكان والده دكتور صادق الغزولي هو الذي شارك في وضع.

عقد شركة كرايسلر مصر. حيث قفز عدد السيارات من ٤٠٠٠ سيارة في العام. فوصل حجم الإنتاج إلى ١٦٠٠٠ سيارة سنويا، كانت من بينها سيارة لكل واحد من الشلة. ولما كانوا يتعرفون على رفاق الأندية ومحافل الموسيقى ومراقص التجمعات الخاصة كانوا يخرجون من المكان ليكشفوا سياراتهم الجيب التي تبدو في تجمعها كأنها إعلانًا تليفزيونيا عن حضور طبقة، كلمة جلال التي ظلت مطلقته ترددها دون سبب في كل مشهد، مواجهة أنه يحب الجيب أكثر منها، جلال حين ضربها مرة قال وسط الخناقة بلا أي سياق:

- ليس صدفة أن الجيب شيروكي هي سيارة الجيش الأمريكي.

اليوم ركبوا سيارة جلال وقادت عزة سيارة وائل الذي كان محتما عليه ألا يركب سيارته خصوصا وهم ذاهبون للاحتفال ببراءته من قتل أسرة كاملة بتلك السيارة، عاد جلال برأسه للخلف وهو يقود السيارة والتفت لوائل:

- فين أم السيجارة التي قلت أنك ضبطتها؟

لم يجب وائل فقد تجحظت عيناه وارتجف وهو يصرخ في وجهه حتى أن قدم جلال داست على الفرامل دون إرادة فخبطت رأس كريم في الزجاج الأمامي والتوى عنق جلال بينما كانت صرخة وائل أعلى وأعرض وأسنانه تضرب في الفتيس.

- عربيتي، عزة، عملوا حادثة.

عندما هبط جلال من سيارته، وجرى ناحية السيارة المغمورة والمدفونة في الرمال، كان يشعر أن مأساة أوشكت على الاكتمال، أقدامه تسرع جريا وخلفه يعدو وائل وكريم، ملتاعين يعبرون الطريق نحو السيارة المقلوبة في الاتجاه المعاكس، وقطع الزجاج متناثرة وشظايا معدنية مرمية وعجلات السيارة تدور كأنها مروحة في أقصى سرعة لها،

وطقطقة تصدر من معدن سطح السيارة مع خبطات ونتوءات وطربقات في أركانها ومعدنها.

وصل جلال قبلهما، وطل من الزجاج ليجد عزة وقد دست رأسها في حضن غادة، يهتزان بقوة ويلتصقان كأنهما توأم متشابك في رحم أمٍ ضيق، بينما رأى سارة وقد أمسكت بذراع تامر الذي راح يضرب مهووسا برجليه الباب حتى ينفتح، حينما رأى جلال وجه سارة خلف النافذة أحس رعدة وهي تصرخ في صوت رفيع مرتعش فتنبهوا لقدوم زملائهم حين وجدوا الأبواب تهتز تكاد تنخلع تحت ضغط أحذيتهم الثقيلة، كان كريم مهووسا بما يفعله وهو يحدق في سارة المبللة بالدموع والمخاط بحدقة عين جامدة رعبا، بينما وائل يقترح أن يرفعوا السيارة حتى يتمكنوا من إخراجهم، فَهم جلال مقصد وائل فأخذ يجري نحو سيارته حيث يلاحقه كريم وهو يتمتم:

- سارة هنا، شفت.!

كانت قدماه تنهض في تثاقل أقرب إلى العجز، وعجز أشد ما يكون شللاً، ربت جلال على كتفه فزاد ذعره منه وكراهيته المفاجئة له.

- لا تخف.. سوف نشد سيارتهم بسيارتي ونخرجهم حالاً.

لسبب غامض تماما وقف جلال مسمرا بشكل مباغت عند مؤخرة سيارته هل صدرت منه صرخه مكتومة؟ على وجه التحديد لم يتبين كريم بنحالتهِ التي تزداد نحافة من الرجفة والفزعة ذلك الصوت الذي سمعه قادما من الهواء الفاصل بينه وبين جلال الذي اختفى خلف السيارة ثم عاد ينظر له بنصف وجهه نظرة مسروقة ومتلصصة ويكتنفها ألم رهيب.. استفهم منه:

- جلال.. انت متسمر كده ليه.....؟

في هدوء له صلة نسب تامة بالرعب قال له:

- تعالى.. شوف.!

تحرك كريم ببطء مشلول فاتجه إليه جلال بعنف وجذبه من يده كأنه يرفعه ليقف ثابتًا فاردا ظهره.. وجره بخشونة مرتبكة إلى خلف السيارة.. نظر جلال إلى الأرض فنظر معه كريم، انحنى على الأرض فانحنى معه، وضع بطن كفه تحت السيارة فإذا ببقع حمراء لزجة تقطر على كفه، سحب كفه فبانت تتساقط على الأرض ثم تخط خيطًا دقيقًا من سائل

أحمر قانٍ لزج وثقيل.. يتسع ويفترس الأسفلت، بقعا تكبر ورقعا تنتشر قال كريم والكلمات تتعثر على شفته السفلى:

- ما هذا زيت العربية ولا بنزين؟

نظر جلال إليه وقد امتلأت كفه بتخثر السائل الأحمر

- في الغالب هذا دم ..!

- نعم.

- لا هو زيت.. ولا بنزين ثم إن الزيت لونه أصفر مسود والبنزين شفاف وأبيض أو بلا لون تقريبا، أما هذا فشيء أحمر لزج.. في الغالب هذا دم..

ثم قطع كلامه فجأة وأكمل وهو يركب على مقعده:

- تعالى نطلع العربية من الغَرزة السوداء .

ركب واتجه ولف سيارته في الاتجاه المعاكس بسرعة تحفر الأرض بعجلات وحشية إلى حيث سيارة عزة حين كان وائل قد أفلح في إخراج غادة وهي تصرخ بكل ما تملك من حنجرة.

- عفاريت.. شفنا عفاريت!

لم يعد أحد منهم طفلاً أو مراهقًا من زملاء النادي أو الجامعة، كانوا يلتقون في مآدب واحتفالات أهليهم حين

الأعياد أو المناسبات المعدة خصيصا للتصوير في الصحف حتى يبدو تكاتف الأغنياء وتحالف أصحاب النفوذ من السياسة إلى الاقتصاد والمال، كان الأهل حريصين تماما على تقارب الأولاد حتى يتعمدوا بدم المصاهرة أو المصادقة، أدخلوا أبناءهم في صفقات صداقة باكرة كأنها موتسيكلات التشريفة لتلك المواكب الحاشدة للكبار الذي تصغر معهم الدنيا، حين كان وائل يعيش في الصور المنشورة لهم في الصحف ومجلات المجتمع في شم النسيم أو على ساحل شاطئ خاص وتحفظ عيناه هذه الابتسامات المصنوعة والضحك الهستيري المفتعل والمايوهات البيكيني مفصحة عن تحرر كان يقضم أعصابه ونمت لديه رغبة موغلة في الحسية، تحفر نفسها وتشق طريقها في حياته عدوا، لا يتخيل العالم بدون هذه الوجوه التي تحيط به كأنه في غلاف من قشر شرانق حرير، لا أحد في الخارج وإن كان زحاما، لا أحد غيره مع هؤلاء وبهؤلاء الذين يملأون الصور أمامه، يشعر أنه يمشي فيها، الصور ثابتة ساكنة لكنه يتحرك بين الوقوف على الرمال، خاف الجالسين على الشط، يحرك شفاها تضحك ويغير ألوان شعر البنات، كأنه في لعبة

لا يمل منها وإن نسِي ولا يشبع بها وإن وخم، الآن هو ذلك الشاب الذي يكافح لإنقاذ مستقبله السياسي، كانت اللعبة أجمل من أن يتركها حتى عندما تحطمت السيارة السيات أمامه وأدرك أن الرجل وزوجته وطفله يموتون لم تخالجه أي رعشات خوف مما حدث بقدر ما انتابته رعدات شك فيما سيحدث، جاءته الكلمة كمفتاح يغلق بوابة أفكاره:

- أشباح...!!

قالها جلال وهو يحدق في الطريق، يقود السيارة التي جمعتهم كلهم مكدسين وملتصقين وعطور الأنوثة مع دخان الذكورة، في سرعة أودعها كل ما فيه من قلق وطيش و وسوسة وتوجس:

- هل ممكن تكون أشباح وعفاريت فعلاً؟

وعزة مرتعشة زال خوفها من شكها إلى رعبها من يقينها، هي أشباح لا شك لديها فزادت كمونًا وتحللاً في حضن غادة، بينما سارة لا تكف عن الكلام المغموس في الطفولة، يحاول تامر أن يحول الموضوع إلى دعابة مستثمرا صمت الآخرين:

- كلنا افتكرنا عزة وضلالاتها.. قلنا أشباح إيه وكلام فاضي إيه؟

سأل وائل:

- وبعدين يا دكتور...!

لم يرد تامر ولكن أكملت غادة وهي تضخم حروفها وترفع صوتها وتقبض بأصابعها على كتف تامر.

- لقينا ناس لابسة أسود وعلى راسها شال أخضر ملفوف زي الصعايدة وبيظهروا قدام العربية يخبطهم تامر من سرعته، يقعوا على العربية، تصرخ بصوت زي صوت القطر، يجري تامر تلاقي واحد تاني بيعدي وتامر بيخبطه، تلاقيه بيطير ويطلع فوق سقف العربية، وبعدين بقوا كثير قوي قدامنا وحوالينا، وطلعوا فوق سقف العربية، يخبطوا ويضربوا برجليهم.

- همه لهم رجلين.

- كان سؤالاً من وائل لكن كأن أحدا لم يسأله ولا شغل أحدا بأن يجيب عنه.

- وبنشوف السقف بيطربق ويطبق ويتكسر وتامر ماشي جواهم كأنهم في مظاهرة حوالينا بيجوا من الإزاز وبيبحلقوا فينا..

ثم نزل عليهم سهم ا بالصمت فخرق قلبها.

حاول أن يناغشها وائل حين صرخ مفزوعا:

- يا امه.. شبح شبح وراكي يا غادة.!

ارتعدت لكنها رأت ضحكته الصفراء معلقة على وجهه فمن غير أن تنتبه ومن غير أن يفيق كانت غادة تصفعه على وجهه حتى صك الجميع صوت الصفعة وشخطت فيه بعنف كاسر.

- انت بتهزر.. إخرس خالص.

- حاول وائل أن يحفظ أعصابه في جنبه فأعاد قبضته من الهواء إلى صدره حين رأى عيني تامر مهزومة ويائسة و حدقة كريم واسعة حمراء عاتبة عليه أو غاضبة منه، وضعت سارة يدها نحيلة مرتجفة على خد وائل ثم مدت شفتيها وقبلته في شفقة متوسلة أن يتقبلها، جلال تدخل ليفرض هدوءا في السيارة التي انحشرت بهم جميعا.

- لكن انت خرجتي بعدنا يا عزة وقلتي ح تحصيلنا على الطريق الجديد.. إزاي وصلتي قبلنا.. وإزاي ماشُفناش عربيتك وانت بتعدينا في الطريق.

على منطقية السؤال لم يكن أحد منتبها له حتى لحقوا بالسؤال في آخر ست كلمات منه فطلب كريم أن يعيده جلال مرة أخرى.

- بتقول إيه يا جلال....؟!

فأعاد السؤال فشعر البعض بالفزع.

إزاي صحيح. الطريق بلا أي استراحة ولا أحد ظهر بسيارته معنا طول الطريق ولم تسبقنا أي سيارة.. ثم نحن تركنا عزة وعربيتها في استراحة الواحة وسبقناها بحوالي ثلث ساعة – وكنا نسير على سرعة ١٦٠ كيلو فكيف لحقت بنا ولم نرها وكيف عبرتنا ولم نلحظها وماذا جرى بالضبط

قالت عزة أخيرا:

- أنا عايزة أرجع مصر.. لِف يا جلال ورجعنا مصر.

جلال حاول أن يتماسك:

- فاضل عشرين كيلو على القرية.. خلينا نروح نستريح ونتناقش وبعدين نقرر نرجع ولا لأ.

اندلع صوت كريم كالحريق:

- فيه عربية جاية ورانا يا جماعة .

التفتوا جميعا للخلف، وأمعن جلال نظراته في المرآة العاكسة كانت سيارة بيضاء بيجو أجرة تنطلق فعلاً خلفهم.

كريم وقد تبنى اقتراحا بالتوقف:

- إديهم إشارة يا جلال خليهم يقفوا عشان نكلمهم ونعرف شافوا إيه بعدنا..

عزة أمسكت بذراعي غادة متشبثة:

- لأ.. مش عايزة العربية تقف.

نادى عليها الجميع:

- اهدئي يا عزة.. نريد أن نعرف ماذا حصل لنا بالضبط.

أعطى جلال إشارة ضوئية عالية وملحة ومكررة للسيارة البيضاء التي بادلته الإشارات، ثم أخرج جلال يده وفرد ذراعه وأشار إلى جانب الطريق علامة التوقف هنا؛ وهدأ سرعة السيارة تماما ومال إلى اليمين ثم توقف حين رأى

السيارة قد توقفت خلفه بأمتار، فتح جلال الباب ومن ناحيته فتح وائل وكريم أبوابهم ونزلوا جمعيا بينما ظل تامر راكنا بظهره على المسند، لم يهبط أحد من السيارة البيضاء بينما سار الثلاثة إلى السيارة في تردد وارتباك ودهشة حين فتح سائق السيارة البيضاء الأضواء العالية في وجوهم فأعمتهم عن الرؤية تماما ولما أطفأ الأضواء دعكوا عيونهم وبذلوا طاقة ما في محاولة الرؤية، بينما كان صوت نفير سيارتهم ينطلق بعنف وبتواصل محمود، عادوا برؤوسهم إلى حيث مصدر نفير وصراخ سيارتهم فإذا بها تعود كالمجنونة نحوهم وأبوابها مفتوحة وصراخ عزة وتامر عليهم:

- اركبوا بسرعة. ارجعوا.. اركبوا

- حين التفت جلال مذهولاً إلى السيارة البيضاء رأى رجالاً طوالاً عراضا هائلي الأحجام سود الملابس الفضفاضة والأوشحة الخضراء ترفرف على أعناقهم وملفوفة بعناية وفن على رؤوسهم وهم يقتربون بفحيح ريح ناحيتهم

صراخ تامر كان عنيفًا وعنيدا:

- أشباح. عفاريت. اركبوا يا مجانين...

أنقذهم هذا الضوء الصاخب القادم من تلك البوابة الجديدة الشاهقة التي صنعها أصحاب القرية؛ لا أحد يعرف من كان صاحب الفكرة التي بدأت شركة مقاولات تنفيذها حتى أتمتها على عجل بعدما رحل الصيف، أسوار عالية يكاد المرء يرى السماء على حافتها، طلاء الأسوار أصفر يوشك أن يكون بنيا، ومصابيح إضاءة كاشفة ومتحركة على شكل زهرة عباد الشمس، تلتقي بأضواءٍ تُعري الصحراء من غموضها تماما تستدير كل دقيقة فتصنع نهارا مؤلفًا خصيصا للقادمين إلى القرية، بعض الألسنة تحركت فنطقت أن هناك فوق الأسوار أطباق لاقطة صغيرة ودقيقة تكشف كل شوارع المدينة وتظهر على شاشات تليفزيونية في مقر سري داخل المدينة، العابرين والسائرين والداخلين والخارجين بل والنائمين على أسرة البحر كذلك تلتقط جميع أرقام السيارات وطرزها وركابها، وتجمع شفرات لتطابق أرشيف معلومات هائل الفخامة بات موجودا في محتويات أسطوانات كومبيوتر عن سكان وزائري المدينة، السبب المعلن بطبيعة الحال هو الحراسة والتأمين خصوصا وسكان المدينة من رفعة القوم، والأسباب الخفية ظلت خفية لكن اتهامات التلصص والتجسس

باتت واردة بقوة عصية على الضعف والتراجع، حين رأى تامر ضوء المدينة البازغ وهو مندفع بسرعة انتحارية في سيارته التي ضمت الجميع وصوت ينمو كالسرطان خوفًا ورعبا تحت جلودهم، شعر أن أحدا يفك عن أنفاسه المجروحة أربطة الشاش أو جبيرة الجبس عن قلبه، كانت البوابة تنفتح آليا والسيارة تصعد على المطب الصناعي المرتفع بينما ظهر أمامها أربعة من الحراس الأمن بزيهم الأزرق الغميق وشارات صفراء على صدورهم ومستطيل معدني فضي محفور عليه اسم كل منهم بإنجليزية سوداء والأربعة من ذوي الملامح الصغيرة الدقيقة كأن فيهم شبه قرابة وصلة دم لكن أحدا من ركاب السيارة لم يكن يقدر على فتح عينيه، فقط فتح تامر باب السيارة وهبط مرتجفًا، وقال بأحرف منكسرة ومضغوطة:

- فيه أشباح على الطريق.

لما عاد بالسيارة إلى الخاف وصرخ عليهم كالمجنون:

- أشباح.. اركبوا

كانت غادة متعلقة برقبته من الخاف تكاد من فرط التشنج أن تخنقه، وهي التي استبانت أن الذين هبطوا من السيارة

البيجو البيضاء لاستقبال قدوم جلال وبقية المجموعة ليسوا إلا أشباحا رغم بروده الساخن والسخي الذي دفعه لئلا يهبط مع جلال والمجموعة، كان مستعدا أن يصدق فورا صرخة غادة ونني عين عزة الذي تحرك مثل كائنات ألعاب الكومبيوتر:

- الحق أشباح يا تامر، الحقهم يا تامر.

لم يفحص الأمر ولم يناقشهم قفز على مقعد قيادة السيارة حتى أن قدمه أصابت سارة في رأسها وعاد بالسيارة إلى الخلف فاتحا بابه وصارخًا على زملائه لهذا عندما جروا كالملسوعين لدغًا وقفزوا في الأبواب المفتوحة حتى أن وائل تعلقت ساقاه خارج السيارة حين جرى تامر بها وجلال ظل واقفًا بقدميه على عامود السيارة الحديدي تحت الباب ممسكًا بالباب المفتوح كمن يقف على باب أتوبيس ورأسه ملفوفة ناحية العالية التي تعمي العيون، يحاول أن يفهم أن يدرك كنه ما يجري حتى أنه صرخ بلهجة لم يفلح في تغطية إيقاع غطرستها ورغم ابتعاد المسافة واستحالة أن يسمعونه نادي:

- انتوا مين.. عايزين إيه؟

حين دخل بجسده كله إلى الكنبة، كان يرى زرقة شفاه سارة كأنها جثة غريقة أخرجوها من جب البحر منذ لحظات، وروح وائل الرائحة، وكريم بروحه المبددة تماما.. وحده تامر الذي همس بتشكك في تأكدهم من ثبات أمر الركاب السيارة البيجو البيضاء وأنهم أشباح، لكن غادة صرخت فيه تلومه وتعنفه:

- أشباح.. أنا متأكدة.

لكن جلال تدخل:

- متأكدة إزاي..؟

عنها وبدأ الشك يسري كالخدر، خدر النوم أو حذر مخدرات أو عدم تصديق أن أحدا قادر على أن يفزع من تفرغ له الطرق والدروب والركب والركبان.. ربما الموضوع ليس أشباحا، ربما رعبا متوحشًا قد امتلك زمام أرواحهم، لكن وائل عاد فزرع شوكًا في زهور أملهم إذا كان ركاب السيارة البيجو ليسوا أشباحا وهذا خيالنا المرعوب، فما الذي شاهده الجماعة في سيارة عزة هم أيضا ليسوا أشباحا الذين صعدوا فوق السيارة، ودغدغوها وظهروا في الطريق لها وصدمتهم السيارة.

قال جلال بحسم ساعتها أنه وارد جدا أن يكون مجرد أوهام لكن نظرة من كريم إليه فعلت فيه ما يفعل حد موس الحلاقة حين يجرح الخد، فهم أنه يذكره بالدم الذي وجده تحت سيارته يغرق الأسفلت.. لكن ظهور الضوء المبهر والآسر لبوابة المدينة صنع فيهم ما يشبه مشاهدة أهل المريض عودة عضلة قلب المريض للنبض بعد أول صدمة كهربائية في العناية المركزة.

استمع الحراس لكلام تامر في رد فعل الحائط أمام كرة الإسكواش لا أي شيء.. الحراس في مكان مثل هذا مشغلون بالطاعة وليس بالفهم.. فقط ركب اثنان منهم سيارة الأمن نصف النقل حيث صاحبت السيارة التي يقودها تآمر حتى قصر السيد دواد والد كريم، الذي كانت الأضواء فيه ترتع بالحياة، بل وصوت موسيقى صاخبة تصرخ من نافذة الشرفة الخلفية التي ظهر فيها صبري مرتديا قميصه الأبيض الواسع بنطلونًا قصيرا خشن القماش كاكي اللون وعلى رأسه تلك القبعة البيضاء الطويلة للطباخين، أشار لهم بيده علامة التحية والترحيب، من داخل السيارة كانت كل النظرات التي لمحته تحتشد له بالكراهية المفاجئة.

ألقوا بأنفسهم على الأرائك والوسائد مثل حفنة سمك رماها صياد من شبكته على أرض قاربه الخشبي؛ فيها رائحة الحياة ونبض النفس ورعب اللحظة وتشوش الانتظار، كان طبيعيا إذن أن تشم خمس قطط أقدامهم الممهورة بزفارة الذعر حين نهرها وائل وأزاحها بقدميه، انبرت سارة للرفق بهم والحنو عليهم، أطلقت إشارة بإصبعيها فتجمعت القطط الخمسة على فخذيها وفي جنبها ملتصقين بخصرها وبفرش الأريكة، غادة وقد صكتها الدهشة:

- انتي كنت بتخافي موت من القطط زمان يا سارة، من إمتى حبتيها..؟
- ثم في استغراق غريب على غادة:
- وحبيتك.

نظرت لها سارة بابتسامة مصافحة ومهادنة وسكنت في حضنها القطط .

كان صبري العتر قد حضر قبلهم مع سائق كريم داود الذي عاد إلى القاهرة في منتصف النهار بعد أن أحضر لوازم الرحلة من لحوم طازجة وصناديق البيرة والخضروات المجهزة للطهو وسلال من الفاكهة وقوائم من علب المربى

والألبان وكيلوات من أنواع الجبن الفخيمة وشرائح اللحم البارد والمدخن وأفخاذ الدجاج ونسائر الديوك الرومي، ومكث السائق مع صبري في المطبخ يجهزان بالتقطيع والتخلية والتتميم على الاحتياجات، في الوقت الذي تسارع فيه إيقاع عمال النظافة الذين أحضروهم من شركات للخدمات بالقاهرة، في تنظيف السجاجيد وتنقية القصر من رمل الشاطئ وآثار الرطوبة والبلل على الحوائط والأثاث الخشبي والنوافذ وأركان القصر المختلفة، وأعادوا تضميد الجنينة من عدوان الأمواج القريبة والرطوبة القارصة، إنها الآثار الجانبية للثراء الفاحش، الجانب الآخر لأن يكون القصر مطلاً تماما على البحر، ومن ثم فإن البحر والطبيعة تتوحش بالرزاز والرطوبة والرمال والنشع أعداء تافهين للأغنياء حين يكون هناك بشرا على استعداد للقيام بدور المبيدات الحشرية.

حين فتحت غادة صندوق قططها الذي أحضره صبري مع في الصباح شعرت بوخزة تشك حافة قلبها وللمرة الأولى منذ سنوات لا تفتح ذراعيها بنفس الحماس والحب والوهج لقدوم قططها في حضنها بل لعلها أدركت أن قطًا منها لونه

أكثر سوادا مما ينبغي. عيونه ألمع بريقًا مما كان، ذيولهم ثابتة دون هز أو حركة.

صرخت غادة حتى أن الجميع انتفض:

- فيه إيه....؟

- شبح تاني......!

مدت كفها مرتجفًا ناحية السلم الذي وقف عنده حارسا الأمن وقد وصلا حالاً مع صبري بعد أن أنهوا حمل الحقائب والاطمئنان على حالة السيارة، نظروا جميعا إلى حارسي الأمن الذين وقفا لا ينطقان مثل مانيكان في محل ملابس.. انتبهوا على صرخة عزة التي شاركت غادة في الصرخة وفي عناق متشنج كأنما تلوذان بأنفسهما من الفزع.

- الاتنين واحد.

تشير عليهما بأصابعها فابتسم الحارسان وأدرك جلال المفارقة فهز رأسه ببرودة ووضعت سارة ابتسامة على جانب شفتيها.. انبرى وائل:

- إيه انتم توائم.....؟

علق تامر:

- هيه ناقصة رعب..؟!

الحارسان توأم كامل الشبه ومع الزي الأزرق الموحد ورابطة العنق السوداء كان الأمر كفيلاً ببث نفس الرعب في قلوب هشة وأقفاص صدرية مذعورة سلفًا.

دعا جلال الحارسين للانضمام إليهم فاقتربا من صالة الاستقبال الواسعة التي ضمت جماعتهم على الأرائك وفوق الوسائد بينما آثر كريم أن ينام على الأرض مستندا بظهره على الحائط دون أن يشعر بلسع برودة حيث غمرته زجاجة الكحول بدفء كأنه الحمى.

حافظ الحارسان على ابتسامتهما الموحدة، لكن عزة نهرتهما:

- بتضحكوا على إيه...؟

فانكتما.. فواصلت:

- المحمول مش شغال هنا ليه....؟

في اقتضاب أجاب أحدهما:

- الشبكة واقعة من ليلة أمس.

همس جلال في الهواء الفاصل بينهما:

- اسمك إيه....؟

- سالم.

ثم أشار إلى توأمه:

- وسليم.

واصل جلال حواره معهما دون أن ينتبه لرعب غادة وعزة المتزايد كلما نطق التوأم:

- منين؟

- من قرية هنا جنب المدينة.

تداخل تامر في الحوار:

- هل شفتم الأشباح؟

ابتسم التوأمان نفس الابتسامة الموحدة:

- عفاريت.

سألت عزة:

- همه العفاريت همه نفسهم الأشباح.. حاجة واحدة يعني....؟

نظر لها تامر بنظرته الحادة وانفرد وائل بالتوأمين:

- فيه حد في المدينة غيرنا......؟

أجاب سالم:

- كان فيه لغاية العصر ست أو سبع شاليهات مفتوحة وفيها ناس.. أما القصور فهذا القصر فقط.

تكلم سليم وهو يحدق في زجاجات كحول فاخرة موضوعة ملتصقة بانتظام كأنها في واجهة عرض بمحل خمور.

- يا أساتذة اطمئنوا.. واضح إنكم كنتم مرهقين في الرحلة وما حصل كان مجرد أوهام أو تهيؤات.

سالم أكمل:

- أو حتى ناس طلعت عليكم في الصحراء.. جايز قبائل بدو عنيفة شوية، وسيعرف الباشوات كيف يؤدبوهم

في هدوء مدت عزة حبل السؤال إليهما:

- لكن أنا ملاحظة إن حتى التليفونات العادية هنا لا توجد بها أي حرارة.

صرخت غادة بمجرد ما سمعت الكلام.. فمد لها كريم زجاجته:

- إما تشربي.. أو تخرسي.

اشتد فزع القطط فجرت ثلاثة منهم نحو وائل الذي وضع واحدة منها تحت إبطه، وفي تؤدة وهدوء وأشد ما تكون لحظات العدم حضورا أخذ يداعب بأصبعه فمها، وشد شعر شاربها، وبدأت تفتح فمها على آخره إرهابا أو مداعبة فسكت

وبسرعة وبخفة حواة دلق جرعات من الكحول في جوفها، أطبقت القطة فمها سريعا وحركت رأسها بعنف وارتفع مواؤها رفيعا وحادا وأخذت تجري نحو سارة ثم عائدة إلى وائل حتى أغمضت جفونها، ثم انطلقت بعد برهة صمت إلى السلالم إلى الطابق الأرضي للقصر وتبعتها بقية القطط حين تابعها كريم بنظراته وهو يجرع شربة أخرى من الزجاجة فيما تاهت أحرف الكلمات التي يسمعها من الحوار الدائر بين الجماعة وحارس الأمن.

- احنا معاكم طول الوقت.. وشبكة المحمول بين لحظة والثانية ح ترجع ثم التليفونات العادية شغالة لكن لأن فيه تغيير في الأرقام في السنترال المركزي ممكن تلاقي عطل ساعة أو اثنين في أي رقم لكن بشكل مؤقت جدا، وعلى بكره ستكون أرقام السنترال كلها تغيرت والحرارة موجودة أربعا وعشرين ساعة. ثم انزلوا البحر واستمتعوا وانبسطوا ولا داعي لأي قلق.

بدا أن جلال يميل إلى عبور الحدث، لكن صبري الصامت في ركن قصي قال:

- والعربية المتروكة في الصحراء.

لمح نظرة شكر وعرفان من عزة قادمة نحوه وتدخل جلال:

- ممكن تبعتوا حد يطلع العربية من على الطريق

رد سليم فورا:

- مؤكد.. ساعتين بالكتير وتكون العربية موجودة قصاد القصر وأي أعطال فيها لدينا في إدارة الأمن قسم للصيانة ح يحل المشكلة فورا.

وفي أداء صادق ومتفانٍ قال سالم:

- يا جماعة الموضوع كله تهؤات

ندت من وائل جملة مخلوطة بالسخرية:

- عزة ضلالات

تامر صرخ فيه وهو يسمع خلفه نحنحة بكاء:

- اسكت..

لكن صوت عزة جاء حاسما:

- انت فاكر الكلام الفارغ يا تامر ممكن يهزني...؟

غمض على تامر مصدر نحنحة البكاء، التفت، وجد أن كريم هو الذي يبكي فعلاً، نظر له وائل ثم أدرك الجميع صوته الباكي فتيقظوا:

- مالك يا كريم..؟

أشار كريم إلى الحارسين التوأمين وهو ينزع بكاءه عن حروفه:

- رغم أنهم شكل بعض جدا بطريقة فظيعة لكن مش عارف ليه حبيت سالم أكثر من سليم.

تجاهلوا كلامه تماما رغم أن التوأمين لا يفهمانه بدقة، فقط أمعنا التأمل في القطط التي عادت واندست تحت إبط سارة وفي حضنها وعلى حجرها.

انصرف الحارسان وعاد جلال بعد أن ودعهما حتى عتبة السلم، وقال:

- ما رأيكم؟

صممت عزة على أن تقف وهي تتكلم وأن تدفع بيدها وائل في صدره وهي تزعق:

- أنا متأكدة إن كان فيه أشباح.. كائنات غريبة خرجت علينا في الطريق.. والحيوان ده شافها معانا.

كان الحيوان المقصود تامر الذي تلقى الوصف في برود كامل وابتسم كأنه تمثال ثلج.

أعاد جلال السؤال إلى المناقشة:

- نقعد ونكمل.. ولا نرجع ونروح مصر..؟

وائل الذي كان قد أمسك بكف غادة ضاغطًا عليها بقوة طلبا للأمان أو للمؤانسة بينما كانت هي تفك أصابعها كأنها تتملص من مصيدة فئران.. قال:

- لا يوجد واحد فينا يقدر يسوق الآن.. نكمل الليلة ولو عدت على خير كأن حاجة ما حصلت.

صرخت فيه غادة وهي تضرب كفه الماسكة بغِل ففرقت بينهما:

- عدت على إيه.. يعني ممكن تطلع أشباح تاني

قامت سارة من جلستها وهي تسحب القطط وراءها تتمسح بها وتتقافز حولها، لفت سارة المعطف التي سارعت بارتدائه بمجرد وصولها حول عودها فبدت أشد نحولاً مما عرفوا، وزاد بياض بشرتها كأنها استخدمت مبيضات البشرة منذ ولدت، تابعتها نظرات مرهقة بالدهشة وعقول منهكة بالأسئلة حتى اقتربت من عتبة السلم الداخلي انحنت والتقطت شيئًا من الأرض، ثم شيئًا ثانيا، عادت نحوهم في هدوء لا يتسق مع رهبة حطت عليهم جميعا، قالت في مزيج من التماسك

والتهالك وهي تفتح كفيها لهم فتفك قبضتها عن الشيء الذي لمته من الأرض:

- ما هذا؟
- امنعوا واقتربوا.

قالت وهي ترفع كفها لمستوى نظراتهم فتتساقط من قبضتها كائنات مدورة:

- هذه عيون مخلوعة، عيون التوأم الذي كان هنا، سوداء ومستديرة وجاحظة.

صرخت عزة ولطمت غادة وارتج وائل وتسمر كريم وتمزقت كلمات جلال:

- إيه اللي بتقوليه ده؟

فلما لمحت استنكاره وهي ترمي العيون الأربعة على الأرض، رفعت قبضتها الأخرى وفكت ضمتها فأسقطت فكًا صناعيا كاملاً:

- وهذه أسنانهم!

لم ينطق أحد فقد لطم آذانهم دوي مرعب كأنما انفجار قنبلة اندفعت قطع زجاج حادة ومتكسرة وشظايا مفتتة ودقيقة تملأ الهواء، تتقاذف أمام وجوههم، تحت أنوفهم، في

شعورهم، قطع زجاج ملونة بحمرة داكنة يسيل منها قطرات دم صغيرة ودقيقة، صاحوا وصرخوا وشهقوا وبهتوا وولولوا وبكوا وسقطوا وترنحوا وارتموا على الأرض والأرائك، وحين فتح جلال عينيه رأى الحارس سليم بلا عيون وبفم واسع فارغ ممسكًا بقطعة من لحم مشقوق غاطس في الدم يقطر نازلاً على السجادة، لم يتبين ما الذي يمسكه التوأم، شيء ما ملفوف بالدم ويد الحارس حمراء في لون الكبد المسود، نطق سليم:

- دي قطة رمت نفسها على زجاج البارفان، كسرته واتقطع لحمها حتت.

أضاف سالم وهو يمد يده لهم ممسكًا برأس القطة المقطوع وقد شعروا مثل مخدر يخرج من غرفة العلميات يستبين ملامح السقف:

- ما تخافوش دي راسها كمان اتدبحت.

يتذكر جلال يوم وقف في صباه تلك الوقفة في البلكونة المطلة على البحر، كامنًا ومنحنيا برأسه وفي يده قطة صغيرة يشاغلها بينما جلس أبوه فهيم السعداوي بالشورت و"التي تشرت" الملون الذي يعاكس سنه، شفتاه تضم السيجار

وصوته في فحيحه حين يتعصب، أحباله الصوتية غليظة تحس أنها تتخبط في بعضها أو تتاف على نفسها حين تظهر انفعالاته، سأله وقد مد يده في الهواء كأنما يريد أن يخلعها من كتفه:

- وانت كنت بتشم معاه بسلامتك.؟
- أنا عمري ما شميت يا بابا
- يا فرحتي، أمال كنت بتتنيل بتعمل إيه مع ابن ونيس.

لماذا لم يكن ساعتها وجلاً خائفًا مرتعدا كما تمنى والده أن يكون، كان واثقًا أن فهيم السعداوي سوف يعالج كل شيء ويطمس كل ما يدينه أو يخجله، لن يسمح الصحفي الكبير رئيس مجلس إدارة الجورنال اليومي الرسمي أن يفضحه ابنه كما لن يقدر ونيس الشرقاوي أن يجلب عليه موت ابنه عارا لا يحتمله اسمه كأديب يساري قديم ومشهور، لذلك سحب في وقاحة مظهر المطأطئ الخجلان وحكى لوالده:

- بهي ابن أونكل ونيس بيشم من زمان، من أيام ثانوي،
- مين اللي كان بيجيب له السم؟؟؟؟؟
- مدرس عندنا وعيال كمان شمامة في المدرسة

انتفض فهيم غاضبا.

- في المدرسة....! انت عارف المدرسة دي كانت مصاريفها كام..؟
- كانت أكتر لو أضفنا تكاليف الشم..
- وانت.......؟
- أنا كنت أضرب بانجو بس.
- بس.........!
- لأ واللي عادي بقى بتاع البيرة والكونياك والحاجات المقدور عليها دي.
- كده.....!!!!
- بابا، البار في البيت عندنا عمره ما فضي حتى لما حضرتك حجيت ست مرات ورحت عمرة كل سنة، وحتى بعد ماما ما تحجبت.

ضبط جلال ابتسامة تركن على شفاه والده وهو يقول:

- المهم..
- أبدا، كل حاجة كانت ماشية شبابي، لغاية أول إمبارح لما بهي زودها شوية في شاليه واحد صاحبنا، هو الحقيقة كان كئيب قوي وعيل مريض نفسيا بيقولوا عشان أصل أونكل ونيس كان شيوعي.

ضحك فهيم فعلاً، ضحك بصوت متحشرج وهو يدفس السيجار في المطفأة الخزفية أمامه وأمه تنادي من بعيد:

- السمك وصل يا فهيم بيه..

أمه كانت تنادي زوجها بهذا اللقب منذ وعى، كانت موظفة في مبنى الإذاعة حتى أصبح والده رئيسا للتحرير ومنذ جلس على مقعده في المؤسسة صارت أم جلال تترقى بانتظام، حتى صارت نائب رئيس التليفزيون، ولما طلعت على المعاش تحجبت وقررت تستريح رغم أن عمرها ما كانت تعبانة، عاد جلال وأكمل:

- كلنا كنا في العادي بتاعنا وفجأة لقينا بهي بيحمر ويصفر ويزرق ومش قادر يتكلم ولا يتنفس، على ما فقنا وخدنا بالنا، حضرتك فاهم بقى الفوقان في الأوقات دي بياخد وقت، لقيناه مات، مكناش متأكدين إنه مات لغاية ما تامر صاحبنا اللي في طب قال لنا ده مات، خُفنا نقولكم تزعلوا مِننا، تتهمونا بحاجة، قررنا نشيله ونحطه في بلكونة الفيلا بتاعتهم كأنه كان نايم فيها ومات.

- ورميتوه هناك فعلاً.....؟

لأ، احنا نيمناه على التشيز لونج في البلكونة ده صاحبنا برضه..

- لأ، أصلاء.

هز فهيم رأسه وسأله:

- طيب مين اللي عرفهم إنه كان معاكم.......؟
- واد بن كلب فتن علينا.
- ابن كلب
- آه سوري.. آسف.
- لا لا ولا يهمك، بس تعرف يا جلال مش انت ابني الكبير وصحفي بتتدرب عندي في الجورنال، لكن مكنتش واخد بالي إنك كبرت.
- فعلاً يا بابا.
- فعلاً، لكن أنا فعلاً معجب بيك.
- بجد.....؟
- جدا.
- معجب بإيه يا بابا......؟

في صدق حقيقي ودفء أبوي حار، رد هادئًا قائلاً:

- بندالتك يا جلال، لما فهمت إنك ندل، عرفت على طول إن لك مستقبل كبير، أنا عمري ما اتطمأنيت للي عاملين فيها أبطال والكلام الفارغ ده،

سأله جلال وقد قشر غطاء موزة والده:

- انت عمرك ما كنت بطل يا بابا.

رد والده في حماس وثقة مطلقة:

- أنا مكتفي ببطولة السيد الرئيس.

ثم قاما ليأكلا السمك.

وقف كريم مترنحا وقد أمسك بقطة تحت إبطه في إحكام وأخرى علقها على كتفه:

- سارة مرعوبة من القطط، تفتكروا أعمل لها إيه..؟

كانوا قد طردوا الحارسين التوأم ووسط تدافع من الذعر والغضب كانوا يجمعون قطع الزجاج وينظفون المكان بإخلاص بدا لوائل إخلاصا غبيا وهو يهتف في عصبية:

- احنا منتظرين إيه، لازم نرجع، الحكاية كلها بقت مقفرة ونحس.

رد عليه تامر في ابتسامة فيها كل لا مبالاة الحشاش.

- أبدا لازم نحتفل بيك هنا يا كلب وبجريمتك وبشراء دم العيلة اللي قتلتها.

قفز وائل نحوه ينهش بأصابعه في عنقه لكن صراخ عزة وغادة المولول أنقذ المشهد من تطوراته.

قالت عزة:

- معقولة ده أسلوب ناس محترمة ومسئولة...؟

رد تامر:

- مسئولة عن إيه.....؟

جلال كان حاسما:

- ح نبات الليلة وأول ما تروح شبورة الصبح ح نرجع مصر، أنا عندي اجتماع مع ناس من الشركة جايين من بروكسل، ووائل عنده جلسة حزب، شوفوا لنا صبري عمل لنا حاجة ناكلها....؟

التفتت غادة شاخطة في نفسها وهي تضرب بكفها اليسرى ذراعها الأيمن:

- ما تخلصونا من التنظيف والوش بقى..!

ظهرت سارة وقد غسلت وجهها ولفت إيشارب على جبهتها وغيرت ثيابها، اتجهت إلى مقعد في الشرفة وجلست

واضعة ركبتها تحت ذقنها، اقترب منها جلال ولمس شعرها المبلول وهمس:

- انتي أحسن.

شخص كريم في موج البحر وهو يتمتم:

- انتوا واخدين بالكم إن الموج بيعلا قوى كل شوية..؟

ارتفع صوت غادة مذعورا وهي تنتفض تحت ملامس كف سارة على ظهرها، ترمي بنظارات مبهوتة على البحر:

- إيه ده يا جلال....؟

التفتوا جميعا في انتظار رعب حفي بهم، كانت مجموعة من الإبل تجري على رمل البلاج، تتناثر الرمال ذراتٍ وغبارا تحت خففهم، تعدو خاف بعضها كأنما سباق للهجن، يقودها طفل قصير بجلباب أبيض، يلف بهم بعرض البلاج ذهابا وعودة، ينفلت جمل ضخم من الصف يتجه إلى ناحية الفيلات، تنسل الجمال بعضها وراء أخرى تندفع خلفه، ارتجف وائل وهو يصرخ:

- اقفلوا البلكونة وتعالوا ندخل.

وسط مواء قطط وثغاء رعب ورعشات خوف وتحجر ذهول وبهوت مفاجأة، صفر الطفل صفارة بدت بعيدة عالية ورفيعة، فعادت الإبل إلى دورتها كاملة وجروا خلف صفارة الصبي مبتعدين يولون ذيولهم القصيرة ترتج أمام عيونهم الدامعة المحدقة، صرخ فيه كريم بعزم ما فيه:

- انت هنا بتعمل إيه يا واد..؟

عند الدال الأخيرة في كلمة واد وقفت الجمال تثبتت مجمدة بلا حركة، بلا خطوة، بلا غبرة قطرة، مشهد مثبت مسمر كأنه صورة فوتوغرافية كأنما ضغط أحد على زر التثبيت في ريموت كنترول الدي في دي، مشهد في طابع بريد، في لوحة على الحائط، في واجهة شاشة كومبيوتر، شاشة هاتف محمول، لا تهتز الصورة ولا ترتج، كان ذلك الذهول كفيلاً بأن تعدهم سارة، قالت:

- ثلاثة عشر جملاً .

كانت غادة تنحنح خائفة ووائل يضع إصبعيه في أذنيه مفزوعا من هذا الصوت الذي أطبق على آذانهم فأصمها تقريبا، كانت صفارة راعي الإبل وهي ترتفع وتعلو رفيعة ممدودة طويلة كأنها تخرج من البحر والبر والسماء

والأرض، من خارج الشرفة ومن داخل القصر، بل كأنها تخرج من آذانهم لتذيع رعب صفيرها في الكون، ساعتها همست سارة في همهمة وتمتمة، ثم علت طبقة صوتها وهي تقف على سور الشرفة رافعة ذراعيها على طول جانبيها بامتداد كتفيها في وضع المهيأ للطيران من الشرفة إلى رمال الشاطئ، حيث الحركة الوحيدة كانت وسط جمود المشهد هي الموج في تدفقه وارتمائه على البلاج.

صرخت:

- خلاص.. كفاية.. حرام عليكم.

عبرت الثواني بطيئة ثقيلة ثم التفت الصبي بجلبابه الأبيض مرفرفًا من ريح نشبت في الجو لحظة، ابتسم وهو يرمي الصفارة من فمه فعادت الإبل للحركة، وحين احتفت كانت غادة وقد مسحت بقعة دم تتدلى من أنف جلال تسأل:

- دم يا جلال.....!!!!

وقدمت له أصبعها ملوثًا بدم أنفه، فإذا به يمد أصبعه نحو أنفها ويمسحه ثم يقدم لها كفه وقد ابتلت بالدم.

وقف صبري في المطبخ الواسع والمغلف ببلاطات تبرز منها عناقيد العنب وثمار البرتقال، مجهز تماما بما يليق

بمطبخ قصر صيفي، حتى أنه غير محروم من مشهد جانبي للبحر وبلكونة صغيرة تقود إلى سلم خلفي للجنينة حتى يحمل الحمالون والخُفراء أشياء المطبخ ولوازم الطعام بعيدا عن أعين السادة، ارتدى المريلة الأنيقة ولبس القفازات البلاستيكية التي يحتفظ بها في حقيبته الصغيرة التي لا تفارقه أبدا، حريص هو على عطر مميز يلتصق بجلده، واستحمام يومي ودهان بكريمات ملمعة ومنظفة ومطهرة، الشعر مصفوف بعناية والشارب مقصوص ومهندم يوميا والملابس أنيقة ومكوية ومختارة لونيا وباهظة الثمن، عاش عمره يطارد أصوله، طاردا لذكريات تندس في أكثر اللحظات وهجا لتلقمه حجرا، والده الحاج عبده، يتحدى كل هؤلاء السادة أن يتذكروا ما الذي تقصده عبده تلك، عبد المنعم أم عبد الفتاح أو عبد الوهاب، لا أحد منهم علق بقرط أذنه اسم والده كاملاً، هو فقط هذا المكوجي الفاخر الذي يأتي كل يوم في نهار أو ليل بمواعيد منضبطة وموقوتة، يجلس عند مدخل المطبخ أو ممر داخلي أو في ركن قصي في ردهة بعيدة، يكوي الملابس ويطويها ويضعها مصفوفة في أرفف ودواليب حفظ قسمات خشبها وخربشات عمرها، عبده الذي

هو عبد الكريم الذي هو والده عمل عند خواجة يوناني كان مكوجي حي الزمالك، فلما رحل استلم عبد الكريم المحل والمهنة والزبائن الأثرياء الذي صار وجوده في بيوتهم علامة ثراء أو اعتراف برقي طبقة فلديهم عبده المكوجي، كان مهما لديهم في بطاقة التعريف بالصعود الاجتماعي والثراء المادي والمكانة الطبقية، كان مهما لديهم بمثل ما هم مهموم جدا لديه سواء براتبه أو شقته الواسعة المعبأة بالخيرات في العباسية أو بتعليم بناته وزواجهن زيجات مستورة وطيبة، حتى لما كانت أصابعه ترتعش وأصابه سكر سقيم تمكن من ساقه فبترها، ظل علامة زمن قديم باقية كالتحف في ردهات البيوت، ورغم كونه موضة قديمة إلا أن أوفياء العائلات تحول فخرهم به إلى عطفهم عليه، ثم إلى شفقتهم على حاله، صبري الذي مشى خلف آثار أقدام والده المبتورة لم يحب أن يكون في يوم من الأيام مكوجيا، صحيح أنه نجح في الدراسة ودخل معهد السياحة والفنادق إلا أنه كان ضد رغبة والده تماما، كان يريد أن يلتحق بكلية الشرطة مستندا إلى أنه مكوجي رئيس الأكاديمية وقتها ولكن صبري كان يغافله منذ زمن ويدخل مطابخ الهوانم، مد يده

وفرد أصابعه وقطع الثمرات وشذب الخضروات وأدار قرص البوتاجازات واكتشف أنه طباخ، أحب المكان بالتصاقه بنساء قادمات للاطمئنان على الوجبة واستواء الطبخة وشراء اللوازم، يتبادل الابتسامات الودودة والأدب الجم المغموس في التهذيب لا ينسى تلك اللحظة الخاطفة التي دخلت فيها السيدة رقية إلى المطبخ وهي في خمسينيتها القابضة على تلابيب الأنوثة، دخلت بوجهها على طبق المرق وشمته ساحبة بخاره إلى أنفها، ثم التفتت له بعرقها ومرقها وأمعنت فيه نظرة طويلة ثم ضمته لها أطول(....) وامتصت شبابا تتوق إليه، كان يرى في سريرها زوجها دكتور صادق باشا وابنها وائل وابنتيها الكبيرتين ولؤلؤها ومعاطفها الفرائية وخواتم الماس البراق وجلدها الشاحب وملابسها التحتية ذات الآلاف من الجنيهات وشخطتها في البيت وصوتها الصاخب في الهاتف مع صويحباتها ومناقشاتها الصموتة مع زوجها حين دخوله وركونه عند الأنترية وسؤالها عن أحوال الجلسة وسياراتها الشبح وحارسها الشخصي وستة من تليفوناتها المحمولة والساق المبتورة لعم عبده المكوجي، كان السرير دائما مزدحما في عينه إذ ترى ما لم يكن أبوه يراه. كانت نساء

البيوتات في مثل هذه السن بمثل هذا البعد، في قوة هذا البأس واليأس، هن قفزة (الزانة) له في تلك الحياة، احتفظ بدماثته وأدبه، طوى فجره وفحولته تحت صمته، وصار طباخهم، وهذا الشاب الأسمر الأنيق الصديق ساعة الحاجة، كلما اقترب منهن أكثر كلما انحنى (أطول) وأصر على عبودية مصنوعة، يقدم نفسه لهن في لحظات الطلب المتهيج على أنه عبد من أرقائهم، يؤمر فيطيع، فكن يرتحن ويأمن له ولم يصدر أبدا عنه شرود كلمة، ولا سرحان نظرة تشي أو تفشي أو تتجاوز حدودا فاصلة أو علاقات واصلة، وكان التصاقه بصحبة الأولاد والبنات من تلك البيوتات طبيعيا وسلسا، كانوا يحبون صمته وتجمله و إخلاصه في العبودية الحرة الاختيارية، قالت له عزة أن المحطة لديها تبحث عن طباخ يقدم برنامجا متخصصا، ابتسم ولم يعلق لكنها جذبته من قميصه وأجبرته على الحضور لمدير المحطة في اليوم التالي، أعجب به الرجل ولكنه توقف عند رغبة البحث عن ممول أو راعي للبرنامج، تطوعت رقية هانم ولعبت دور البطولة في الفيلم الذي أرادت دائما أن تشاهده.

ارتجف صبري مبهوتًا حين رأى الرجل واقفًا أمامه على عتبة باب المطبخ، أسمر وطويل ويرتدي عباءة سوداء فضفاضة تلف جلبابا أبيض وشالاً أخضر فوق رأسه وحول عنقه ويغطي كاللثام ذقنه.

قال صبري وشيء ما غامض يجعله ينهج متقطع الأنفاس كأنما يجري منذ سنوات على نفس البلاطة التي يقف فوقها:

- عايز حاجة يا ريس؟

مد الرجل قبضتيه ممسكتين بسلة مكسوة بقماش أبيض شفيف، فهم صبري أنه يحضر السمك، استعاد ملكوته وهتف فيه:

- حطهم عندك على الترابيزة.

رفع الرجل القماشة الساترة وألقى السمك على سطح المائدة الرخامية، شعر صبري أن أحدا يلف حنجرته بين أصابعه وينزعه من جوفه، بهت وهو يشهد عينًا ما حمراء تلمع كالبرق في رأس الرجل الذي كأنما كان بخارا انتثر في المطبخ، بصر صبري السمك الملقي أمامه يتحرك في لفظات موت أخيرة، يتلوى ويلتف ويزحف ويتحرك، من المفترض أن صبري مدرب تماما على ذلك المشهد الذي لا يعني سوى

أن لا معنى له، لكن جنونًا أطبق على حواسه وهو يرى السمك يكبر ويكثر، يتزايد ويتوالد، يملأ المائدة ويتسحب على قوائم المائدة، على السيراميك، يزحف على الحوائط، يدخل الحلل والأواني، يتمشى في الأحواض المعدنية، يقف فوق الثلاجة، يفتح بابيها العريضين، يعود صبري برأسه ثم بجسده كله يحاول الخروج جريا من باب المطبخ فإذا به مغلقًا محكما واستحاليا، يشهق وتدوي صرخته هائلة حين يرى الأسماك تفتح بابي الثلاجة فتخرج عشرات الأسماك الصغيرة مندفعة متتالية في أفواج متدفقة ومنتظمة، وتندفع صنابير المياه بالماء المطلوق الغزير كأنما ينفك سجنه من مواسير سرمدية، المياه تملأ الأحواض، تنسال على الأرض، من الثلاجة، من فتحات عيون البوتاجاز، من مصابيح السقف، من مواسير الغاز، تصعد حتى ركبتي صبري وهو يصرخ مولولاً وناحبا، يخبط بقبضة مذعورة على زجاج الباب، وبقبضة أخرى يجذب سكاكين ومغارف وشوكًا مرتبكًا ومذعورا يضرب بها السمك الذي يصعد على جسده ويملأ كالنحل مسام روحه، الماء يصعد حتى صدره ومئات

الأسماك الدقيقة القزمية تلعب بذيولها وتدس رأسها بين شفتية، ساعتها فقط انفتح الباب.

التفتت غادة وهي تلهث خائفة راجفة:

- سمعتوا الصوت ده .....؟

تنبه جلال هو يشعل سيجارا ويتحدث على ثلاثة مراحل، يشعل الثقاب الأجنبي الفاخر، ينفث في السيجار بين أسنانه، ينام السيجار على يسار فمه مغروسا بين ضرسيين، لحظتها كان استعجال استعدادهم للرحيل واضحا في ملابس لم يرتدوها بالكامل، في عيون زائغة وجرعات متسرعة من كحول وأقراص مهدئة أو مخدرة، من تخبط أكتافهم وهم يتحركون وتصادمهم بقطع الأثاث وهم ينطلقون، تمموا على التليفونات المحمولة، حاولوا الاتصال مرات، لا شبكة ولا التقاط صوت، أرسلوا أكثر من رسالة لكنها لم تصل أبدا،

بين الوقفة والمشية قال جلال:

- صوت إيه ؟

كانت غادة قد تركته وهي تسحب يد وائل في يدها وهو غير قادر على فك أصابعها الرفيعة ذات العظام البارزة والطويلة التي تقضم على كفه وتجره في غضب مرعوب،

وصلا إلى الممر المؤدي للمطبخ، فشعر وائل أن شيئًا رطبا يقفز في حذائه فرفع ساقه مبهوتًا ومفاجئًا، ولولتْ غادة:

- إيه الميه دي كلها، فيه إيه؟

كانت المياه تتدفق من باب المطبخ ثم ضربته كعاصفة تقلع شجرا، ارتمى الباب عاليا مخلوعا من كل مفاصله، وطائرا في الهواء ممزقٌ خشبه قطعا ومِزقًا صغيرة مفتتة طاحت مثل شظايا نار في الأركان والأسقف، وانفجرت قطعة خشب مسنونة من قلب لوح الباب لتضرب جبهة وائل المخطوف خوفًا، سقط على الأرض سابحا في ماء يجري كفرع نهر، اصطدم بجسد مبلول نائم في الماء فالتصقا حشرا وسدا الممر والماء يضربهما في عنف بينما غادة المبلولة والمشلولة تتساقط منها أحرف تائهة:

- ح اموت، ح اموت.

حينها اندفع من خلفها جلال وكريم وتامر.

وضعا صبري ووائل، كلٌ على أريكة في غرفة خلفية وأحكما إغلاق الشبابيك وقبل جلال رأس عزة راجيا منها أن تجلس مع غادة بجوارهما حتى يفيقا.

كانت غادة تنتحب وهي تهتف:

- همه ماتوا.؟؟؟؟؟

نهرها تامر:

- ما حدش مات فيهم، راعوهم دقايق بس لغاية ما نجيب الحرس ونطمن على العربيات ونسافر حالاً،

ردت عليه غادة وكأنها تعرفه منذ دقيقة فقط :

- صحيح يا دكتور، صارحنى يا دكتور.

كريم كان حازما:

- مش ح نقعد دقيقة واحدة هنا تاني.

تابعت عزة سكون وائل المميت وهي تنظر خلسة للباب ينغلق والجماعة يخرجون بينما غادة تحتضنها وأسنانها تتصادم كدقات التلغراف القديم:

- أنا مرعوبة...

ثم سألت سؤال الليلة:

- سارة راحت فين؟

وائل لا يحس بسهولة، مصمت وأجوف كأن هواء يجري في عروقه بدل الدماء، تسمع حفيف الهواء كأنه خوار عجل في جسده ولم يهتز أبدا حتى عندما مرق بجواره سائق السيارة السيات، لم يكن شيئًا من الكبرياء هو ما همد شعور

وائل تجاه السيارة الصغيرة الضئيلة الصرصارية التي مرت بجواره بصوت مكركر، بل كان قلب التيس الذي ينحشر في صدره هو المسئول عن بلادةٍ مهذبة تعتري كيانه سابحة، لكنه بدأ يتململ ويتثاءب داخله حمار وحشي عندما رأى سائق السيارة يضحك مع فتاة بجواره، محجبة وصغيرة الرأس، وثابتة العنق، ظل يؤكد بعد ذلك أنه لم ير طفلاً معهما في السيارة فلم يصدقه أحد ولا هو تأكد أبدا من صدقة، ساعتها شعر دفقًا من العدوان بصق في عقله إلى حد أن داس على بنزين سيارة الجيب اللاندروفر كأنما يعلن سبق حرب، اقترب من ظهر السيات فلفح هواؤه السيارة المتواضعة كأنها ترنحت، عاد والتصق بجانب السيارة الأيسر فارتبك سائق السيات وظن متعثرا أن اللاندروفر تريد أن تعبر، أشاح بيده ثم التفتت البنت نحو السيارة الفخمة مرتاعة أو مبهوتة فشعر وائل أنها تختبر ذكورته، استثاره استطلاعها أو فزعها فضغط على السرعة حتى يكاد هواء عبور سيارته يفرم السيات التي رمى نفسه سائقها على يمينه فهبت عليه سيارة نقل قادمة بسرعة مخدرة أوشكت على التهامه، تنهد الولد وشهقت البنت، سارت السيارة بطيئة

مرهقة الأعصاب، فتمهل وائل بسيارته، أعجبه جبن السيات ورعدة ركابها، هذا طريق له خصيصا لسيارته المهابة وعائلات مثل عائلته مهيبة، يتوجهون إلى قصورهم، أو منتجعات الضاحية القريبة، تطل على فسحات الجبال وشساعة الصحراء، هذه جسور الثروة التي تمر عليها سياراتهم فما بال حقير بحقيرته السيات يتجرأ ويقتحم كالهجامين طريقهم، ويتثاقل ويحاول أن يعبر عليهم بلامبالاة،

مد الولد ذراعه من نافذة السيات صارخًا غاضبا:

- ما تلم نفسك يا ابن الكلب.

ضخ الجنون هدير دمٍ في نافوخهِ.

ودار بسيارته عكس الطريق في وجه السيارة السيات التي حاول السائق أن يحفظ قلبه من الانفجار فرقًا، بينما انكمشت البنت في مقعدها وقد وضعت ركبتيها تحت ذقنها جنينية تماما، تحتضن شيئًا ما ملفوفًا وصغيرا.

كلهم هكذا في قريته التي يتلذذ حين يحورها إلى دائرته، هكذا يقول لصحبه، كنت في الدايرة، ليست دائرة وقف ولا عزبة أرض، بل هي قرية كبيرة يدعون أنها مدينة حولها عدد من الكفور والقرى الصغيرة، هي دائرة والده الانتخابية،

وهي دائرته فهو عضو المجلس المحلي عنها، يتذكر عندما أمسكه والده بكف ناعمة ونسائية تماما وهو يدخل به قاعة فخيمة أقيمت خصوصا لاجتماعات لجنة ابن الرجل الكبير، كانت مقاعدها فاخرة ومكلفة وصورة الرئيس في برواز كبير بماء الذهب تتصدر الجدار وميكرفونات صغيرة مثبتة على مائدة مستديرة قطرها عدة أمتار، وفي أناقة تماثيل الموديلات في فاترينات المحلات يجلس الواد حيث هذا لقبه في الحزب، الواد، تعبير بليغ ومكثف وفيه مزج من دلالة أنه ابن الرجل الكبير ممزوجا بمسحة خفية من الاستخفاف والانتقام الكامن التحتي، أمسك أبوه بكتف الواد وهو يقبلها سراعا، ويقبض على يديه مشددا كأنه يهم بتقبيلها، وأطلق عبارات نفاق متلاحقة مدموجة الألفاظ والأحرف، والواد في ابتسامة باردة ورسمية يستمع وحوله عشرة من كبارات القوم الذين يبتسمون ويومؤن برؤوسهم موافقين في انحناء قرودي تمليه قواعد حديقة الحيوان المفتوحة التي يعيشون فيها، قال له:

- ده ابني وائل، نفسي يبقى تلميذك في الحزب، عايز أقول لسيادتك دي شعبيته في الدائرة أكتر مني وا .

كان حضوره الكبير في الدائرة في تلك الليلة الرمضانية الهائلة، ملعب الساحة الشعبية تم إعداده بعمال من وزارة الزراعة قدموا من القاهرة لمهمة تزيين وتشذيب النجيلة والزروع الخضراء، وتثبيت وغرس بعض النخلات الجاهزة، وآخرون من عمال استاد القاهرة الذين ارتدوا زيا موحدا أعطاهم لفحا من الأهمية اختصوا بالمضمار وتركيب قواعد الفراشة اللازمة للمنصة، وعدد ضخم من عمال هيئة الكهرباء في المحافظة مع كبار موظفيها باتوا الليلة كلها في تدبير وإحكام الأنوار والإضاءات الكاشفة اللازمة، والوجبات المطهية في انضباط ونكهة دسمة متخمة جاءت من مطعم أسماك سكندري في سيارة مجهزة، أما مئات من الفطير المشلتت الموصى عليه والغارق في السمن بطبقات العجين الأصفر الرقيقة والشهية التي تهفو لها الروح فقد جاءت من برج المنوفية، وأجواز الحمام المحشي الملفوف في السمن والتحمير المتقن ومئات رؤوس الحمامات المعلقة الرفيعة، سرادق على فدان، مفروشة موائد طويلة موضوع عليها الوجبات على صواني بلاستيكية ومناديل ورقية، وجبال من الموز والبرتقال موزعة في شكل أهرامات على التساوي بين

المساحات المفروشة طعاما، ومئات الفلاحين المبهورين بالمشهد المحتشدين لطعام فخيم ومجاني، كانت الليلة الكبرى التي يدشن فيها علوه واختلافه عن السياسيين المحليين الذين يطمعون في فتات والده، هو الثري الغني صاحب النفوذ الوهاج، يحضر من القاهرة مبهرا الفلاحين الذين تحدق عيونهم في ضيوفه محرومين وشبقين تماما لهذا العالم التليفزيوني الشاهق البعيد، عزة كانت أول من طل عليهم في حضورها المتهتك وعريها التليفزيوني، هاجت القرية كلها، ثم شق المكان ظهور لامع للكابتن محمد سماحة نجم النادي الأهلي فهتف له الكون الريفي متزلزلاً كأنما خلعوا قلوبهم جميعا، وظهرت "نوران" نجمة الفيديو كليب المدوية فانهارت سيقان القرية من روع الانتشاء، وتدافع الناس في مجاعة وعطش حسي وطبقي نحوهم، كاد وائل أن يخلع أسنانه من ابتسامة ضحوكة محفورة على شدقيه، كان يشعر أنهم كائنات جاهلة خشنة مدقعة التخاف، لم يضبط نفسه يحبهم يوما، منذ ولد وهو في القاهرة من مدارس تجريبية إلى لغات إلى الجامعة الأمريكية، كانت الدائرة لديه مجرد فولكلور شعبي وحشي وقشري، كانوا خارج هامش شعوره إلا في لحظات

التنابز مع بعض رفاقه أو الدفاع عن نفسه عند اتهامه بالأصول الفلاحية، أو عند منافسة مع ابن مسئول أو وزير، كان لا يرى في هذا المكان إلا قبح فقره وسماجة منافقيه وخبث سكانه ولزاجة وحاجة فلاحية وخشونة الأكف الخانقة بقبضتها المتشققة وصفرة الفيروس سي الذي يعشش في أكبادهم وكلياتهم التعبانة، علة وجلة، وهذا اللؤم الأبله المكشوف الذي تدسه نظرات الفلاحين في عينيك، وأنفاس العبودية التاريخية التي تشق خطوطها على جبهاتهم وانحناءات ظهورهم وامتنانهم التسولي لدعوتهم لسيجارة أجنبية، عندما قال لوالده أنه يكره تلك البلد ولا يريد علاقة سياسية بها، نهره الأب مستعجبا وأسال (رغيا) عن أرضك وأرض أجدادك، فتبسم وسأله:

- بابا، هل هذا أسهل مكان نزور فيه الانتخابات...؟
- وحياة أمك، أنا أزورها ولو في دائرة وزير العدل.
- طيب ليه مصمم أرشح نفسي هنا..؟
- عشان الناس دول بيحبونا.
- وحياة جدي.. انت مصدق الكلام الفارغ ده..؟
- احترم نفسك يا وله انت بتكلم أبوك.

- طيب أروح أكلم أمي عشان تقولي كلام صدق..؟
- عايز الصدق..؟
- لو فيه منه عند حضرتك..
- فيه، مش عايز أسيب عيلة الفقي تتهنى يوم واحد بعدي بكرسي مجلس الشعب، دول أنجاس ولازم يتربوا.
- قول لي كده..
- هوه كده.. واللي أقولُه يتنفذ.

عندما فتح وائل عينيه على الحياة كان صعود والده قد تم واكتمل، صادق الغزولي الطالب الحفيظ الصميم الذي جاء من الريف ليلتحق بكلية الحقوق، حلمه أن يجلس على مقعد الأستاذية في الكلية، عاش في المدينة الجامعية على الجبنة النستو وعلب الزبادي والكوسة ردئية الطهي والأرز بزيت الكافور، وفي غرفة ضيقة يشتغل فيها جهاز مذياع ترانستور طول الليل بوشيشه ومحطاته غير المنضبطة وحجارته الكبيرة الملفوفة بأستك هدوم على الجهاز، وسخان من الحجر عليه خيطان من السلك الكهربائي المحمر بفعل الحرارة الموصول بفيشة الحائط بسلك كهرباء عارٍ يضع سلكين

أحمر في عين فيشة الحائط وأخضر في عينها الأخرى فلما يحذره زميلٌ أن السخان ممنوع في الغرف يسرع فيلقيه جبنًا من النافذة، يصلي مع زملائه في جامع الدور ويؤمهم في الصلاة لحفظه القرآن الكريم كاملاً لكنه يتوقف عن الصلاة نهائيا داخل وخارج الغرفة حينما يصل إليه خبر إلقاء القبض على العيال الإخوان المسلمين، يوم السادس من أكتوبر حين كان الجميع في الدور والمبنى بالمدينة الجماعية في ولع بالحرب وتتبع للأخبار وتلهف على المناقشة والتحاور واستدفاء ببعضهم التموا في حوش المبنى يتدارسون ويتحدثون، لكن صادق وحده كان يذاكر دروسه ومحاضراته ويسخر بينه نفسه مطلاً عليهم من نافذته:

- ح يعملوا إيه يعني، فاكرين نفسهم زعماء ما يذاكروا أحسن.

في العام الأخير من الكلية وقد أدرك أنه عام الحسم حيث يحلم باكتمال الامتياز الرابعة تسمع أنه لا تعيينات في هيئة التدريس إلا برضا وموافقة جهات الأمن، سهر طوال الليل وارتدى بذلته السوداء الوحيدة وطرق باب الحرس الجامعي

في الكلية، التقى به ضابط شاب متوجسا ومنتظرا، في هدوء وحفظ لكل حرف يتفوه به قال صادق ملقيا نشيد محفوظاته.

- أنا جاي أخدم البلد، وعايز أشتغل معاكم عشان مصر

رد الضابط متفاجئًا:

- عشان مين يا روح أُمك...؟

بهت صادق من رد الفعل فغاص في أمعائه وشم رائحة بوله اللاإرادي وهمس مدمعا:

- أنا أول الدفعة من ثلاث سنين ونفسي أحقق حلمي وأبقى مدرس في الكلية.

راقت ملامح الضابط وابتسم:

- طيب روح أدخل الحمام وتعالى نتفاهم يا دكتور..

من يومها كان مخلصا للأمن إخلاصه للماجستير والدكتوراه وفتح له الأمن بوابة السعد حيث ضموه للحزب وبرعت أصابعه في دق حروف القوانين سيئة السمعة التي طاردت المعارضة ونكلت بالأحزاب، وحصد ثقة القيادة السياسية حين تحدث في مؤتمر قانوني فأطاح بفقيه دستوري معارض، يومها تم وضعه في أول انتخابات تكميلية بدائرته الانتخابية ونجح بتزوير يفوق الوصف، ثم تعين رئيسا للجنة

التشريعية وبات مشرع النظام الأول، يجتمع بالرئيس وبصفوة الحكم، يضبط القوانين في ليلة واحدة يدفع بها للإقرار في البرلمان، يضع موادا في قانون ثم يضع عكسها حين تريد الدولة العكس، يقف في البرلمان مدافعا مفندا، يفصل المواد القانونية واللوائح التنفيذية على مقاس الرغبات الرئاسية، يستغل مكانه البرلماني ومكانته القانونية في أعمال المحاماة في مكتبه الخاص الذي بات أشهر من يخلص عقوداً بين رجالات الحكم وشركات القطاع الخاص، يضع مواءمات الصفقات ويخرج الشعرة من العجين ويمرر الجمل من عين الإبرة..... وتترى الفلوس وتنمو الثروة ويتمدد في الدائرة التي صار ينجح فيها بالتزكية ويحدد فيها زميله عن مقعد العمال، وانهد بيته القديم على مدخل القرية وارتفع قصر شاهق وتوزع أخوته على مراكز النفوذ والمال والسيطرة في المحافظة كلها ودخل بأسهم ضخمة في جميع الشركات التي كتب عقودها وجمع بالمال الحلال والحرم والمشتبهات وبالرشوة والهدايا والإكراميات ما كان يجعل زوجته وبنت عمته رقية ترد متهكمة على دعوة زوجة عمدة البلد التي قالت لرقية:

- ربنا يوعد دكتور صادق يا رب ويبقى صاحب قصر في الجنة.

ردت زوجته رقية وهي تشهق من الضحك:

- هو يا أختي القصر في الجنة يجيله بكام مليون كده!

وحين تنهد صادق وهو يقول لها:

- لازم ندفع مليون جنيه للعائلة التي قتلها ابنك بسيارته

قالت له:

- مليون مرة واحدة!

مرق وائل بسيارته كالدبابة واحتك بمعدن السيارة السيات، صرخت البنت وارتج الشاب حتى تسمرت قدماه على الفرامل فلفت السيارة الصغيرة ودارت حول نفسها زاعقًا موتورها مع صراخ البنت ونجيب الولد، جرت السيارة عابرة الطريق إلى الاتجاه المعاكس والبنت تحمل تلك اللفافة قابضة عليها في حضنها، بينما يرقبان فزعا ورهبةً ورعبا من اندفاع سيارته نحو السيات ليهشمها حتتًا، لمحاه يميل مترا بعيدا في اتجاه السيات ويمضي مارقًا ناحيتهما، كانت مقدمة سيارته تحتك وتخبط في السيات والولد الصارخ هو يحضن البنت ملتصقًا بها:

- كفاية..........

لكن قدم وائل التي رفعها عن البنزين لم تكن قد وضعت نعلها على الفرامل إلا وأطاحت بهما السيارة فوق الجزيرة الفاصلة.

وبعد لحظات أدرك مع خفوت النحيب والصراخ المفجوع أن أحدا أصيب، ولما تنبه لما فعل تبين أن الجميع قد مات.

سمعت غادة شهقة وائل فامتلكها سكون قبوري، كان جسده المدد ينتفض ويرتعش ويفرز قيحا من جلده وشيئًا يشبه بيض السمك يخرج من جانب شفتيه، أمسكت بها عزة وهي تخربشها بأظافرها، تتكسر أطرافها من التشنج والتوتر، يفحصان صبري في رقدته واحمرار هائل ينتشر في وجهه وأطرافه وشيء كالبخار يهب من ملابسه برائحة شواء الحريق، صرخت غادة:

- لازم نخرج أنا ح اتجنن.

أمسكت بها عزة متشبثة وحين وصلا إلى الباب أدركتا أنه مغلق من الخارج، سبت غادة ولعنت تامر وجلال، ثم استدارت في عنف محمود وفقدان (مدوي) للسيطرة على صواميل مخها ورمت نفسها على جسد وائل تضرب فيه

بقبضتيها وتنهش فيه بأظافرها وتشد جلد وجهه وتصفع خده وهي تصرخ:

- انت السبب يا كلب..

وعزة تبكي وتتداعى ساقاها:

- غادة.. غادة.

التفتت لها غادة في عصبية منفلتة:

- فيه إيه يا زفته.؟

فأشارت لها نحو صبري الذي وقف ووضع كفه على كتف غادة التي شمت رائحة الشياط في الجاكت الذي ترتديه، رمت نظرة على صدرها فرأته يشتعل نارا، مع صراخ وصوات وعويل وسباب كانت غادة تضرب بقبضتها صبري فيهتز ويترنح ويسقط وتنكب هي عليه مهووسة بالضرب والدخان يعبئ وجهها يخفي ملامحها، بينما عزة تصرخ وتتوسل لها:

- قومي نهرب يا غادة!

جرتها من يدها، واحتوتها في حضنها، واندفعتا نحو النافذة، بأكف مرتعشة حاولتا فتحها، عصت عليهما ضلف النافذة حتى دميتْ أصابعهما وتكسرت أظافرها ثم فجأة

انفتحت الضاف المحكمة فبان الفضاء خارج الغرفة معتما وصامتًا، لما حاولتا القيام بعد سقطة الهلع ورمية اندفاع ضاف النافذة في وجهيهما، أحستا شيئًا يتحرك بدبيب منتظم بإيقاع خطوات ثقيلة تخبط فوق سطح صاب حديدي يصدر رنينًا قويا يلهب قلبهما ذعرا، التفتت عزة فرأت أسوار الجنينة الخلفية وقد خرجت منها أشعة ملونة متداخلة وغامقة ومهتزة، تلمع في خطف نظر ثم تختفي لحظة ثم تعاود اللمعان حتى تعمي البصر، كان كل شيء قد اختلط في ذهنها وانفجرت باكية حين شعرت أنفاس غادة وقد التهبت في وجهها متشبثة بكتفيها وهي تنتحب، جفاف يحشو جوفها وثقل يشل أطرافها وهلع يجري في دمها، ساعتها بدت أمامهم هذه الجنازة العابرة على أرض الجنينة، رجال بالعشرات يرتدون جميعا هذه الجلاليب السوداء الفضفاضة والعمائم والشالات الخضراء يسيرون في بطء وبأصوات مخلوطة بالهمهمة والهسيس والتمتمة لم تتبين غادة وعزة حرفًا من كلامهم لكن غادة أدركت أن لكل كلمة تصدر من أفواههم نغما، نغم موسيقى مقرع الطبل، كمنفاخ نحاسي، ولكل كلمة لون، فتخالطت الألوان من الألوان من الأفواه بين البنفسجي

الحارق والأحمر الفاقع والأصفر الداكن والأزرق البارد، وقفت عزة مبهوتة وهي ترتجف وتشير لغادة على أجساد الرجال التي تدنو وتقترب منهما، كانت الأجساد أمامهما تسيل كأنها من طين لبن، تتفكك حباته وتنتثر ذراته ويتحول إلى تراب أسود غارق في الماء الثقيل كأنما تساقط عليهم غزير مطر، كانت الجلاليب تتساقط والأذرع تتهاوى والوجوه تذوب والتراب والغبار والدخان يملأ العيون والأنوف، أسرعت غادة وأغلقت ضلفة واندفعت عزة فأغلقت الأخرى ورمتا بجسديهما على الشيش وألقتا ظهريهما على النافذة الخشبية تمنعان هبوب غبار وذرات الأشباح، فلما فتحتا عيونهم المبللة بالدمع والعرق أحسا وخزا في قلبيهما، كانت سارة تفتح باب الغرفة من الخارج وهي تبكي منتحبة بزيها الأبيض الغريب ونحولها الممرض وسمعتها عزة تهمس:

- سبتوني لوحدي تاني.......!

غامت نظرات غادة وشعرت أنها هناك في تلك اللحظة المقيتة المخبوئة في أسفل معدتها، تشعر نفس هذا الوجع الذي يهب عليها لحظة تذكر هذا النهار، والتفكير في تلك

الوجوه التي تبصق الرعب في أحشائها والنظرات الممدودة بالأذرع تتعرى وتكشف جسدها المِداري في جسد أمها، حين تحرك الكباريه بجدرانه وناسه كمن هب بنفير قيامه واندفعت الأقدام نحو مكتب مدير الكباريه، لم تفزع غادة وهي لا تزال في العاشرة من عمرها فلا شيء يطرد عنها ساعتها هذا الهدوء المصهور بالبرود، اكتسبته بنت في سنها من كثرة ما عانت من مطاردات جمل محشوة عداء وألفاظ تنغرس كدبابيس الشعر في جلدها الناعم، يا بنت الرقاصة، كان هذا لقبها الرسمي في المدرسة، رغم ثرائها المتصاعد، رغم الطبقات المرفهة التي تتشارك مع أمها الثراء السهل والوضع الراقص في الحياة، إلا أن كل صباح كان موعدها مع تجارب وبروفات التجريس والتنغيص، بصور أمها عارية في الصحف، بإعلانات الكباريهات موضوعة على تختة الفصل، ملصوقة فوق جلد الحقائب، أصاب غادة هذا البرود الثلجي، سماكة جلدها البض واجهت الجميع باعترافها الفخور بأمها، تحصنت بالعدوانية والتعالي أمام غزوات العيون الشاخصة والنظرات المترصدة الاتهامية، كان صوت أمها

قويا وعريضا ورجوليا يركب حصانًا في قلبها وهي تنطق لابنتها بحكمتها العميقة النهائية:

- أمك أحسن منهم كلهم، ويتمنوا تراب رجليها...!

في هذا الصباح الذي وجدت فيه أمها متيقظة وقد سكبت كوبا طويلاً من القهوة في جوفها كي تتنبه كلية، سألتها:

- ماما.. أنا عايزة أتحجب.

تقريبا أصدرت أمها شخيرا ذكوريا، ارتجت غادة لما سمعته، فرقت أمها وتراجعت ألف خطوة، وقفزت ناحيتها في حركة أكروبات عاطفية براقة:

يا حبيبتي.. إنتي عمرك عشر سنين، حجاب إيه دلوقت.؟؟!!

ثم في صلابة وإصرار أمسكتها في قبضتها كأنما تعصر جسدها الصغير النحيل بين أصابعها وذهبت بها إلى الكبارية في عز الظهر، في ذلك النهار المتردد من نهارات شهر فبراير، وعندما جلستا في مكتب مدير الكبارية فهمت غادة أن أمها تتفاهم مع الرجل على المشاركة أو شراء ملكية الكبارية، وفي لحظة تبذل جهدها أن تتنساها أحست وهي الصغيرة الغريرة أن هناك خلف شباك المكتب جيشًا من

الرجال بظلالهم وهمهماتهم ودبيبهم وحفيفهم يقتحمون عليهم الباب الآن، كان هذا هو الحين من الأحيان التي تكون فيها الحياة أشد خُبثًا من خباثتها المحتملة، وجدت غادة ما تصورته حقًا وفعلاً، في لحظة كان الجيش المتخيل والمنتظر منظورا في الغرفة وقد حطمت أحذية عسكرية ثقيلة ووجوه سمراء منحوتة بالغضب والعنف الباب وكل شيء في طريقها، كان عشرات العساكر بزي الأمن المركزي قد وجدوا أنفسهم في غرفة مدير الكباريه، ولما بدا أن ظنهم خاب في فخامة المكان وثروته المتوقعة، أوقعوا عاليه واطيه حطموه في خلاط بين الغضب والانتقام وتناولت الأيدي زجاجات ويسكي متناثرة، فدغدغتها ورأى أحدهم ثلاجة صغيرة نزعها بيديه حتى أن فيشة الكهرباء أطلقت شرر انخلاعها من الحائط فتكهربت الأعصاب بزرقة الأجساد، قذفوا بمدير الكباريه من النافذة ومعه رجلاًه المذهولين، وكانت غادة المبهوتة مرمية في حضن أمها المفزوعة تحاول الأم بعد استفاقة من هول المفاجأة أن تنفلت من بينهم، فلامست كتف عسكري منهم فكأنما أرعدته لمسة الحريم فجرى خلفها وهي تفر هاربة تحمل على خفتها ثقل ابنتها

فإذا بالعساكر كلهم يتبعونه في عدوه وراءها وهي تجري بين الممرات وفي صالة المحل أدركت خراب المكان تحت أقدام هؤلاء وكان رفاقهم يحتشدون في الكبارية المحطم بزجاجة وزجاجاته ومقاعده وموائده وقد بللت الأرض انسكابات الكحول المراق وشظايا الزجاج الطائر وألواح الأخشاب المكومة، لحق بها عند مخرج المحل، ذلك العسكري الأسمر الكالح بملامحه الغاضبة اللاعنة المستنفرة المتهجمة وألقاها أرضا وهي تتشنج وتبكي وتولول وتنتفض وتنفجر فزعا وغادة تنفلت منها بقبضاته الصاعقة:

- النبي ترحمني أنا معملتش حاجة.

عرت عيون العسكري الجوعى وقبضته الخرساء صدر أمها التي حاولت المقاومة، وقد انطلقت أذرع زملائه العساكر تضرب فيه، وركله أحدهم شلوتًا على مؤخرته وهو يصرخ فيه:

- قوم يا بهيم، ملناش دعوة بالنسوان.

فاق العسكري، وقام وقد جرجره زملاؤه، لكنه وقد أحكموا وثاقه بأيديهم قَلَتَ منهم كالثور المذبوح ورمى نفسه ناحية أمها المولولة المرمية على الأرض، وفك شبكة يديها

تلم وتستر، طوق رداءها ودس يده ولف ثديها في قبضته، عصره في قسوة من يشنق كبته، ثم لوحده وبسرعة نهض فجأة وجرى وهو يصرخ في عساكر سبقوهم إلى الرصيف المقابل، وتركوا أمها ملقاة على الأرض جرجرت جسدها زاحفة ومرتعشة مرتجفة نهضت نصف قومة واحتضنتها، مست غادة أمها بأصابع باردة وبالتصاق محبة كأنه ولد ساعتها ليعيش أبدا، وقد بدا شارع الهرم ملفوفًا بالحرائق والدخان المندلع من أسوار وأشجار وواجهات الكباريهات ومحتلاً تماما بوجوه وأحذية العساكر الذي اندفعوا خارجين داخلين من إلى محلات محطمة، معتدين على سيارات واقفة أمام الكباريهات وصناديق الكحول في الأيدي أو مدغدغة مهشمة على الأرض وبقايا أطعمة وفواكه ومفارش وقطع خشبية لما كان مقاعد وشبابيك وأبواب وفي عرض الشارع كانت الأكتاف تتخبط، والعصِي تتصادم والصراخ يعلو والهياج يشتد، ولم يكن إلا وجوههم وزيهم وصراخهم وعصيهم وعصيانهم بين الحرائق والنيران والحطام.

كانت أمها تحاول أن تلم عظامها المفكوكة كي تمشي، وغادة تمسح بكفها الصغير كدمات في فك أمها وزرقة تحت

عيونها وورم فوق أنفها وخيوط من دماء ناشفة عند شفتيها ومزق عند قماش أعلى صدرها وتراب وعفرة، وانكشفت من ساقيها المخربشتين جروح من الضرب أو السقوط أو الزحف، كانت دموعها متصلبة في وجهها وإحساس هائل بالعار يضغط على رأسها كأنما يريد دهسها بالأرض، اقتربت منها امرأة عجوز ترتدي جلبابا أسود يداري نحافة شيخوخة واعتلال صحة وقد خلا فمها من أسنانها كانت تحتضن صندوقًا من زجاجات الخمر وقد أمسكت بطرف ذراع غادة التي فزعت مرعوبة لكن المرأة قالت لها بصوت مبحوح ملهوف.

- تعالي يا بت ناخد لنا صندوقين تلاتة.

لم تفهم ومن ثم لم ترد غادة، ولا نطقت أمها وتنبهت العجوز لرجل يجري أمامها وقد أحكم بكفيه على فخذ لحم وضعه على كتفه ويقطر منه ماء مثلج ونسائر من دم على ظهر قميصه، صرخت فيه العجوز:

- جبته من أي كباريه..؟

لم يجبها الرجل فقد انسل فريق من رجال يحملون لحما مسروقًا على أذرعهم وفي أحضانهم، أمسكت العجوز بذراع رجل وهي تصرخ:

- عايزة لحمة..

خاص الرجل يديها منها لكن ثلاثًا من بنات في أيديهن علب مناديل وزجاجات عصائر أمسكن بها صارخات وإحداهن تشد غادة:

- تعالوا معانا فيه فراخ ولحمة في كباريه الناحية دي.

فرت أمها وهي تحضنها منهن مهزومة وكسيرة، كانت سيارتها تحترق في دخان ثقيل وخانق. ودعتها ساكتة ومهزومة ومنهكة ومنهمكة في ستر ابنتها وتأمين سيرها ومن شارع إلى آخر تقذفها عيون مضطربة وأجساد ملتاعة، كانت الشوارع مكدسة بالزحام المضطرب والمتوتر، بدت الطرق على الأرصفة وفوق الأسفلت مسدودة بتكالب البشر، الأتوبيسات محشوة بشرا وقد خرجت أجساد من الأبواب متعلقة بأذرع آخرين داخل الأتوبيسات وبحواف الأبواب الأمامية والخلفية، وتخرج ظهور وأيدي ورؤوس وصدور من النوافذ، وقد تسلق على الأسطح عشرات من الأتوبيسات

وسيارات الميكروباس رجال وشباب للفرار أو للاحتماء، وكان سير العجلات والأقدام بطيئًا والأصوات الزاعقة والصارخة في داخل السيارات والأتوبيسات تخرج مكتومة ومرعوبة، الذعر كذلك احتشد في الوجوه المخنوقة باللهث والجري على الأرصفة بجوار أمها المدهوشة والمضعضعة، السيارات الخاصة إذ تمضي في مشيها المرتجف تقتحمها وتحاصرها وجوه وأذرع العابرين يوقفون أصحابها يأمرونهم بين الخوف والرجاء أن يركبوا معهم للحاق بالبيت للاطمئنان على النفس والأهل، أحد أصحاب السيارات رفض ولكن الناس لم تعره اهتماما فتحوا وركبوا أما رافض آخر فقد تلقى صفعة من سيدة كانت إشارة البدء لإفراز الغضب واليأس والخوف منطلقين كالحمم ضربا وصفعا وتحطيما للسيارة وسط توسلات الرجل بالرحمة وغيره بالشفقة، لكن الرعب طال الجميع، وفرق الجمع ظهور دبابة عسكرية تلحق بها دبابات أخرى بكاكيتها، كم كانت السيارات صغيرة أمام طلوع الدبابات، تشق بجنازير وصوت كالزئير بين العمارات والبيوت كأنما ساعة حرب في الشوارع الساكنة، فرقعة رصاص انطلقت شلت العجلات والسيارات والبشر وسارع

البعض بالعدو فرارا من الشارع الرئيسي ومن أبواب السيارات إلى اللجوء لمداخل العمارات وبوابات المباني وسط عويل وصراخ ونحيب وولولة وقد تساقطت الأجساد وتعثرت السيقان وتهاوت الرؤوس واندلعت الصرخات وبكاء الأطفال ونحيب نساء وداس الهاربون جريا على أجساد الهاربين الساقطين أرضا، وصارت السيارات التي تكالب عليها وحولها الجميع شبه خالية ومهجورة ومعطلة تماما، واندفع عشرات من عساكر الأمن المركزي نحو الميدان الذي بدا أنه يخلو ويتسع ويرتجف أمام صيحاتهم الناعقة وعصيهم الملوحة بالتهديد والغضب وملابسهم التي بدأت تتمزق ووجوههم المتعرقة وعيونهم الزائغة، وجدوا أنفسهم أمام دبابتين ظهرتا بغتة أعجزتهم عن التفكير والتصرف، تحولوا في برهة إلى كتاكيت مذعورة من ثعاب مهاجم وفي بروق يأس فوري اندفعوا كثيرانٍ في حلبة ناحية الدبابات التي تلقت أوامرها بإطلاق الرصاص والمقذوفات في الهواء فانتشر الدخان والفزع والفوضى، ثم جاء هروب العساكر مع طلقات القنابل مسيلة الدموع التي تركت الميدان مهجورا إلا من مخلفات المعارك، فوارغ القنابل وعبوات الرصاص وسواد

دخان وسحب ضباب وتحطمات واجهات محلات وتكسرات صخور وأحجرة رصيف وانخلاع شجر الشوارع وتمزق أوراق إعلانات ومفقودات الهاربين من محافظ ومناديل وحقائب وأحذية ونظارات، وتبقت غادة في حضن أمها في ركن وراء سور بارز من بيت متآكل تتسمع صوتًا قدما من ميكرفون معلق على مقدمة سيارة مدرعة وصاحبه يعلن أن حظر التجول سوف يبدأ بعد ساعة ويأمر الناس بالتزام بيوتهم وإلا تم القبض عليهم فورا، كان هذا هو اليوم الذي يهتف في أذن غادة مهددا بالتكرار.

التفتت غادة واندفعت عيونها تخرج من مقلتين ميتتين تماما لما رأت سارة تربت على كتف صبري النائم مثل جثة منفوخة بالماء أمامها على أريكة واطئة وعارية من الأغطية والفرش، يلفظ في نهنهة قيئ دموي يسيل من فمه على صدره متكاثرا، أمسكت بكف عزة متشنجة وهي ترى اللون الأحمر القاني يتحول إلى زرقة داكنة وثياب صبري تتشقق وتتمزق، وإذا بصوت مبلول بالضعف والذبول يتساق أذنيها مخنوقًا:

- أنا مت ولا عايش..؟

- لم يكن سوى صوت وائل وهو يهمس متحسسا ظهر عزة التي صرخت مذعورة، بينما وصل لهاث جلال قبل صوته وقد وقف وقال متوسلاً متسائلاً:

- فاقوا..!

كانت عتمة مباغتة كأنما نزعت كل مصابيح الكهرباء في العالم فبدت القرية على فخامتها وهيبتها المتباهية مثل أضرحة مظلمة بقباب الأسطح والنوافذ المثلثية ودوائر الأشكال وأشكال الدوائر في البوابات الحديدية المصبوبة في جوف الظلمة، كانوا مشوشين تماما أصابتهم لكمة مباغتة من الرعب والعتمة، اللكمة حين تفاجئك لا تؤذيك فقط بل الأكثر أنها تشعرك بالإهانة حين تبني كل وهم مجدك على أن أحدا لا يقدر أن يهينك.

ضباب من الرؤية وبخار من الغضب وهدير من الهمهمة والتمتمة والشوشرة والوشوشة يطحن مسامعهم وجلال وتامر يجران وائل فزاده الماء وزنًا وسماجة وأكف غادة وعزة تجر صبري على الأرض فتتمزق ثيابه وتتعثر قدماه في النتوءات والحجارة وترتج رأسه متخبطة فتميل سارة وتضع أصابع متعبة وشاحبة تقي رأس صبري من خبطة تسيل دماء

أو سقطة تصنع نزقًا، واقتربوا من السيارة التي رسم الظلام هيكلها أمام عيونهم التي تحاول فك شفرة هذا الليل الكبيس وسط عرق على جلود الوجوه وفزع على جدران القلب وبهوت يئن كالصرير من ألسنة ملجومة من الخوف، أصوات الأحذية وهي تخبط متخبطة في الأسفلت وكعوب البنات وهي تدق على الأرصفة ترن في آذانهم لترعبهم أكثر من حضور الصمت الكثيف، هذه من المرات النادرة التي يسمع أحدهم صوت الصمت في أجوائهم اللاهبة بالصخب والحركة ورنين الهواتف وسباقات الريموت كنترول على شاشات التليفزيونات وصوت موتور السيارة الجواف والجيب وزعيق الانطلاق الأمريكاني بالسيارة ولعلعة الموسيقى اللاتينية على الشاطئ تضرب الصالصا في الحجاب الحاجز للطبقات الاجتماعية، ورقاعة الألفاظ النابية حين تجلجل في المكلمات الجماعية وها هو صوت الموج البحري الشتوي يشبه رشرشة بنزين على فحم الباربك يو في حدائق القصور يهزهم ويتلقفهم بين الأسى والرعب، بين الغموض والجهل، بين الواقع المستحيل والحلم الواقعي أيعيشون تلك اللحظة حقًا

قالت غادة وهي تسرسع:

- ده كابوس ولا دي حاجة بجد.

فتح جلال باب السيارة الشيروكي بالريموت كنترول فأصدر صوت الإنذار الاستغاثي الملح لكن الباب انفتح في هدوء، كانوا قد أشعلوا ولاعاتهم التي يهز لهبها الهواء العابث وأناروا أجهزة التليفونات المحمولة بألوانها الزرقاء المستطيلة لتكشف لهم عن أمتار مما يروا ويحيوا من تلك الأفكار الوسواسة وهذه الصور الخناسة، لكن عصفا بكل ما تبقى لهم من عقل قد جرى حين اندفعت قطط بيضاء صغيرة تنسل من أبواب السيارة واحدا وراء الآخر بدت في بياضها الناصع كأنما قنابل من الثلج المتدافعة نحو أقدامهم تتسلق السيقان المرتعشة والمشلولة رغم صغر حجم القطط البادي الذي يوحي بأنها حديثة الولادة خرجت من تحت ضلوع أمهاتهم القطط توا، إلا أن مواءها الجماعي الصاخب بدا شرسا ومزلزلاً، تراجع جلال وهو يقفز ملسوعا بالرعب وتامر وقد ضرب مجنونًا بقدميه وساقيه في كل اتجاه، بينما أغشى على عزة وجرت غادة مترنحة في مكانها لم تبرحه رغم حركة الجري اللاهثة والعرق المتصبب والنشيج الذي يشبه صوت مزق لحم تتقطع في مفرمة طهي، الغريب أن

القطط تركتهم واختفت في زواريب الفيلا بين شقوق الأرض والأسوار فاختفى معها الضوء وخفت الارتباك المذعور.

وجاءت من فج عميق في حنجرة سحقها الرعب صوت يقول:

- أنا ح أموت ... ح أموت.

كان صبري المرمي على الأرض ليس منه ولا فيه سوى هذا الصوت بتلك الجملة، ساعتها خرجت القطط منسابة تتمشى من زوايا القصور والفيلات في منحنيات الشوارع وقد أمسكت أفواه ومخالب القطط الصغيرة بعشرات من الأسماك التي تبلبط محتضرة فتضرب القطط الأسماك بأفواهها ومخالبها وتدفعها للأمام تتحرك وتتقلب، كانت الأمتار المحيطة بهم كأنها ساحة حرب قتلاها ذيول ورؤوس وبطون أسماك جيشها المنتصر هذا الموكب القططي الأبيض الثلجي تجر غنائمها وأسراها مبتعدة كأنما تذوب وتذوي تبلل الأرض الأسفلتية بمائها، تتسع الرقع وتتوالد البقع وتبلل جوانب السيارة وسطحها وحول عجلاتها والأحذية وأسوار الأرصفة وعلى سطح الأسفلت ثقوبا وحفرا ونتوءات حول وفوق وفي أحذية متسمرة في الأرض أشلها ذعر.

- وا   وبقيت رجل الأعمال يا دكتور تامر..!

ابتسم تامر عندما قالها والده وهو يعود برأسه للخلف ويسندها على ظهر كنبة المرسيدس القديمة التي لا يريد أن يغيرها أبدا حين القيام بجلسات لمشاريع مهمة أو مفاوضات لمهام مشروعات أو تدبير إجراءات لازمة لمشاريع واجبة، كله من باب التفاؤل الذي يقود عبد الفتاح السباعي من أول وصوله من قطار الدلتا الواصل لمحطة مصر وحتى تلك اللحظات التي تخوض بهم لُجج الشبق الاقتصادي الذي تحياه الآن مجموعة السباعي التجارية.

رد تامر:

- تلاميذك يا دكتور.

- لأ صحيح برافو.

كانا ينزلان من السيارة الآن في مدخل الفيلا التي يملكها جمال رافع على بلاج الساحل الشمالي، شكلها يعاني من قدم الفخامة وروح القطاع العام التي تحتضن معمارها وطرازها الماضوي.

أضاف السباعي همسا:

- صحيح احنا جايين في صفقة واضحة، لكن كأننا معزومين على الغداء.
- عقب تامر وهو يأخذ لفة أنيقة من يد السائق:
- كان لازم نجيب هدية ندفع بها ثمن الغذاء.
- والساعة الذهب بقت بلادي قوى، عندك حق.

شرح تامر لوالده من أين جاءه الحق:

الساعة الذهب غالية وبتاعة عشرين ألف صحيح وهو وزير صحة مكحكح لكن مقطع السمكة وذيلها ح يلبس ساعة ذهب قصاد مين؟ موظفينُه عشان يلسنوا عليه ولا محاسبين الجهاز المركزي، ولا حفلات السفارات العربية عشان يمنع عنه ساعات ذهب تانية من الأمراء والشيوخ، أم يلبسها قصاد زملائه الوزراء عشان يقولوا عليه مرتشي خام...؟

أضاف السباعي وهي يصعد سلالم الفيلا في بطء وتعب:

- بالذمة دي فيلا نشتريها يا تامر.؟
- احنا بنشتري صاحبها.
- ثم أضاف همسا:

- يا بابا وسع شوارعك شوية، دول يا دوب خمس بدل، رد أبوه عاتبا متهكما بلغة ريفية معجونة برائحة الغيطان.
- صحيح كل بدلة بخمسة آلاف جنيه فقط لا غير لكن المهم يقدرهم ويفهم قيمتهم ويعرف يلبسهم.

كان تامر حازما:

- هوه لا ح يقدرهم ولا نيله، ده وزير حمار كان طبيب فاشل ولا يزال، لا يعرف كتابة تقارير طبية، من صغره بيعرف يكتب تقارير أمنية في أصحابه وبس، لكن مراته وابنه وبنته ح يقولوا له على سعر البدل وح يعرفوا قيمتها كويس، سيبني أنا بس يا بابا أركز على العيال.

بخبث وبهزار منشرح تماما:

- في الشغل بس يا تامر..؟

ضحك تامر مقهقها وهو يدخل قاعة الاستقبال الواسعة ذات الجدران الزجاجية كأنك في قلب البحر:

- يا بابا تعالى أوريك السمك وذيوله اللي مقطعهم عندي في البيت عشان تتأكد من الفحولة.

- طيب طلقت ليه يا شاطر؟ حد يطلق بعد تمن شهور جواز؟!

قالها وهو يمد ذراعيه وقد صعدت كل أقنعة الشغل على وجهه مستقبلاً ذراعي الوزير.

- أهلاً يا دكتور أبو السباع.

قالها الوزير جمال رافع فخيمة مهللة محشوة بالاصطناع وأكمل السباعي الرد بحرارة معلبة وهو يحتضنه في حب ملفوف بشرائط الهدايا الملونة.

أقنعه تامر بذلك قال له أنها مناقصة إمداد جميع مستشفيات وزارة الصحة بكافة الأجهزة الطبية من الشاش والقطن وحتى خيط الجراحة وتصل إلى مليار جنيه وهناك حيتان ونمور تتصارع عليه:

- نحن في غابة سفاري، الوزير ممكن نرشوه وكل منافسينا ممكن يرشوه ببساطة.

فرد أبوه:

- والحل..؟

نرشوه قطعا ونبتزه أيضا، حملة كبيرة في الجرائد عن طريق أصحابنا نتهمه أنه يحابي منافسنا الرئيسي وأنه

ارتشى منه ملايين وخصوصا أن زوج بنت الوزير شريك منافسنا، ح تضرب الحكاية قلق، وسيضطر يرسي علينا المناقصة حيث إننا سنرشوه هو وزوج ابنته أيضا.

وقد كان.. فيلا الوزير على الشاطئ تهالكت وبنى غيرها في بلاج أفخم وقد عرض السباعي شراءها باسم حفيدته (عمرها سبع سنوات).

- حاجة للزمن يا سيادة الوزير.

فيلا الوزير نفسه مكتوبة الآن في التعاقد باسم خالة زوجته (وعمر هذه الخالة ثلاث وتسعون عاما) وقد اشتراها من وزارة التعمير بملاليم بالتقسيط المريح حتى التعب وها هو يبيعها (أو تبيعها خالة زوجته) لعبد الفتاح السباعي (أو لحفيدة السباعي) بثلاثة مليون وستمائة ألف جنيه؟

- وا تساوي أكثر يا سيادة الوزير لكن انت راجل كريم.

قالها تامر وهو يطوى صورة العقد ويمنح خمسمائة جنيه لموظف الشهر العقاري الذي جاء حتى صالون الفيلا ممسكًا دفاتره وأختامه وأدبه المنافق ونفاقه الفظ.

حتى تخرجه من كلية الطب لم يكن تامر قد أجرى حوارا متصلاً مع والده لأكثر من خمسة دقائق بل في ليلة من

الليالي السارترلية (نسبة إلى سارتر كما كان يقولها تامر) المغرقة في التأمل الوجودي المبنى على توهمات تامر عن قراءات لم تحدث أبدا للوجودية احتسب عدد الساعات التي جلس فيها مع والده حتى بلغ الثالثة والعشرين من عمره وقدر مساحة الحوار الزمنية التي جرت في تبادل جمل وكلمات بينه وبين دكتور السباعي فوصل إلى أن أقرب رقم ممكن يعبر عن عمق الجرف بينهما وهو ثلاث ساعات وأربعون دقيقة حتى حينه، لكن لا تامر ولا والده ولا أحد كان يتوقع هذا التبدل الانقلابي الذي شهدته العلاقة بينهما منذ تخرج تامر من نفس كلية أبيه الذي سبقه في التخرج بست وعشرين عاما، دكتور عبد الفتاح السباعي الذي هبط إلى القاهرة لا يملك شيئًا كبيرا إلا مجموعا في الثانوية العامة وأنفًا إفريقيا لا يعرف من أين ورثه، كان عزم ما في خيال السباعي هو العودة إلى أسرته الطيبة في البلد بشهادة الطب وافتتاح عيادة على ما قسم يثبت فيها أنه ابن السيدة امتثال ناظرة المدرسة والأستاذ المرحوم السباعي أفندي الذي مات غريقًا في رحلة مدرسية إلى رأس البر تاركًا طفلاً وحيدا وأرملة متوحدة، وكان عبد الفتاح السباعي طالبا فلاحا وفالحا

حصل على البكالوريوس وعاد لأمه وبعد شهور تزوج من ابنة رجل غني في بلدهم كان سعيدا للغاية أن ابنته تزوجت طبيبا فوضع في يد دكتور عبد الفتاح عشرات الآلاف من الجنيهات القادمة من شركة توظيف أموال ريفية قائمة على أذرع المدرسين المعارين للخليج، افتتح الدكتور مكتبا صغيرا في عاصمة الإقليم لتوريد الأدوات والأجهزة الطبية سرعان ما انتفخ بالذكاء والحظ والانفتاح العقلي والاقتصادي.

كبر تامر على هذه الشلة كان أبوه مثل كل آباء الشلة حريصين على التصاق الابناء ببعضهم البعض، جيتو النمو الطبقي من مدارس اللغات إلى المدارس الأرقى، من رحلات شرم الشيخ إلى أسبانيا، من السيارة اللانسر إلى الشيروكي، من حب المراهقين إلى مصاهرة الأنداد والكبار، ثم مع الشلة التي لم يفقد أي والد منهم والدا آخر رغم تعقدات البيزنس ومراوغات بيت جحا السياسي ورغم كل كبائر الأكابر واللم الخطايا، إلا أنهم تكاتفوا في صحبة ولمة على مدى خمسة عشر عاما.

يوم امتحان الشفوي في البكالوريوس جلس تامر أمام الدكاترة الأساتذة يسأله هذا عن والده وذلك عن أخبار شركة

أبيه، ويتبادل مع أحدهم أخبارا للعائلة وهل سيذهب مع أولاده لرحلة الشرق الأقصى وينادي تامر أعضاء لجنة الإمتحان كلهم بكلمة أونكل، ويودعونه بسلم لنا على بابا، ليخرج من اللجنة متخرجا من الكلية ومن شرنقة طفولة العقل ومراهقة الخيال كان شعورا حارا وساخنًا بالترفع واللامبالاة تجاه كل ما يراه من ابتسامات فندقية ومنافقة لزجة فزفر شعورا حبيسا في قفصه الصدري باحتقار الجميع، كان إذنا بالخروج من المعطف الأبيض الذي يلف طموح الفقراء من زملائه الأطباء في مجد المشارط والمغانم ونفوذ انتهاك الممرضات، إلى العالم الذي يجعله جالسا ومربعا ومتربعا ومدلدل رجليه، كان ذكيا لدرجة اكتشاف غبائه لماذا يتفرج على ممالك والده بينما أمامه أن يرتع ويلمع ويبرع، ليس له إذن إلا الركض في نفوذ أبيه، تخصص في الطب النفسي ومارسه إلا قليلاً لكنه كان طول الوقت ينظر من أعلى إلى بيوت أرواح بلا سقوف، مكشوفة أمامه منتهكة الستر، ممزقة الأستار، في شخوص أساتذته، في زملاء دفعته، في أصدقاء شلته، في أفراد عائلته، في عابري طريقة، في زائري عالمه، فتراكم منهج تامر الذي عاش متلذذًا به، عاقر كل

العقاقير من مخدرة ومطمئنة ومثبطة ومسكنة ومهدئة ومنشطة، صاحبها ناصحا للجميع بتعاطيها تعاليا على واقع لا يستحق وعيا، ومتعاطيا حتى الحدود الفاصلة بين الوعي والشرود، فكان واعيا طول الوقت بمعدل منضبط من الخدر المستكفي والمستغني، كان يحتقر الجميع بالشخوص والنصوص والأفكار والبشر، يحتقر حتى نفسه وحتى زوجته شيرين بنت صاحب النفوذ ممن تبعثر بناتهم المجد والحسب والنسب والمال على علاقاتها العاطفية المتعددة والمرتكبة، حتى تلاقت معه فأحبته، كان كل شيء في ظاهره كما يحلو له ويحب، وكانت حفلة الزواج بصورها ودقائق تفاصيلها كنزا للصحف، صور منشورة على أحجام عريضة فيها الكوشة المذهبة والمنقوشة بالفضة والمزينة بورود مستوردة من هولندا وحرير من بومباي وهدايا من علب الفضة التي تحتوي على مصحف مجلد بقماش من القطيفة ومسبحة من الكهرمان وميدالية مذهبة منقوش عليها صورة العروسين، في الوقت الذي انفجرت فيه سدادات الشمبانيا في وجوه الجميع وانطلق رذاذ السائل التفاحي على الصدور والنهود والأعناق وسط هرج مهووس بالرفاهية التي صنعت مائدة

هارونية رشيدية من النعم، بوفيه من اللحوم الحمراء والبيضاء والمشويات والمسلوقات والمقرمشات وإنتاج البشرية من الأطعمة والمخبوزات مع حمولة مركب صيد من الجمبري الجامبو والقبرصي والسيمون فيميه من باريس وديوك رومية، ذلك الذي يدهشه دائما أننا نطلق عليه الديك الرومي أي الأجنبي الروماني أو الأوروبي، وهم في الغرب حيث أوروبا وأمريكا يطلقون عليه الديك التركي، أي القادم من بلاد الترك والمسلمين.

قال لشيرين وهما يفتتحان البوفيه أنه يرى نفسه مثل الديك الرومي.

ردت:

- منقوش ولا طعم.

فأجاب:

- منقوش وطعم، يعتقد الروم أنه تركي ويعتقد الترك أنه رومي.

البوفية الذي بالغ البعض في الصحافة وجعل من تكلفته مليون جنيه وهي تكلفة الفرح كله وليس البوفية فقط، دفعت أقلاما إلى التلسين والإيماءات والإيحاءات، ورغم أنه كان

يحتقر الفرح بمظاهره ومبالغاته الواطية إلا أنه كذلك احتقر المكتوب عنه مفحوحا بالحقد والفقر، لكن الذي كتم الجميع عن الكتابة وكَبتَ الكل عن الشرح والجرح في الفرح وأهله هو تدخل الرئيس شخصيا فقد سأله صحفي في مؤتمر على كوبري مشاه عقب افتتاحه فقال:

- وماله لما الأغنياء والمقتدرون يكلفون الفرح بتاع عيالهم اتنين مليون جنيه (زاد الرقم) المهم أنهم بكده بيشغلوا عمالاً كثيرين في الفرح وبيمشوا حال الفنادق والفرق الموسيقية ومحلات وشركات.. أنا دايما باشجع الأغنياء عشان الأغنياء يساعدوا الفقراء ومحدودي الدخل..

كانت الجملة الأخيرة هي حكمته الشهيرة التي يزين بها سياسته الاقتصادية، وكان تامر قد نسي متى آخر مرة رأى فيها محدود دخل، فالسفرجي المصري الوحيد الذي يعمل في قصر والده كان يتقاضى ثلاثة آلاف جنيها بينما كان يقبض الحبش والهنود من خدم القصر بالدولار.

الفرح الرنان انتهى في الخامسة صباحا بينما كان الطلاق بعد ثمانية أشهر في التوقيت ذاته مع حذف ساعة التوقيت الصيفي.

راح من يردد أن تامر شاذ جنسيا لدرجة أن جلال فهيم سأله صحيح انت gay ..؟

قالها بالإنجليزية فرد تامر حاسما:

- لا ومع ذلك لو كنت كده كنت قلت ولا يهمني.

كانت علاقته بعلاء الكفراوي هي سر هذه الشائعة لكن أحدا لم يعرف أنه دخل ليلة طلاقة حمام الفيلا فوجد شيرين تسبح في دمها وقد قطعت شريان يده أسعفها وقام باللازم على أكمل ما يفعله الطبيب البارد أو المتمكن فلما أفاقت في الخامسة فجرا ابتسم في وجهها في هدوء:

- عاملة إيه دلوقتي يا حبيبتي.؟

ثم رفع ذقنها بإبهامه وسبابته لترى حقائبها مرصوصة بكل حاجاتها، ورمى عليها يمين الطلاق بعد أن نصحها بزيارة طبيب نفسي من أصدقائه أما هو:

- فأنا لا أحتمل زوجة مريضة بهوس اكتئابي في البيت يا عسل.

كانت مفارقته التي لا تفارقه، طبيب نفسي ذكي ضحكت عليه مريضة اكتئاب غبية، كان يبتسم بينه وبين نفسه إذ فجأة وجد فرصة ليتشفى في ذاته.

بنى عبد الفتاح السباعي مستشفى في بلدته وزودها بكل الأجهزة الطبية والمعدات الحديثة وجعلها مجانية فيما عدا جناح يشغل طابقًا بالكامل حدد له مقابلاً ماليا مرتفعا في الفندقة والرعاية الطبية ولكنه وضع الجناح كله للمجاملات والخدمات المقابلة والهدايا المردودة والرشاوي المقنعة لمسئولي المحليات وموظفي المحافظة الكبار ومحافظها وكل من يقع في دائرة النفوذ والسيطرة، كذلك واستكمالاً لأعمال الخير الذي اشتهر بها والده فقد أعاد بناء مدرسة وزود مركز شباب بكافة متطلباته من أدوات رياضية وحتى الأدوات المكتبية، بل وأعاد زرع النجيلة في ملعب الساحة الشعبية وأنشأ ملعبا للتنس محاطًا بأسوار تفرض عليه خصوصية لأثرياء وأولاد وبنات أثرياء المحافظة، عندما تسلم تامر مسئوليته كمساعد لوالده أضاف إلى قسم العلاقات العامة فرعا جديدا هو الخدمات الإنسانية رصد لها ميزانية ثلاثة مليون جنيه سنويا مرشحة دوما للزيادة، مخصصة لمنح تبرعات للمرضى الذين ينشرون عنهم في الصحف نداءات واستغاثات، كذلك لهؤلاء الذين يرشحهم أطباء القصر العيني من محدودي الدخل الذين ابتلاهم المرض بالفقر أو

امتحنهم الفقر بالمرض إضافة إلى منح شهرية لمستوصفات وجمعيات خيرية وجعل شابة بنت ناس مسئولة عن هذا الفرع وهي التي تزور مثل على الزيبق أو حسن الهلالي مستشفيات في أيام مفاجئة، فإذا راعتها حالة أو أفزعتها حيرة مريض تكفلت بتكاليف علاجه كاملة فضلاً عن حصص شهرية لعمليات زرع الكلى والكبد، وكان تامر حريصا تمام الحرص حتى بالغ حرصه حد الحدة والعنف في عدم نشر أو إذاعة كلمة واحدة عن نشاط هذا الفرع فلسبب غامض كان يدرك أن عدم النشر سوف ينشر الأمر أكثر ويذيعه أوسع مع مسحة من صدق وتصديق تضفي وتضيف، وكان والده مبهورا بما يتابع ومذهولاً من إنسانية تامر التي لم يلمسها يوما حتى قال له ذات لحظة:

- ربنا يجازيك يا بني على اللي انت بتعمله للناس.

ابتسم تامر ثم ارتفعت رنه الضحكة إلى قهقة خلعت نظرات والده من عينيه:

- فيه إيه هي دي حاجة تضحك..؟

ارتدى فورا معطف الجدية على ملامحه وظهرت نتوءات التجهم بين حاجبيه:

- تفتكر يا بابا فلوسنا دي حلال..؟!

بهت والده من السؤال.. استغرق في نظرة كسيرة إلى نقوشات السجادة المفروشة على الأرض وتنهد واقفًا:

ثم وهو يخرج من الباب كررها:

- ولو تصلي كده ربنا سوف يرضي عنك.

- مالها إسرائيل..؟

استعد والده لمفاجأة جديدة من تامر، مضت عليه سنة وقد تسلم مقعده في المجموعة فكأنما احتلها تماما وأزاح والده الذي لم يجد في ذلك بأسا وقد اتسعت المشروعات وارتفعت الأرباح بشكل أبهر خبراء البورصة وخبراءه المثمنين، بهت الأب:

- يعني؟

رد تامر ببرود وهدوء وهو يمسك بالكومبيوتر الشخصي ويضعه على حافة المكتب:

- أولاً أنت تتعامل مع اليهود فعلاً وتستورد من يهود أمريكان ويهود ألمان يعني ليست لديك مشكلة مع اليهود ... خلاص التعامل مع الجماعة الإسرائيليين أسرع وأسهل وأرخص جدا وأكثر ربحا.

أمسك السباعي بالسبحة وقرر أن يعلم ابنه درسا في الحياة مزدوجا عن السياسة والاقتصاد:

- يا تامر أنا راجل لي سمعتي في السوق والمجموعة لها منافسين والجرائد ممكن تصطادك وتضربك في السوق وتقلب عليك البنوك ومجلس الشعب ووزارة الصحة ما لزمته؟

أجاب تامر قاطعا:

لازمته حوالي ثلاثمائة مليون جنيه مكسب ثم نحن لن نصافح رجال أعمال إسرائيليين قصاد عدسات التليفزيون والصحافة، هناك وسطاء هنا وهناك والبضاعة في الحدود أو الموانئ، أو حتى مخازن الشركة تتغير شهادات المنشأ ونقول حاجة جاية من تايلاند يا سيدي ثم همه عايزين بيزنس مش معاهدة كامب ديفيد، لا توجد كلمة عبرية واحدة في أي كرتونة أو كيس، ناس عايزة تأكل شوكير.

- ماذا يعني شوكير هذا؟
- هذا هو العيش اليهودي.
- إذا كان كده نجرب العيش اليهودي.

صفق تامر لوالده ونهض من مقعده متمتما:

- بالمناسبة سوف أنشر إعلانًا عن تبرع المجموعة بمائة ألف دولار للهلال الأحمر الفلسطيني.

قام الرجل فقبل ابنه ممتنًا وفخورا، بعد أيام قال جلال لتامر بينما يتابعان دخول العازفين بآلاتهم فوق خشبة المرقص:

- على فكرة يا تامر، صفقة الجماعة الإسرائيليين ضربة معلم لكن أجمد ما فيها ابن محسن خليل.

ابتسم تامر وأجاب بصوت عال:

- تخيل حتى بابا لم يكن يعرف أن شريكه في الصفقة هو ابن محسن خليل.

بلع تامر قرصا بينما تجرع جلال كأسا:

- برافو فعلاً.. شريكك مع اليهود هو ابن السيد محسن خليل مؤسس قسم مكافحة التجسس في أول وزارة داخلية بعد الثورة.

ثم قهقها معا على إيقاع راقص.

وارتفعت الموسيقى صاخبة فلم يتبين وائل وكريم لماذا يضحكان؟

كان جلال يقود السيارة، على مقاعدها آثار مخالب قطط ونقوش أقدامها كبصمات محفورة على الجلد والعفش، وماء يبلل السيارة عند دواسة الأقدام، عند حواف المقاعد وظهورها، وكفّا جلال على عجلة القيادة مرتجفتان فيهتز الدريكسيون كأن رعشة حمى أصابته، يترنح الجميع في السيارة من الهلع والفزع وقد انحشروا كأنما جثث ألقيت على عجل في نعش واحد، تخبط السيارة في حافة رصيف تصعد سور جزيرة الطريق، تصعد السيارة مع أنفاسهم الصاعدة كأنها روح مفارقة فوق مطب صناعي لم تدركه عيون جلال فهو يسوق السيارة في ضباب معتم وشبورة كثيفة حطت على القرية كأنها بصقة شيطان، لم يعد أحد يرى بين العتمة والشبورة، بين الظلمة والغبشة أي كائن، لا البيوت واضحة ولا حواف وحروف الفيلات بائنة، ولا شكل الشوارع ومنحنيات الطرق، ولا الإشارات والأضواء المرورية، ولا لافتات المحلات وعناوين الحوانيت.

كانت غادة تصرخ وتقترب بصوتها بخطوات ثابتة من حنجرة حواري شبرا:

- دي عفاريت والمصحف.

تفضلت دموع عزة وبهوت سارة بمشاركتها في التأكيد المعلن (بارتعاشته ورجفته) على وجود عفاريت حاضرة وخانقة، مهددة ولابدة.

تامر قال واضحا:

- أكيد فيه شيء غير طبيعي وغير إنساني يلعب بنا الكرة.

التفت جلال إلى صبري ووائل، وكاد حبل من حباله الصوتية أن يتمزق من صرخته حين وجد صبري ينتفض بصدره وبطنه كمن يتعرض لصدمة كهربية:

- شوفوا صبري.

التفتوا فرأوا صبري وقد ازداد شخيره ثم ارتفع صوته متحشرجا في أنغام إيقاع نباح كلاب، انعدلت فصارت كأنها غرغرة روح وإذا بسمكة حمراء نارية ذات قشر كثيف تصدر مخاطًا أبيض لزجا من فمها، تخرج من فمه تتلفظ، تمشي على صدره ثم تقفز على ظهر عزة، داس جلال على الفرامل بعنف حين شهقت عزة بينما أمسكت أصابع خشنة عريضة مستميتة بقفاه وقفت السيارة بينما يصرخ تامر وهو يفك الأصابع المتشنجة عن رقبة جلال:

- وائل فاق يا جلال.

وائل استيقظ على رجة السيارة وانطلاقها في هواء عال لأمتار ثم هبوطها منزلقة على طريق ملتف منحنٍ ثم طارت بعد اصطدامها بالمطب.

وائل يتهته ويتلعثم في الحروف والنقاط، التقطوا وسط الذعر كلمات كونت جملة محذرة:

- لازم تقف، وقفوا العربية ح نموت ح نغرق.

أهملوا تمتمة وائل، احتسبوها خرقًا يكمل مآسي الليلة، لكن اندفاعا رهيبا من مياه هادرة حطمت زجاج السيارة الذي تسرطن وتفتت ذرات من زجاج حاد ومدبب، كرات وقذائف هوت وتطايرات في الوجوه وعلى الأذرع والسيقان والأعناق، تمايلت السيارة وقد فقد جلال قيادته لنفسه ولها، ارتطمت بسور جنينة وعبرته وقد وصلت حتى حدود رمال البلاج، حيث كانت أمواج ثائرة قد وصلت لزجاج السيارة فهشمت ما تبقى من كسوره وحوافه وأغرقتهم ببلل الموج وكرات الزجاج، فتعابثت الدماء مع الماء ورأت عيونهم في لحظة مروق الوعي اللون الأحمر يطغى على كل شيء، حين أفاقوا لم يعرفوا أساعة لبثوا أو بعض دقائق، فقط

خرجوا من قبرهم المائي حين أطبقت غادة بأصابع رفيعة وعظمية وجامدة نفختها خشونة جاءت من انفجار مفاجئ لجيناتها الصعيدية على صدورهم صارخة بعلو صوتها ثم بحت نبرات صوتها ثم تقطعت الأحرف والكلمات وبدا ما جرى مذهلاً فعلاً وموحشًا في كابوسيتة نظروا حيث أصابع غادة تشير كان الموج قد انزاح والماء وقد تساقط من ملابسهم والضباب قد تراجع والشبورة وقد تبددت وتقدموا بأجساد مختلطة برمل كالعجين، وثقل في الرؤوس وضيق في التنفس وبطء في التفكير وتشوش في التصرف وتسليم عاجز بأي شيء ممكن الحدوث، إلا هذا، إلا ما أشارت إليه غادة فتنبهوا مبهوتين إلى كريم، هناك فوق، في السماء معلقًا أمامهم، كانت ساحة محلات الأطعمة والمشروبات ومقاهي الشيشة والدخان عند محل الأطعمة السريعة أعلى المحلات القاطنة في الميدان التجاري للقرية، والذي يمتلكه كريم شخصيا، كان والده محمود داود أول من أدخل فروع هذا المحل في العواصم العربية، وكانت إحدى هدايا عيد ميلاد كريم هو فرع هذه القرية قد بات باسمه، وقد كان يوما مهرجانيا حين دعا كريم كل شِلته لتشارك مئات الشباب

وعشرات الأسر المصيفة بطوابير زاحفة من الأطفال والمراهقين في افتتاح الفرع، وسط مباهج الفرق الموسيقية وعروض راقصة مصاحبة وألوان ضوئية وصواريخ من الألعاب النارية وعبوات مجانية وأكواب مياه غازية مرسوما عليها دمية المحل وتميمته، كان الأمر أشبه بأكبر احتفال بعيد ميلاد شاب كان وقتها في العشرين من عمره وقد أرغموا كريم ليلتها على ألا يقترب من أسلحته ومقتنياته من المسدسات والبنادق العجيبة، فوافق لكن بعد أن أعد لهم مفاجأته، فقد صمم أن يصعد مربوطًا بحبل متسلقي الجبال مع عدد من رجال الشركة المصممة وفنيين من شركة الإعلانات المتخصصة إلى أعلى سطح المحل كي يعلق دمية المحل بنفسه ولتنطلق من ورائه الألعاب النارية والموسيقى الإليكترونية وأضواء الليزر الحمراء والزرقاء تتداخل في محيط الدائرة التي يقف فيها كريم ليركب الدمية، وبينما جرت وقائع المشهد كما أراده وتمناه وقد صورته كاميرات فيديو على أعمدة وفوق أوناش وكذلك تابعته كاميرا سينما مخصوصة إذا بكريم يرفع من طيات قميصه مسدسا بقبضة

ذهبية وعنق طويل وقد أطلق رصاصات في الهواء دوت وهو مغمور بالنشوة فقد انتصرت نزوته.

الآن وهم سجناء سيارة تحطمت من مصادمات محتومة طريقتها صدمات الفوضى والعمى واللهاث المرتبك والخوف المزري رأوا كريم نفسه معلقًا من وسطه بحبل يشبه ما يلبسه طالعو النخل، وملفوفًا حول جسد الدمية نفسها، ثم رأسه قد تدلت من فم الدمية الأحمر القاني وقدماه تخرجان من ساقي الدمية تهتزان كأنما تستنجد أو تستغيث في وضع خانق بالذل والذعر.

ابتعدوا عن السيارة الغارقة والمحطمة والمغروسة في الرمل والطين الأصفر وهم على حالهم من الفوضى والتخبط والأصوات المخنوقة في الحلوق والعيون الذاهلة وأنوف ملكومة من مفاجآت ليلة بدت كأنها لا تنتهي، جروا نحو مكان المحل فإذا بالدمية وقد حشاها جسد كريم تتهاوى وتترنح ثم تابعوا كريم وهو يهوي، اختلط صوت فرقعة عظامه مع نجيب حنجرته.

كأنهم يجمعون أشلاء جثة مزقها طلق مدفع مفكوكة وشائبة كأنها بقايا هيكل عظمي في جوال من جلد، أكف

مرتجفة وجلد أزرق من الخوف وعيون اتسعت من الفزع فبدت كأقراص فحم مشتعلة، جلال وعزة يجران صبري وغادة وتامر يحملان كريم، أما وائل فوقف مترنحا مهزوزا وذاهلاً أفاق ثانية من غيبوبة فاقدا للذاكرة ... وسارة تقترب من أحدهم ثم تدنو من آخر كأنها عقل ذاهل ووعي شارد، حين التفتوا إلى وائل وهو يقف من رقدته بجسده الضخم وصدره الذي تتضح عليه ساعات البقاء في الجيم وقاعة كمال الأجسام وذارعاه المنفوخان بهرمونات حقن وأقراص أدركوا أن وائل أو البغل وهو اللقب المفضل للشلة لندائه قد صحا متغيرا، خلت عيونه من الحياة وهي التي لم تكن غنية بها أبدا وقد قال مقطعا الحروف في أوصال الكلمات فلم تكن مفهومة إلا بعد استيعاب ثوان:

- انتوا مين؟ فيه إيه؟ ليه الدنيا عاملة كده؟

لم يسمح لهم الحزن والجزع بما يستحق الأمر عادة من جدل أو مغاضبة، مشوا حاملين أجسادا منخورة بالوهم وجارين خسائر التحكم البشري.

قال تامر وهو يلف بنظراته الميدان المهجور الخاوي:

- على فكرة أنا شاكك إننا نتخيل ما يحدث.

صرخت فيه غادة:

- شاكك في إيه، كريم قدامك أهو تعالى شوف ممكن تعالجه إزاي.

تدخل جلال:

- تعالوا أنا عارف مدخل محل هنا.

دخلوا إلى ردهة قصيرة، قادتهم إلى قاعة دائرية منها بعض من بقايا المطعم، سقفها منخفض وتتوسطه مروحة سقف كبيرة بريشات ثلاثية عريضة وسوداء نخلها الصدأ ثم جروا مقاعد وموائد.

زعق تامر في وائل:

- ما تشد وتساعدنا..!

- شاركهم وائل دون أن يشعر أحد أنه عاد إلى وعيه حتى الآن، مددوا كريم وصبري وسألت غادة تامر:

- مش غريبة ولا نقطة دم من كريم رغم الوقعة الفظيعة دي..؟

رد تامر:

- غريبة فعلاً مش كده يا جلال..؟

- انت بتسألني المفروض انك الدكتور.

- صحيح أنا الدكتور.

ثم أطلق ضحكة صاخبة صاحبتها شخرة رقيعة:

- عشان كده بأقولكم أنا شاكك إن فيه أي حاجة من دي بتحصل أساسا.

عزة نطقت وقد بدت أسنانها متكتكة تصدر قرع دقات تشبه جرس تلغراف مورس القديمة:

- أنا متأكدة إن فيه أشباح وعفاريت في القرية، الأرواح والعفاريت تملأ القرية.

أطلق تامر ضحكته مرة أخرى:

- طيب حد عارف الفرق بين العفاريت والأرواح والأشباح؟

جذب جلال تامر وهو يشخط فيه:

- الحل الوحيد إننا نخرج من القرية للطريق الرئيسي.

ثم وجه كلامه بعيدا عن تامر:

- التليفون الهباب الجديد بتاعك لسه معاك يا وائل..؟

لم ينطق وائل بكلمة بل بكى، هذا البغل الأبيض هطلت دموعه مثل طفل تركته أمه في الحضانة المتوحشة أو

مرة، تداخل الجزع والفزع مع إيمان هائل بمعتقدها وقالت غادة وهي تربت على ظهر وائل في شفقة معذبة.

- طبعا العفاريت هم سلالة الجن والشياطين. أما الأرواح فهي أرواح الموتى المعلقين بين السماء والأرض أما الأشباح فهي أرواح الناس المقتولة والمظلومة.

تهكم تامر:

- وهذا الكلام حفظته لك الأميرة العربية الفاضلة.
- تنمر وائل منفضا دموعه واستعاد غلاظته سريعا:
- طبعا عفاريت وأشباح اللي بتبهدلنا وتهيننا هكذا، فلا يوجد إنسان أو بني آدم في هذا البلد يستطيع أن يقف قصادنا أو يدوس على طرفنا، لابد أن يكونوا عفاريتًا وأشباحا!

أعجز هذا الرأي تامر عن المناهدة بينما أعجب جلال وأطرق مؤمنًا ثم سأل السؤال الحاسم:

- حد فيكم حافظ قرآن!

قال وائل:

- أنا عامل له داون لوود على الموبايل.

ابتسم تامر وخشعت عزة وتحفز جلال وحمحم صبري بينما انبرت غادة وبدأت في تلاوة سورة يسن، تهز رأسها وتميل بظهرها وتغمض عينيها ودون إرادة تجذب قميصها لأسفل بطنها تحاول أن تغطي صرة تظهر أو خصرا يبين، بينما كانت أصابع وائل تبحث عن مفاتيح المحمول الذي ضلت يده طريقها إليه في جيوب البنطلون، تحت الجاكت، عند الحزام، حتى عثر عليه فارتعشت كفه باحثة عن تشغيل القرآن الكريم ثم بدأ صوت المقرئ بنغمته الخليجية يعلو متضافرا مع صوت غادة المرتل، ساعتها قامت سارة عن مقعدها الملتصق بالمائدة التي أنامو عليها كريم وهي تهال:

- كريم بيفوق.

كانت يده تتحرك فعلاً لكن أحدا لم ينشغل لا به ولا بها، كانت تلاوة غادة قد تعثرت في بكائها المفاجئ والطفولي، كان قويا بقدر ما كان سببه، رفعوا رؤوسهم إلى أعلى كانت مروحة السقف تدور ببطء وبصوت صرير وتكات متلاحقة، فأخذتهم الدهشة حتى الشلل كانت نقاطًا سوداء تتساقط ببطء من المروحة على الأرض ثم على رؤوسهم فابتعدوا في دائرة تحت مروحة السقف يتابعون النقاط والبقع الهابطة

المتكاثرة وهي تفرش رقعا في الأرض ويمسحون عن شعورهم ما أحسوه بقعا سقطت عليهم.

في ثقة قاطعة قال تامر:

- هذا حبر ... حبر أسود.

عنها وزادت سرعة المروحة إلى حدها الأقصى، تلف هادرة بصوت جال وسرعة خاطفة وبدأت بقع الحبر تهبط رشات وبخات في كل أرجاء المكان تغرق الحيطان والأجساد والوجوه والأزياء والأحذية والأرضية والموائد والمقاعد.

وقفوا تصفعهم بقع الحبر المقذوفة من هواء المروحة أصناما ملطخة تماما.

وقف اللواء حمدي الكفراوي وقد اشتعل حماسه مع حمرة وجهه وحرارة الحر في هذا الجو المهيب يتكلم أمام الرئيس بالكلمات التي ظل أسبوعا يحفظها ويعيد صياغتها ويضبط أفعالها ويغير ألفاظها ويستبدل حروف جرها وينطقها على أكثر من طريقة ويعيد ويزيد فيها حتى اطمئن أنه قد حفظها صما فقد راجعها مع زوجته ونائبه في الإدارة وعيل مؤهلات من خريجي كلية اللغة العربية حتى جاءت اللحظة

الحاسمة التي منحه إياها القَدر وكاد يبخل بها رؤسائه عليه رغم أنه كان أحد محاربي حرب أكتوبر المجيدة ثم هذه هي مهمته القتالية الآن أوكلها له الوطن فإذا الحسدة أو الحقدة بعد كل ما بذله من جهد وتبذل فيه نفاقًا واسترضاء كادوا أن يضيعوها عليه لكن ربنا ستر بفضله وفضل دعاء زوجته السيدة الطيبة الأميرة التي لا تترك سجادة الصلاة مطوية أبدا ووقف هو أمام الرئيس بجلالة قدره وهيبة قده وسط حشد من بذل التشريفات الفخيمة والنسور والصقور والدبابير على الأكتاف والتفاف وزراء وساسة وسادة ومما أرهف قلبه وجود السيد الأمام الأكبر شيخ الأزهر نفسه من ضمن المشاهدين وأمامهم اصطفت كاميرات التليفزيون تبرق وتبزغ بينما كان هو عند حسن ظن السيد الرئيس والتشريف الذي أولاه إياه فأمسك بربطات الجزر المصفوفة على رفوف خشبية بجوار لفات الخيار، وكان هو صاحب فكرة أن نحزم كل خمسة جزرات وكذلك كل أربع خيارات بربطة من خيط عريض ملون على أن تكون عقدته على شكل وردة بحيث يصنع شكلاً جماليا حين نقدم إنتاجنا الوطني العظيم في هذا

الجهاز الباسل يا افندم ......، وكان قائده قد اقتنع بفكرته تماما:

- كويس يا كفراوي جدا.

ثم أضاف وهو مشتت النظر:

- لكن ماذا ستفعل في الطماطم والفلفل الأحمر والأخضر...؟

أثنى اللواء الكفراوي على قائده الأعلى منزلة وقال:

- دايما تفكيرك استراتيجي يا أفندم، بإذن ا ربنا يوفقنا ونقدر نعمل أكياس شبكية من إنتاجنا بالاتفاق مع اللواء عصمت ونقدر نعمل الطماطم والفلفل في شكل حضاري يليق بالرئيس القائد.

كانت ابتسامة الرئيس وهو يستمع للواء الكفراوي واسعة وسعيدة دون شك مما شجع اللواء الكفراوي على الإخلاص والحماس أكثر فارتجل كلاما لم يعده من قبل ضمن ما أعده:

- يا أفندم وأنت ترى رجالك في هذا المشهد الجلل يوفون بالوعد ويلتزمون بالعهد حيث نقدم للوطن ليس فقط الخيار الطازج والخالي من الهرمونات بل نحن أول من زرع

الجزر في نفس حقول البصل وها هي يا سيادة القائد أعظم إنجازاتنا في مجال زراعة الفلفل الرومي والبلدي.

ثم تقدم بخطوات منتظمة منضبطة محاولاً تفادى الميكروفون الممدود بذراع حديدية طويلة أمامه وقدم للرئيس فلفلاية أمعن فيها القائد النظر وأمسك بها وأدارها أمام عيونه

- ممتازة وا يا سيادة اللواء.

كان اللواء يرقص على خشبة قلبه والرئيس يمد يده ويمسك ربطة جزر ويفك واحدة ويقضمها بين أسنانه ثم خرجت كلماته برذاذ الجزر في فمه:

- عال عال..

ثم التفت في حركة القائد الخبير والرئيس المحنك وعاجل اللواء الكفراوي بسؤال وسط العشرات الواقفين أمام النصب الخشبية لمنتجات الزراعة الموضوعة في عناية ومرتبة في دقة ويقف بين كل كشك من أكشاك العرض الخشبية شاب بزيه الرسمي منتصبا في جدية وصرامة عينه على هدف محدد من منطقة أمامه يختارها بشكل مستقيم ويركز فيه دون التفاف أو التفات في وضع انتباه استعد منذ صباح ربنا إلى حين يشاء ربنا أن ينتهي صباحه مع وعد لهؤلاء الشباب أن

يحملوا معهم من خيرات وطنهم من طماطم وجزر وخيار بينما لقلة إنتاج الفلفل فلن يتم إهداؤه إلا مع صناديق الخضار المتكاملة الكبيرة والهائلة لمرافقي السيد الرئيس في سيارات العودة، تنهد اللواء الكفراوي ولم يفهم بدقة ما قاله الرئيس، فأخذ يكرر كل حرف قاله الرئيس في رأسه حتى يدرك المغزى ويفك المعنى:

- انتوا بقى عقلتُم المجنونة يا سيادة اللواء.

كان الجمع كله يضحك في صخب حتى بما فيهم الأمام الأكبر، وحده الكفراوي لم يفهم بدقة معنى السؤال ولا مبرر الضحك، وغامت الدنيا أمام عينيه وحاول استعادة رباطة روحه المفكوكة، وقال وهو يمد يده إلى سبتٍ كبير من الخوص وسط عدد من الأسبتة الأخرى وأخرج عدة عبوات من الكاتشب وقال في حسم:

- احنا يا افندم أعظم مصنع في الشرق الأوسط في إنتاج الكاتشب.

ومد يده التي لم يستطع منع رجفة فيها إلى السيد الرئيس بكبشة من عبوات الكاتشب البلاستيكية الصغيرة فتناولها الرئيس بإعجاب وقال في لهجة ودودة:

- أنا جربته حلو الكاتشب ده فعلاً يا حمدي.

لم يكن اللواء حمدي الكفراوي يدرك أنه من يومها صار اسم ابنه علاء في المدرسة علاء كاتشاب بعد إذاعة مراسم افتتاح الرئيس لمعرض المنتجات الزراعية الوطنية في التليفزيون في بث مباشر، حتى تهكم وتندر زملاء علاء الكفراوي عليه في المدرسة وصار اسمه علاء كاتشاب وظل معه الاسم حتى تعرف عليه تامر في قاعة بلياردو حين كان علاء في الجامعة الأمريكية يحضر الماجستير وتامر نائبا في القصر العيني، ما لفت نظر تامر إليه هو هذه الرقة الشديدة في معاملات علاء ونظرات اليقظة المنتبهة التي تبدي غضبا وحِدة لا تظهر في سلوكه بقدر ما تفضحها عيونه، وعندما صحبه للشلة في المحل الذي يجلسون فيه كالمعتاد

قال له جلال مستنكرا:

- إيه العيل الرقة اللي انت جايبة ده..؟

ولم يستطع أن يربطه عميقًا أو طويلاً بالشلة، حين امتعض منه جلال كرهه وائل بالتبعية، وكان كريم محايدا تجاهه فصار هو صديقه الأقرب منهم له، كانت أغرب هوايات علاء التي تحولت إلى مهنته لعام كامل هي تصوير

البيتزا، المحلات والفروع في مصر كانت في حاجة إلى صور غير أمريكية ولا غريبة للبيتزا كدعاية تصل لقلوب المستهلكين المحليين، هكذا جاء نص الجملة في تكليف شركة الدعاية الأمريكية لفرع لها في مصر بتلك المهمة التي أُنيطتْ لهم، وبرع علاء في تصوير البيتزا على نحو محترف ورفيع ظل بعدها فخورا كلما رأى واجهات فروع البيتزا أو ملصقات الدعاية لها بهذا العمل الفني البديع الذي قدمه في رؤية بصرية مصرية نافذة، الآن يجلس علاء في مكتبه الذي ينطق بملمسه الخاص على كل شيء من طريقة إضاءة أو لون أسقف أو صور معلقة على جدار أو فرش سجاد أو شكل عفش وطراز الأكسسوار المزينة للمكان والسوفنير الموزع على أركانه وسطح المكتب الذي امتلأ بتماثيل صغيرة لنجوم هوليود القدامى وصورة في ملصق ضخم لمطبعة جوتنبرج الأولى في العالم ... قال له تامر:

- ما كل هذه الأقلام والساعات التي تضعها هناك.؟

كانت هناك في الركن مائدة زجاجية كمعارض المتاحف تضم أنواعا مختلفة من الأقلام الفاخرة وأخرى من الساعات

التي توضح توقيت كل مدينة في العالم مكتوبا بخط رفيع على ورقة منمقة اسم المدينة بالإنجليزية:

- أهل الخليج من أصدقائي يا سيدي ... انت عارف إنه في الخليج كله يرتدي الجلابية والبتاعة اللي على دماغهم دي كلها لون واحد حتى نوعية القماش مع الجميع تقريبا، طيب كيف يفرقون بين بعض طبقيا، هذا غني وهذا فقير فحصل أم هذا الاختراع، التباين الطبقي لرجال الخليج يتبدى في نوعية وماركة الساعة التي يضعها في يده، وكذلك في طراز ونوع القلم الذي يضعه في جيب الجلابية، لعلمك لا أهمية للوقت وللساعات أساسا في الوطن العربي كله من المحيط للخليج ومع ذلك الخليج بالذات أهم سوق لأغلى ساعات العالم، ساعات ليست موجودة في يد الرئيس الأمريكي ذات نفسه، ولا أحد شفته في الخليج ولا في مصر يكتب شيئًا بالأقلام التي يدفع فيها آلافًا مؤلفة لكن كلها فقط مظاهر الطبقة الغنية وشكل منافسة تافه على من فينا الأثرى.

ربما جرأة علاء وقدرته على تحدي المجتمع بغباوة وغشامة هي أكثر أسباب وثوق العلاقة والصداقة بينه وبين تامر الذي بدا معجبا بأن هذا الكائن الذي يغري مظهره على

التهكم والسخرية من ملامحه الجميلة التي يصعب تصور أنها لرجل أو صوته الناعم الذي خلا من خشونة رجولية منتظرة وهو نفس الذي يعتبره تامر أرجل في أصحابه، وقتها كان علاء قد أظهر ما فيه ففرقع بالونة حياته في وجه أهله وعائلته كان والد علاء سيادة اللواء قد خرج من منصبه ورتبته وأحيل على المعاش وبكل ما يملك من زهو بتاريخه العسكري الذي بدأ ضابطًا شابا في حرب أكتوبر المجيدة (هو الوحيد الذي يلحق كلمة المجيدة في جملة حرب أكتوبر) حكى أكثر من ألف مرة نفس القصة التي رواها بذات التفاصيل لمئات من معارف وأصدقائه وجيرانه ولابنه الوحيد علاء حتى ملها الجميع وكرهها علاء:

- أنا كنت ضابط الشئون الإدارية أثناء الحرب، واد خام لسه داخل الخدمة وأرتمي في المعركة، كنت ضابط مهمات وشئون إدارية مع ا يرحمه عبده الغريب أعظم ضابط مهمات عرفته مصر مات غريقًا.. ا يرحمه السنة اللي فاتت (أو سنتين أو ثلاثة حسب زمن رواية الحكاية على لسان اللواء الكفراوي) كنا في حرب أكتوبر وعندنا حماس واندفاع وإحساس بأننا بنرجع كرامة بلد بحاله وكان عبده

الغريب ضابط جن مسئول عن توفير إمدادات المياه والتعيين والأكل للكتيبة، وصلنا خط بارليف بعد ما تحطم واقتحمه جنودنا بيوم كامل أي وا تاني يوم على طول وإذا بالرائد عبده الغريب يطلب مني طلبا عجيبا:

- روح يا حضرة الملازم حمدي مع الملازم شفيق من الشئون المعنوية عشان تصوروا خط بارليف.

قابلت شفيق المرسى ومعاه اتنين مجندين وعلى خط بارليف، شفيق قال أنا عندي أوامر أصور الجنود المصريين وهم بيرفعوا العلم على خط بارليف وبيهللوا.. قلت له وأنا أجيب لك جنود منين دلوقت كله في المعركة ح قولهم تعالوا سيبوا الحرب واتصورا على خط بارليف وانتوا بترفعوا العلم وهللوا، كان فعلاً المكان كله تحت السيطرة لكن لا يوجد جنود، أرض محررة ونعديها لغيرها، كنت أبص ألاقي الجبل وترابه وحصونُه ودشمه وحجارتُه وارتفاعه وصلابتُه، أمشي عليه وأنا فرحان طاير لأن جنودنا عدوا عليه بالجزم يا سلام يا مصر.. المهم صمم الغريب على إنه يصور، دي أوامر يا حضرة الملازم قلت خلاص ننفذ الأوامر، قمت مشمر ذراعي ورامي نفسي على تراب الجبل ودافس رأسي في

التراب والحجارة وقمت قايم رميت البارية من على راسي وجايب خوذة وكلاشينكوف من الإدارة ودورنا على علم وصاري مشدودين على الجبل ورحت واقف ماسك في العلم عشان يصوروني وأنا بارفعه، ساعتها العسكري المجند قال لأ مش نافع في المكان هنا لأن الشمس بتعاكسنا، نشيل العلم ونروح الناحية الثانية وتكون الشمس في وجهنا، رحت على الناحية اللي قال عليها وأنا رافع العلم وغرست الصاري في الأرض واستعدوا للتصوير، واحد اتنين ثلاثة، ولقيت نفسي بأصرخ وبأهلل آه وا بأعلى صوتي.. ا أكبر.. وبأبكي بصوت عالِي متأثر وفرحان والأرض بتترج حولي وجسمي كله بينتفض وأنا أهتف تحيا مصر.. تحيا مصر.

ثم يقدم لك اللواء الكفراوي بعدها عشرات المجلات والجرائد التي صدرت أثناء الحرب وبعدها تحمل هذه الصورة بوجهه الصارخ وملامحه المنفعلة وهو يرفع العلم على حصن بارليف وتعليق الصورة.

- الجندي المصري يرفع العلم على حصن بارليف بعد أن حطمه الجيش الباسل.

ثم يضيف:

- كان نفسي أسمي ابني علاء باسل لكن أمه ا يجازيها رفضتْ.

ارتجت أمه تماما، تفتتت ملامحها مبددة بالحزن وتحول لونها إلى بياض ثلجي، ومن اللون البيض إلى الشاحب إلى الأزرق، وبدأت دموعها تنسكب كتدفق شلال وجسدها كله يتحول من الرجفة إلى الرعشة إلى الرعدة وهي تتمتم بحروف مغلفة بالدموع:

- كان قلبي حاسس.

أخذت تكرر الجملة وهي تتشبث بمفرش مقعدها السميك المبطن بالقطن مخافة أن ينزلق جسدها متهاويا وتسقط.

أما اللواء حمدي الكفراوي فكان في إغماءة صمت مطبق وهادر غمرته غيبوبة من يحاول أن يدفع عن نفسه هول ما سمع، صمت لحظات بلا أي رعش كف أو رمش جفن أو خلجة وجه أو هزة رأس ثم بدأت الدماء تنفجر حمرة في خديه وانتفض جسده كثور أضحية ذبيح يترنح بلا رأس في سطح بيت.

كان قد قال علاء:

- أنا قلت أصارحكم قبل أي حد، أنا عمري دلوقت ستة وعشرون عاما ولم أعد أطيق ولا أحتمل معاناتي ولا أتحمل هذه الازدواجية في حياتي وأنا لي ميول جنسية مختلفة عن بقية الرجال، الحقيقة إنني شاذ وحاولت أقاوم طبيعتي من يوم ما تعرفت على نفسي ورغباتها، لم أعد أقدر، بذلت مجهودا خارقًا كي أمنع عني هذا المستقبل الفظيع وهذه التهمة الشنيعة في مجتمعنا رحت لدكاترة من وراكم، اتعالجت نفسيا وتعرفت على بنات أدمنت الحبوب المهدئة فترة كل هذا لم يأت بنتيجة، لم يعد هناك إلا مواجهة الحقيقة، هذه طبيعتي، أنا لم أخترها ربنا هو الذي اختارها لي، ماذا أفعل؟ ثم إذا كان ده قدر ربنا ومشيئته لماذا أشعر بالعار تجاهه؟ لماذا أتحمل وزر ما لم يكن لي فيه يد، أنا من النهاردة ليكم وللعالم كله أنا كده.. لا مبرر للمرارة والنفاق وفصام الشخصية واللي عاجبه أهلاً وسهلاً واللي مش عاجبه يضرب دماغه في الحيط.

حين نطق والده بعد صمته الذي بدا أزليا سأل في هدوء:

- هو مين بقى اللي يضرب دماغه في الحيط..؟

ثم قام منتفضا هستيريا تماما كمن مسه برق صاعق وهو يهتز مثل عمارة تتآيل للسقوط زاعقًا صائحا نائحا حول نفسه ويدور حول مقعده ويضرب كرسيا ويسقط إناء زهور ويهشم إطار صورة ويقذف طبقًا خزفيا ويرمي طفاية على مرآة، ويزيح بيديه صف أكواب زجاجية فوق النيش:

- أنا ح أقتلك.. انت كده ليه، ربنا غضبان علينا.. انت كاب ولا تساوي، هذا ليس حقيقيا هذا لا يمكن يحصل.. ابن اللواء الكفراوي.. يا ساتر.. لأ أنا ح أقتلك ده عار غضب من ربنا عقاب إلهي، خبيت ده كله، مقلتش ليه وأنا ساعدك، انت كافر، لازم تتحرق بالنار، يعني إيه.. قلت إيه مش فاهم، إنت إيه، يا ساتر يعني الرجالة بتتت.........؟

تأته الكفراوي ثم همهم وحمحم وحوقل واستغفر:

- استغفرا العظيم لأ.. لا يمكن ح أقتلك.. ح أضربك بالرصاص.

واندفع داخل غرفة نومه وخرج في لمح البصر وهو يفتح صندوقًا خشبيا مطعما بالصدف وكسر قفله لما أعياه البحث عن مفتاحه، وأخرج المسدس الضخم الذي يحتفظ به من زمن ولا يقوم بإخراجه من الصندوق إلا لتنظيفه وتلميعه كل

ذكرى لحرب أكتوبر حين يعرض التليفزيون الرسمي فيلم الناصر صلاح الدين، أمسكه بقبضة يده المرتجفة وهو يوجهه نحو علاء الجالس كامنًا صامتًا في مقعده بينما أمه تصرخ مولولة دون كلمة، مجرد صراخ في وداع ميت أو انتظار موت:

- ح اضربك بالرصاص يا كلب يا نجس.

رغم أن علاء يعرف يقينًا أن والده نسي أنه كي يضرب أحدا بالرصاص عليه أن يضع رصاصا في خزينة المسدس، إلا أنه اضطرب في داخله وشاغله إحساس نخس صدره أنه ربما يكون المسدس محشوا على غير عادة خمسة عشر سنة ماضية، تثبت من شجاعته وهو يقول:

- كويس خالص يا بابا أنا تحت أمرك.. اقتلني لو عايز، بس الفضيحة من وجهة نظرك ح تبقى فضيحتين، الواد طلع شاذ والأب طالع قاتل وبدل ما تداري وتعالج الموضوع فتفضحه وتنكشف وتعقده.

أمسك الكفراوي نفسه من الإغماء وهو يسمع كلمات ابنه ووحيده، حاول أن ينقذ نفسه من التهاوي ساقطًا لم يسعفه

أحد، لكنه لحق نفسه حتى يحول عنه عار الوقوع أمام زوجته وابنه، تماسك والتفت نحو زوجته ثم في مفاجئة مدوية رفع ذراعه إلى أعلى ما تصل وهوى بكفه على صدغ السيدة في لطمة سقطت لها براويز على الحائط:

- وانتي كنتي فين يا هانم..؟!

لم يكن قد لطمها هكذا منذ سنوات، لكنه لم يكن أبدا يتوقف عن ضربها وكم من مرة جرحها وأدامها وأسقطها على الأرض وجرها على السجادة وقذفها بالأكواب والأطباق وترك ندوبا على جسدها وجبهتها وتحت جفونها ساعتها قام علاء من مقعده يحول بينه وبين أمه، دفع علاء والده في ظهره بخشونة فترنح الرجل واهتز حاول أن يسند على كرسي أو مائدة فلم ينفع، سقط على ظهره متعثرا في المائدة الصغيرة وتتساقط عليها علب السجائر والطفاية وأكواب شاي، حين سقط انكشف عاره على أوضح ما يكون فأطلق الرصاص من جوف مسدسه المحشو ثلاثة رصاصات متتابعة انطلقت الأولى فأصابت السقف أما الثانية فاخترقت شاشة التليفزيون وحطمتها ثم وصلت إلى عمود خرساني

فثقبته، أما الرصاصة الثالثة فاخترقت المقعد الذي كان علاء قد تركه لتوه مدافعا عن أمه.

ثم سكت كل شيء.

كأن مصر كانت على موعد مع القدر ومع علاء الكفراوي كي تتبين مدى سماحتها وتعاطفها المضمر مع الشواذ جنسيا، فعلى مدى ثلاث سنوات فقط أصبح علاء الكفراوي أول تاجر مستورد لأحبار الطباعة في مصر، افتتح مكتبه ونتيجة لعلاقته العميقة الواصلة وصل إلى الغنى والثراء والنجاح إلى حد أنه كان يتندر بأنه من أنجح عشر شواذ في مصر ويتكلم على سبيل الجد تماما حيث يرتب العشرة في مناصبهم ومواقعهم بتفاصيل دقيقة كاملة غير منقوصة، كان ذكاؤه أو حظه أو وقاحته السبب فيما صال، لا أحد يعلم بالضبط لكنه وحده علاء الكفراوي الذي تحول زعيما روحيا للشواذ فصار يعرف مجتمعهم في القاهرة كمن يقرأ خريطة طرق، أسماء وعناوين، شخصيات ووظائف ومناصب، مقاهي وكازينوهات ومطاعم، متنزهات ونواصي وشوارع، كان إعلانه لشذوذه موضع احترام الشواذ السريين فصار ضميرهم وصوتهم فوق الأرض سواء وهو يتحدث

إلى المحطات التليفزيونية الغربية، ومراسلي صحف وشبكات إذاعة، في جلسات مع مسئولين بمواجهات بين الجد والهزل حكما في منازعاتهم، وشاهدا على زيجات بعضهم السرية، منتفعاً بعدد من الشواذ الصامتين في مناصب ومقاعد نفوذ حكومي أو اقتصادي، فتوالدت تسهيلات عمله وصعودات شغله، كانت علانيته موضع دهشة ثم موقع معايشة، وكانت نفوذه وفلوسه تفتح الأبواب المغلقة وتغلق العيون المستهجنة المستفهمة عن ثرائه وغناه، كان يطلب الجميع وده خصوصا مع تمويله حملات بعض نواب البرلمان في انتخابات أخيرة، وتبرعاته لمؤسسات خيرية وعلاجية وإنفاقه على عدد من مثقفي وسط البلد فقراء المال ثرثاري الألسن موهوبي النميمة والذين وفروا له سمعة طيبة وحديثًا عن كرمه وقلبه وثقافته في المقاهي والمنتديات، كما كان يرتاد الأماكن العامة بثقة وبحضور ظريف وكرم مالي ضمن له تواطؤ الجميع وتجاهلهم لشذوذه، بل بدأ يلمح تعاطفًا وتفهما كان يعتبره قمة نجاحه ونضاله في السنوات الأخيرة.

ثم اتسعت خطوته ووسعت دائرته فقد زاره في أحد النهارات ضابط كبير برتبة عميد في أمن الدولة قصير

القامة، أبيض الوجه منمش بحمرة بنية، أشقر الشعر، بشارب أصفر خفيف وعيون ضيقة حادة وصوت أجش ومسبحة لا تتوقف عن الجري بأصابعه بها مهمهما بما نفهم أنه تسبيح ، يصمت وهو يمعن النظر كأنه ينفذ تدريبا تلقاه في مطلع شبابه لادعاء رجل الأمن الأهمية، خلع نظارته الشمسية ووافق مستسلما في اصطناع وبعد إلحاح مصنوع على تناول فنجان القهوة السادة الذي جاءه في جنينة الفيلا التي اشتراه علاء مؤخرا في المقطم من ساكن قديم هاجر إلى كندا، وقد أضفي عليها لمسات من هوسة بالتحف والأنتيكات واللوحات المزيفة والمقادة عن لوحات أصلية لفنانين عالميين وكثيرا من لوحات تشكيلية لفنانين مصريين كانوا يعتبرونه واحدا من أهم زبائن معارض الفن التشكيلي في أحياء القاهرة الفاخرة.

تكلم بلغة ودودة ممسوحة بنكهة من التهكم والتهديد:

- العقيد عصام من جهاز أمن الدولة.

قال علاء وهو يتعمد إظهار نعومة أنثوية في رده للاستفزاز أو التحدي أو ربما دفاعا عن النفس في مواجهة عصف آت:

- تشرفنا يا بك وأمن الدولة عال والحمد .

ابتسم العقيد عصام وقال:

- بحسك يا علاء بك.

فهم علاء ما هو مطلوب منه، وقدره واستجاب له تماما، شرح الرجل كان وافيا وكافيا، حتى أن علاء لم يعلق ولم يستفسر، طلب نسكافيه من غير حليب من السفرجي، وكرر عصام بك طلبه من القهوة السادة.

نحن نقدر سمعتك الطيبة يا علاء بك ونعرف تماما أنك راجل (ضغط على الكلمة وأراد أن يحس علاء بضغطته) رجل أعمال محترم وناجح وابن ناس والكفراوي باشا خيره على مصر كلها، وعلاقات حضرتك واسعة متشعبة ومحلية وعالمية وشبكة علاقاتك.. في وسط اجتماعي معين ومع ناس لهم ظروفهم الخاصة في التفكير والتصرفات وفهم معين لحريتهم الشخصية، كل ده يخلينا نلجأ إليك ساعات لما نحتاج فهما لموضوع غامض متصل بشخص تعرفه أو مجموعة على صلة بها، أو نصيحة من حضرتك نتصرف بأي طريقة مع شخصية مزوداها حبتين، أو تفسر لنا حركات وتجمعات ملفتة في مكان هنا أو هناك، ثم للأسف لأن الناس دي زي

ما حضرتك مطلع بتتفهم غلاط أحيانًا ممكن تقع جرائم لا قدر ا وهي تحدث فعلاً وأظنك عارف، ساعتها نحتاج شخصا أمينًا محترما فاهما وعارفًا ومحيطًا بمعلومات وعلاقات يقدر يحال ويفسر ويرشد.. آسف لا داعي لكلمة يرشد، هذه كلمة سخيفة أيضا، ثم نحن سنكون أكثر من أصدقاء وخدمات متبادلة، نحن كذلك يمكن أن نفيد في صفقات، علاقات ونصائح معينة على اعتبار أننا نعرف ونسمع ما لا يقدر عليه غيرنا وأكيد كأصدقاء سوف تسمع نصيحتنا، ليس مهما أن تأخذ بها بل مجرد أن تسمعها وأكيد نحن سنقف جنب أصدقائنا تماما في كل حدث وحديث أو أزمة لا سمح ا .

بعد هذا اللقاء بأيام كان العميد عصام يتصل بعلاء لسؤاله عن بعض مواقع الإنترنت للشواذ في مصر، وبعدها بأسبوعين كلمه حول خناقة جرت في محل بمصر الجديدة، وبدأ علاء يشرح لهم الفروق الطبقية بين الشواذ وأثرها على تصرفاتهم وخريطة العلاقات بينهم والفارق بين درجة المستوى التعليمي في التعبير عن الذات والنفس في هذه العلاقات، ثم الوسط الأجنبي السائحي والمقيم في مصر ومدى مداخلته مع حاضر الشذوذ في البلد، كان أكثر ما

أفادهم فيها وقد تكونت بينهم علاقة مودة وصداقة معظمها بالتليفون هي حادثة مقتل عضو برلمان في شاليه في الجونة وقدم لهم عددا من أسماء الشبان الذين كان يستأجرهم النائب في مثل هذه العلاقة السرية التي لم تصل للأمن للحظة ما، كانت مهمة علاء بينه وبين نفسه أن يرفع مستوى العلانية للشذوذ في البلد وأن يكسبهم صفة اللوبي وجماعة الضغط المترابطة المؤثرة.

وفي ظلال مثل هذه كان تامر السباعي قد دامت صدمته المأخوذة لاكتشافه المتأخر أو لتلقيه المفاجئ لاعتراف علاء بشذوذه أقل من ثلاث ساعات فقط، كان غاضبا محموما لاعنًا وصارخًا ونائحا مقررا مقاطعته وفك ارتباطه به مخافة الاشتباه والشبهة لكن بعد انقضاء الثلاث ساعات هدأ باله وارتاحت روحه واكتشف أنه يحترم علاء ويقدر شجاعة احتقاره لتقاليد وطنه وأفكار مجتمعه واعتبر شذوذه جزءا من مبررات صداقته بعلاء، لكن أهم ما حدث لعلاء أن والده حمدي الكفراوي صار يعمل في شركته مديرا للإدارة التجارية، وأن أمه كانت لا تتوقف عن نصيحتها لعلاء بالزواج.

رغم كل العلانية التي فعلها علاء في سلوكه الجنسي إلا أنه لم يكشف أبدا عن اسم رفيق له أو صاحب في علاقة أو حتى عن عواطفه تجاه أحد، كان هذا تناقضا أدهش كثيرين وفي مقدمتهم تامر الذي ألح ذات مرة كي يعرف، لكن علاء نهره وقال بوضوح:

هذا قرار ملتزم به ولن أتراجع عنه أبدا، لن يعرف أحد رفيقي أنا مش ناقص نقط ضعف.

إلى أن جاءت عزة..

كانوا عميانًا يتخبطون ويتعثرون ويتقاذفون، يجرون في فرار مثل هروب خنافس سوداء مقلوبة من رشات مبيد حشري يطارد المخابئ والأكمنة، الحبر المقذوف المتناثر والمبثوث من المروحة التي تدور بسرعة قصوى في سقف المكان حجب عنهم الرؤية وحال الخوف بينهم وبين النطق، بقع على الوجوه تسيل، رقع على الأعناق تلتصق ثم تتفرع وتتخلل القمصان والصدور، دوائر على العيون ثم تتحلل، خرجت حشرجات من حناجرهم مشروخة ومنفوخة بالارتباك، كانوا يدفعون بعضا بالملامسة والمصادمة إلى الخروج من هذه القاعة التي بصقت حبرا ورعبا في

وجوههم، ربما قادهم جلال بحشرجة أعلى إلى ممر ضيق يفضي إلى أي شيء خارج هذه القاعة، قال تامر وكأنه ينهض من خرس أنام عقله:

- احنا رايحين على فين؟

لم ينشغل أحد بالرد، فقط ندت من سارة صيحتها الرفيعة الممصوصة بالرعشات:

- كريم، كريم.

دارت حيث فتحت عيونها وذهبت نحو رقدته وهو يئن ويتحسس عظامه المحاولة، نادت على وائل الذي زاد من سرعة قدميه متجاهلاً فصرخت فيه غادة:

- شيل معها كريم، أنت لا تفهم.

وائل يفهم بالتأكيد لكنه لا يحس، دفعته عزة برقة يديها التي كانت كافية لبث رعبا فيه؛ فانتفض، فلما قالت له أنها هي التي نخسته، تحرك نحو كريم وجره من ذراعه ثم رفعه ليستند على صدره الهرموني وتامر يصرخ فيهم:

- لازم نعمل حاجة نتأكد هو فيه إيه بالضبط.

كان جلال قد أمسك بيد عزة ومضيا إلى الممر، اندفع وراءه الجميع، مشوا عدة خطوات متسارعة مرتبكة، لكن

عزة وقفت مكانها التفتت للخلف فلم تشهد الباب الذي دخلوا منه، نظرت أمامها فلم تر نهاية الممر، وائل الذي جر كريم من ساقه يزحف به على الأرض شهق من المفاجأة، كان جسد كريم يسحب معه بحيرة من الحبر الأسود القاتم وقد شق خيطًا طويلاً عريضا على قطع البلاط التي مروا عليها خفاقًا فزعين، كان سؤال سارة على طريقتها من الطفولية المنفلتة:

- احنا فين؟

مشوا للإمام كأنهم يبحثون عن إجابة في نهاية الممر الذي شعروا أنه طويل، ثم شكوا أنه يطول أكثر، يتمدد أمام أعينهم ثم يضيق وينحني جروا حتى التفافة المنحنى فإذا هو ذاته الممر نفسه، سمعوا صدى صراخهم وهمهماتهم ونحيبهم يملأ سقف وجدران الممر.

ثم ظهروا.

كان أول من لمحهم وائل؛ فتصلب مكانه، وسكت صراخه وتجمدت عيونه عند هذا الطابور الذي بدا طويلاً يخرج من فتحة في السقف ثم يتسرب في كتل ومجموعات تسير على

الحائط بلونها البني الرملي وذيولها المشرعة المرفوعة، أشار بكفه للحائط وهو يتهته وتتفكك حروف كلماته:

- شايفين إيه اللي ماشي على الحيطة..؟

رفعت غادة رأسها وقفزت من على الأرض وهي تصرخ:

- إيه ده..؟

بدأوا في جريٍ سريعٍ ولاهثٍ لكنه كان جريا في نفس المكان، لم يتحركوا مترا ولم يتقدموا شبرا، كانت الأسراب تزداد في حجمها وسرعتها وانتشارها على الحائط تسير من فتحات في السقف نحو الأرض.

التفت تامر وهو يحاول استعادة عقله من فراره:

- هذه عقارب، ليس معقولاً.. أُنظروا

دار جلال دورة كاملة كي ينظر مطرح ما يشير تامر فإذا بالجدران كلها تمتلئ بالعقارب تمشي ببطء وبانتظام كأنها طوابير نمل تثق فيما هي مقبلة عليه، كان رد فعل غادة أبعد مما هو منتظر، خلعت حذاءها بعنف وبغل وأخذت تضرب الجدار بنعل الحذاء الذي تفتت وتطايرت حوافه من عنف الضرب والخبط، تلاحقُ العقارب وتضرب والغريب أن

ضرباتها كانت تفرقع في المكان وتصخب معبرة عن قوة ذراع وبطش قبضة تتنافى مع رقة أصابعها المفترضة وأنوثة كفها المرغوبة، فاجأهم ما فعلته غادة، لكن الفعل بث عدواه خلعوا أحذيتهم، الفردتين كذلك، وراحوا يضربون من أمامهم وخلفهم يلتفتون ويستديرون يضربون بقوة يلاحقون العقارب على الحوائط يرفعون أكفهم ويهوون بكل ما فيهم من رهبة فزعة، لكن جلال تسمر مطرحه وهو يهتف في لهاث من أثر الجهد:

- ملاحظين.. الممر يضيق والجدران تنطبق على علينا، شايفين...؟

كانت الجدران تقترب أمامهم حتى توشك أن تطحنهم حين تطبق عليهم، زاد الصراخ وتفاعلت خبطات ضرب العقارب على الحوائط، وجذبت سارة وغادة كريم الملقى على الأرض نحوهم حتى أوشكوا أن يقفوا فوقه، وقد ندت من حنجرته همهات وتمتمات ملتبسة وغادة تخبط في الحائط وتصرخ:

- معلش يا كريم..

ولا أحد يفهم هل فهمت ما قاله وتعتذر.. أم أنها تعتذر عن أنها غير منشغلة بالفهم. وكريم كأنه تنبه يهمس مكسورا الضلع واللفظ:

- فيه إيه انتوا بتعملوا كده ليه...؟ ثم تداخل تامر بصوته مع كل المؤثرات الصوتية المحيطة وقال:
- ليس معقولاً.. ما كل هذه العقارب من أين جاءت، إنها لا تموت يا جماعة ولا تسقط على الأرض، خذوا بالكم.

لما اكتشفوا اكتشافه جروا، انطلقوا في عدوٍ نحو الأمام هروبا من مجهول لمجهول، حتى أنهم نسوا كريم؛ فعادوا جميعهم إلا وائل لأخذه جرا وزحفًا، بينما ظل تامر على حيرته واضطراب أسئلته واقفًا فناداه الجميع:

- اجرى يا تامر..

فلم يكن لديه ما يفعله سوى الجري وراءهم ومعهم فجرى تطاردهم أسراب العقارب، تلاحقهم أرجلها المسنونة المشرعة تهتز وتطول، الممر يطول ويضيق أمامهم وحولهم ويختنقون بالخوف والهواء المسحوب من الجو، وظنوا أنهم يجرون منذ ساعات، هدهم التعب وأعياهم الإرهاق وغطاهم

العرق مع بقايا الحبر الأسود وتناثرت قطع ملابسهم وتساقط ما تبقى من فِرد أحذيتهم وجرحت أقدامهم ونزفت دما، في تلك اللحظة التي صرخت فيها عزة:

- خلاص مش قادرة...

وأضافت غادة:

- وأنا كمان...

ظهرت نهايةٌ للمر فتهللوا فرحا وطاروا جريا رغم الأجساد المهدودة والأقدام المنهكة فإذا باب ضيق طويل حتى أنه يصل للسقف ينفتح ويصر صريرا ثقيلاً وإذا بصبري واقفًا سوادا على سواد، نحولاً على ضمور، إعياء على احتضار وهو يقول في خفوت صوت:

- ليه سبتوني لوحدي...؟

وحين اقتربوا منه لمحوا ثم تفحصوا ثم تأكدوا من أن كل تلك العقارب تمشي على رأسه كأنها خلية نحل وتحيط بوجهه وتحتل عيونه وتخرج من إذنيه وأنفه وتطوف حول عنقه وتهبط نحو صدره، كانوا يصرخون وكان يبتسم وكانت هناك رؤوس قد طلت وظهرت من خلفه، تقف متأملة مترصدة، نفس العيون الواسعة التي تغلي بحمرة تملأ المآقي، وهذه

الأوشحة الخضراء وعباءات سوداء تتحرك وتطير أطرافها وذيولها الآن، كانت شهقة عالية من غادة كافية ليتنبهوا للواقفين الراصدين ولذلك الهواء القادم ناحيتهم ببرودة تشق الجلود كشفرات السكاكين وضوء يظهر هناك خلفهم كأن هذا هو باب الخروج من الجحيم يقف بينه وبينهم أشباح وعفاريت تحول دون الحركة ودون المهرب والمفر، مرعوبين جدا ومشلولين تماما والعقارب تقفز من صبري على صدورهم وأعناقهم وتتقافز على رؤوسهم وشعورهم، بدت سارة وهي تقترب من الأشباح جريئة وباردة ويائسة تماما، مدت يدها بهذه الكف المرتعشة الشاحبة وبصوت طفولي خفيض وكسير:

- انتوا مين؟ عايزين منا إيه؟
- كانت غادة وعزة تبكيان بنشيج متهدج:
- ح يموتوها...

لم يسمعوا كلمات حوار لكنهم شعروا أنها تتكلم مع العفاريت والتي تحركت حول سارة في نصف دائرة وبدأت أذرع تمتد وأصابع تشير وسواد يقترب، استدارت سارة ووقفت بنحولها وثباتها أمام الشلة وهي فيما يظنون تبتسم:

- تعالوا خلاص، هم ماشيين...

نظر كل منهم للثاني بدهشة وتعجب ثم قال تامر وهو يحدق في ظهر كفه حيث عقارب تتمشى على أنامله وتهبط في بطن كفه وتزن في قبضته بذيولها المهتزة:

- لماذا لا تلدغنا العقارب؟

تعرفت عزة على علاء لأول مرة في دعوة عشاء في مطعم صيني دعاها إليه تامر وسط شلة الأصدقاء كان من بينهم وائل وكريم وغادة، حضرت فيرونيكا ليلتها لكن جلال صمم على أن يصحبها في موعد عمل مع مدير فندق واستأذنا بعد دقائق من شرب كأسي نبيذ وقضم قطع جبن فرنسي فخيم، مر العشاء عاديا بالنسبة للجميع إلا أن عزة في صباح اليوم التالي وعلى غير عادتها اتصلت بتامر في الثامنة صباحا لتوقظه من النوم وتطلب منه رقم تليفون علاء فقال لها هكذا بالضبط:

- ليه يا ختي.. وعلى الصبح كده.. فيه إيه؟

ردت عليه بإيجاز بليغ:

- باحِبه.

في العاشرة والنصف صباحا كانت عزة في مكتب علاء بالشركة استقبلها مدهوشًا لكنها قالت في صياحها المعتاد وبلهجة مسرحية تامة:

- جئت لأعلن عليك الحب.

حسبها تهذر لكنها أضافت وهي تجلس وتمد ساقيها على كرسي هزاز وتبكي.. تبكي بحرارة:

- أنا عارفة يعني إيه حب، فيه كيمياء غريبة تحركت داخلي بمجرد ما شفتك، فعلاً، عواطف وأحاسيس ومشاعر وإعجاب، لهفة وشوق.. وبالمناسبة أنا عارفة أنه ليس لك في النساء.

كانت عزة تدخل وتخرج من علاقات عاطفية تترك ندبات على روحها وأحيانًا على جسدها منذ الجامعة حتى صارت مذيعة منوعات مشهورة، ربما أخذت شهرتها من ظهورها المِلح في حفلات الليل وأفراح الكبار وصور المجتمع في مجلات المرأة والفن أكثر من ظهورها في برامج وعلى شاشات، كان والدها فرحات النمر من عائلة قديمة عريقة ممتدة في مصر تنافس في الشهرة والجذور العائلات المعتمدة في قاموس الإقطاع والنبالة والثروة في البلد، لكن والدها لم

يملك إلا هذا اللقب العائلي يفخر به ويستخدمه في التجارة وكان تعليمه محدودا وذكاؤه أكثر محدودية، لكنه كان ثورا ذكوريا مثل طاوقة في اسطبل الخيل، فتزوج سبعة نساء كون معهن عائلة بها إثنا عشرة ابنًا وبنتًا، وكذلك كون عائلة من الثروة التي حصدها من استثمار الزواج في التجارة، أو إتاوات يتقاضها من زوجاته طالبات الخلاص بالطلاق، أو إعجاب مبالغ فيه من شبق زوجة فصارت لديه ثروة لا علاقة لها ببعضها بل تنتمي إلى قانون صدفٍ ونصيبٍ وتقاسيم الزواج، ثلاث فروع لصيدلية شهيرة في العاصمة، جنينة مانجو في الزقازيق، مطاحن بن في وسط البلد، توكيل ساعات سويسرية، حصة في مصنع جير في الإسكندرية، لكن عزة كانت تحصل على نفقاتها التي لا يغطي ربعها أجرها التليفزيوني من أُخوتها الأثرياء الذين تولوا إنقاذها من بخل والدها كما أنها تنجح كثيرا بعلاقاتها العامة واستخدام أصدقائها من الطبقة المتنفذة واستغلال كونها مذيعة من تمرير قرارات واستثناءات وتسهيلات لأعمال أُخوتها مما يجعلها ذات عين واسعة وخبرة عالية حين تطلب منهم قبل أن تنتظر عطاءهم التلقائي.

كان اضطراب عزة العاطفي درسا كلاسيكًا لأخصائي العلاج النفسي، كان هذا رأى تامر لها في ليلة كئيبة تجرعت فيها كحولاً كان يكفي جدا لصراحة تامر، ابنة لأب فلاتي بخيل، وأم تركتها وتزوجت وسافرت، تربت عزة في بيوت راقية طبقيا لكن بلا عناية عاطفية بل بتعبير مادي عن التزام اجتماعي، دونما حتى منح قُبلة النجاح، أو معانقة تتكاف الحنية صباح عيد، ثم جاءت الشهرة والسطوع التليفزيوني بما فيه من استنهاض لكل كوامن الأنانية وحب الظهور والرغبة في الامتلاك ليطحن كل هذا شابة في العشرينات، انتهت إلى علاقات مفككة ومضطربة غير سوية، مرتبكة حتى جاءتها الضلالات.

لم يكن للشرح الطبي الذي قدمه لها الطبيب أي معنى، فهو لم يضف كثيرا لما تعرفه خلال شهورها الفائتة، كان الموضوع سهلاً في بدايته، قليل من الإرهاق يستلزم قليلاً من الراحة، هكذا تصورت فقد زاد لديها الإحساس هائلاً وموجعا بأن أحدا يقف وراءها يريد أن ينزع عنها الجيبة، تشعر في لحظة ما أن زميلها أو حتى زميلتها الواقفة أمامها تمد يدها لتفك زرار البلوزة، وهي نائمة في سريرها تتوجس وتنتفض

ملتاعة شاعرة أن أحدا يلتصق بظهرها، تحس وخزا أو عرقًا أو ثقلاً في مؤخرتها، تقف في النادي مبهوتة حين تظن أن البنت التي تعبر أمامها عارية تماما، تهتز حتى التزلزل لما يجتاحها إحساس أن يدها تريد أن تمتد لتمسك عنق صديقتها، أو أنها تكاد تضع أصابعها بين شفتي صاحبتها؛ عندما تهبط درجات سلم تكاد تحس أن النازل وراءها يدفعها حتى تسقط، في المصعد حين تكون بين ثلاثة أو أربعة من الصاعدين النازلين معها تتوهم أنهم وقد تدافعوا في ضرب ولكم فتسيل الدماء أمامها، كانت تشعر حبل هذه الأفكار الخشن يحز ويؤلم رقبتها، كأن كائنات الدنيا تحط على صدرها، تصعد إلى عنقها، تضغط على قفاها، تخنقها، لا تستطيع أن تنام – أساسا هي لا تنام بسهولة – تقبض على قلبها أصابع الخيالات والهواجس والمشاهد الكئيبة السوداء وتلف خصرها ثعابين تمصمص عظم مقاومتها.. شحبت فصارت جلدا أصفر مطليا ببودرة المكياج الذي يضعها ماكيير التليفزيون ويسألها:

- فيه حاجة يا آنسة عزة..؟

ولو فيه حاجة هل يتوقع الماكيير أن تبوح بها له، عندما يلامسها بأصابعه كانت تشعر كأن دبيب خطو ألف نملة يمشي على صدغها.. انتفخت عيناها وتورمت المنطقة الزلقة تحت جفنيها.. فذهبت إلى طبيب أمراض نساء، لعلها مشاكل مبعثها تصاريف تضاريس أجساد النساء.. لكنه حين كان ينزع قفازه البلاستيكي قال لها بابتسامة موظف علاقات عامة:

- الأفضل أن ترجعي إلى استشاري نفسي.

عند الطبيب النفسي واجهته بصلف اجتهدت في أن يكون واضحا أنها لن تنام على كنبة وتحكي عن طفولتها وعلاقتها بأمها البعيدة ولا والدها المزواج النصاب، وأنها ليست مستعدة لأن تسمع أو تقول كلاما مثل هذا، فطلب لها الطبيب ليمونًا باردا من عامل العيادة، فرفضت أن تشربه وطلبت قهوة سادة أخذ الطبيب يحكي لها عن متابعته لنشاطها منذ حصلت على لقب ملكة جمال مصر، ثم ظهرت في أكثر من إعلان تليفزيوني – على ما أظن كان إعلانًا عن شامبو فصححت له إنه كان فيديو كليب مع مطرب شهير وسألها عن البرنامج الذي تذيعه الآن، فقالت إنه برنامج سباق

أغنيات ثم انشرخ صوتها واندفع بكاؤها غزيرا وهي تنهنه وتسعل وتتمخض وتنفّ.. ثم قادها الطبيب من يدها – شعرت ساعتها أن يده يد فلاح محشوة خشونة لا شك فيها وكرهته فجأة – فتح لها زر الكهرباء فبان الحمام الصغير الملحق بغرفته، فتح لها الحنفية وخرج وغطست برأسها في الحوض، غسلت وجهها حتى نزعت المكياج تماما عن بشرتها فانكشفت براءة مباغتة، وصعدت أظافرها المطلية بلون بني غامق وشرير تخلع عدساتها اللاصقة تضعها على بطن طرف إصبعها السبابة.. كان الطبيب ينتظرها وراء المكتب حين خرجت من الحمام اتجهت ناحيته مندفعة ومتلهفة، جذبت حقيبتها وانطلقت نحو باب الغرفة وهي تمتم بأحرف مكسورة:

- أمر على حضرتك غدا.
- في اليوم التالي كانت العيادة أجازة، بعدها بيومين حضرت أكثر تماسكًا وأقل غطرسة.

سألها الطبيب:

- ألم يكن شعرك أسود المرة السابقة.

ابتسمت وقالت:

- آه.. لونْتُه أصفر.. روشَنَه.. احتمال أصور برنامجا جديدا فيه شوية جنان.

واستكملت ابتسامتها بضحكة تقفز على تموجاتها الصوتية حوافر الهيستريا:

- وإيه رأيك في العدسات الخضراء الجديدة..؟

- شعرت لحظتها أن الطبيب يمسح رأسه بأصابعه ثم يشد شعره فيخلع باروكة فيبدو أقرعا تماما.. فانهارت وباحت:

- دكتور أنا تعبانة قوي.

ويومها عرفت أن لديها مرض الضلالات، وعرفت متى جاءها هذا الثقل العاتي محملاً بمرض لاصقها عامين تقريبا ولا يزال يراوغها ويظهر مباغتًا بين الحين والآخر، يومها كانت في السيارة الشيروكي التي ذهبت فيها مع جلال (كان يقودها أيضا فهو لا يقبل أن يركب سيارة لا يقودها) وكان بجواره وائل وهي في المقعد الخلفي نعسانة مائلة على زجاج النافذة، وتفتح عيونها كل بضعة دقائق كي تندم أنها فتحتها وتسمع تحليلات تامر عن الفقر والغنى وهو بجوارها مشغولاً بتنحية وائل عن فكرة ترشيح نفسه في الانتخابات. تشابكت

وتشكلات الصور أمامها ساعتها وكانت بطاقة تعارفها مع الضلالات، كانوا عائدين من الفيوم حيث زارت نرمين في بيتها الريفي الذي اشترته مع صاحبتها كان هذا هو الريف المزيف والمزور؛ هناك اشترى عدد من مفاخر الطبقة الفاخرة بيوتًا ريفية على تَبة تطل على بحيرة قارون في محاولة لاستعارة البكارة والفطرة؛ منزلٌ مبني على طريقة المهندس حسن فتحي صاحب عمارة الفقراء التي لا يبنيها إلا الأغنياء، شواهد قبور.. تلك كل الصورة التي تراها لهذا النوع من العمارة الذي يعاني نفس المرض الذي يعانيه سكانها من الأغنياء؛ أن يأخذوا من الريف والفقراء الفرن البلدي دون أن يخبزوا فيه، مجرد فرن للزينة وللديكور موضوع في صحن البيت حيث صالة المعيشة، لمبات الجاز المعلقة لكنها مجرد مصابيح كهربية على هيئة لمبات جاز، سرقة طبقية سافرة، الكليم المفروش على الأرض في كل مكان، بنفس سمت وشكل الكليم البلدي المصنوع يدويا قصاصات الأقمشة المنسية لكنه هنا بثمن سجادة عجمي، السلالم المؤدية إلى السطح على شكل الدرجات الريفية الضيقة الملتوية لكن سورها الخشبي يمتلئ بزجاج معشق

ومشربيات مذهبة؛ برج الحمام الصغير المطلي بالبياض والمثقوب في أخرام متعددة محشية بالقش الأصفر والبني، لكن لا حمام يأتي إلى البرج ولا يطير منه، حتى الفلاح نفسه عبد الرحمن طويل القامة وأسمر غطيس وملامحه غليظة ويده عريضة وضخمة وخشنة حتى التشقق وجلبابه ريفي متسع عند فتحة الكم المحيطة بالكف والصديري الأبيض ذي الزراير القطنية الصغيرة الدقيقة – حتى عبد الرحمن الفلاح الذي لا تخطئه رمشة عين، تجده داخلاً إلى البيت حاملاً لهم صندوق البيرة الهينكان في وضع يسمح بإدراك الاستعمار الثقافي على عينه، لا.. والأكثر حين يجلس مع نيرمين وصاحبتها يدخنون السجائر الأمريكية وحين تميل نرمين بشعرها المصبوغ بالصفار في منتصف فلقة شعره الأسود وتشعل له السجائر بالقدر الكافي ليتعرف على رائحة عطره التي دفعت في زجاجة واحدة منه أكثر من مائة وسبعين دولار كيف يذهب لزوجته عبد الرحمن بعدها، ومن فتحة ضلفة الباب المؤدية إلى الحوش الأمامي تجد فتحي ابن عبد الرحمن صاحب الأحد عشر عاما وهو يقود سيارة نرمين ويركنها تحت الظل، وكانت صاحبة نرمين قد عرضت على

عبد الرحمن أن تأخذ فتحي معها الساحل الشمالي هذا الصيف، سأل جلال بفظاظة عبد الرحمن حين فتح له علبة البيرة باحتراف كامل.

- أخبار مراتك إيه يا عبد الرحمن..؟

نهرته نرمين واعتذرت لعبد الرحمن وكهرب الجو، كان عبد الرحمن مطالبا بالجلوس الأنيس معهم طول الليل، يرفع زجاجات وعلبا، ويرص حجارة على شيشة ويلف سجائر ببناجو، وقد تشارك معهم كعادته في الأنفاس والجرعات ومع علو الصوت النسائي وانفلاته المخمور وتماسك عبد الرحمن وانضباطه في النظرة والرمقة واللمسة، ضاعف شربه وتكدست أنفاسه الخدرة يحتمي بها من غواية المشاركة باللفظة والنظرة واللمسة، وكان وجهه يحمر ويسخن وينتفخ وتتشظى نظراته الملقاة على الجميع وتظهر ضغطة أسنانه كمن يحول دون انفلات، ظل يكبح غريزته بالخمر والمخدر حتى تباطأت يده وخملت أصابعه وارتخت عيونه وأهتز جسده فجأة بتشنج محموم، فزعوا وتمشت عقولهم في المساحة الفاصلة بين الوعي والغفوة.

قال تامر:

- مالك يا عبد الرحمن؟

سقط جسد عبد الرحمن الرجولي الخشن في رجات من التشنج وهزات مما يشبه الصرع، تفجرت من فمه رغوات من سائل أصفر يفور ويتساقط على صدره وذقنه وقد ارتجفت رموش عينه وصار البياض طاغيا في محجري عينيه وتخشبت ذراعاه وارتفع صوت أنفاسه الصاعدة من صدره المنتفخ، وسرت في ساقيه رعدة ثم همود ثم عودة لرعدة أشد وأقصى، قام تامر وقد أسقط كل شيء في سكوته مسرعا يحاول إنقاذه بينما كانت نرمين وصحبتها يعوون من الاضطراب والارتباك، حاول تامر أن يسعفه وهم يتخبطون في لم عدة البانجو وإخفاء علب البيرة وطمر زجاجات الخمر تحت الموائد والرمل، مات عبد الرحمن وولدت ضلالات عزة في نفس السيارة العائدة يقودها جلال.

بعدها كانت عزة مهيأة تماما لحب علاء.

ارتكنت إلى أنها تكره الجنس وتحب علاء الكفراوي، ووجدها علاء فرصة أو طرفة، أو كما قال لتامر هو يشرح له لماذا سيتزوج هذه المخلولة فعلاً:

- أولاً كي تفرح أمي، معندكش فكرة لسه عندها أمل أطلع راجل، قالها وضحك بقوة وقاطع ضحكته بجملة حارة:

- على فكرة أن باحب أمي قوي.

ثم عاد من جملته الاعتراضية وأكمل:

- ثانيا كي ألخبط مصر كلها، وأخليها تضرب أخماس في أسداس أنا مين بالضبط، تعرف بعض أصدقائنا الشواذ، شايفين هذه خيانة، خيانة إيه يا كلاب وأنا اللي عملت لكم صوت في البلد.

كانت فيرونكا ترقص مع زميلاتها في الشو الروسي وهي تنظر إلى الشلة، تلقي ابتسامتها الممزوجة بالنضج ونظراتها المثيرة المطهية بالبراءة قوامها الغزلاني وخفتها البولوشية لم تؤثر الآن في خفقات قلب أحد منهم كما اعتادوا واعتادت منذ أحضرهم علاء لهذا المحل وصار واحدا من علامات مرور حياتهم، كان جلال متحفزا مثل قط يتذرع بأي سبب للخربشة، أما علاء فكان آمنًا وواثقًا في صعود منتظم لغروره، بينما جلس وائل وتامر يرقبان دخانًا يخرج من كلمات ملتهبة زاعقة وسط الصخب.

قال جلال:

- كنا متفقين يا تامر أننا نقسم السوق بشكل عادل ومنطقي.

رد تامر:

- صحيح.. وما الجديد في ذلك؟

كان القديم أن جلال حين قرر أن يترك الاشتغال بالصحافة ضاجا بها، وضغط على والده فهيم السعداوي بكل السبل أن يرحمه من شغلانة الكتابة وكلماتها: صرح، وأضاف، والجدير بالذكر، ثم أفصح عن كراهيته لشغلها رغم مكانته المذهلة في جريدة يرأسها والده، وكان زملاؤه الصحفيون من بين ما سبب خصامه للصحافة ورفضه أن يعمل صحفيا رغم أنه عضو نقابة صحفيين بعد تخرجه مباشرة من الجامعة حيث نشرت موضوعات باسمه وصدر قرار تعيين له وعلى حسه أصدر والده قرارا بتعيين عشر محررين تحت التمرين حتى يكون تعيينه منطقيا ومبررا رغم أن والده إذا كانت عنده ميزة في المواجهات فهي أنه لا يضع في حسبانه ردود فعل ولا قيود مهنة ولا أصول تصرفات، كره جلال زملاءه ومقَتَهم تماما بفقرهم ومحاولة

قفزهم طبقيا، بثرثرتهم الكثيرة عن الشرف وهم فاسدون تحت الطاب، بشعورهم بالتميز للعمل في هذه المهنة التي أدرك أنها لا تمثل لديهم أة قيمة ولا أهمية سوى رفع مستوى الدخل والارتفاع بهم عن أصولهم الطبقية الواطية. كان يكره نفاقهم وتزلفهم له، رغبتهم المحمومة في عمولات إعلانات، حجز أراضي، تقسيط سيارات، قروش العمل في المطبوعات العربية والمحطات التليفزيونية، ابتزازهم للبشر على حس مهنتم الوضيعة كما رآها دوما، فهم لماذا يسخر منه تامر حين قال:

- هل تعرف يا جلال أن القضاء والمحاكم المصرية في أوائل القرن العشرين لم تكن تعترف بشهادة الجورنالجي والمشخصاتي؟

لم يفهم جلال و... رد وائل:

- يعني إيه؟

شرح تامر:

- يعني لو صحفي راح المحكمة كي يشهد في الجريمة قتل أو سرقة، ويقول أنا شفت فلانًا يقتل أو يسرق،

كان القاضي يعتبر الشهادة في حكم المنعدمة ولا يعترف بها القانون مثل شهادة المجنون تماما.

أطرق جلال وهز رأسه مطالبا بالاستزادة فواصل تامر:

- كانوا في هذه الفترة يحتقرون مهنة الجورنالجي باعتباره شخصا يمشي بين الناس بالفتنة والنميمة ويعتايش على نقل أخبار أعراض الناس وأسرارهم، تماما مثل الممثل المشخصاتي الذي يتقمص كل فترة شخصية على المسرح فكأنما هو مختل أو مشوش لا تعرف له صفة ولا طبعا أصيلاً، وتحتار هل هو نفسه أم تلك الشخصيات التي يدعي كل يوم أنها هو.

رد جلال وقد أنار تامر عقله:

- تعرف أنه كان عندهم حق، أنا أبويا ـ لو فيه في البلد شوية ضمير بقرشين صاغ ـ لا يِتْقِبِلْ شهادته في المحاكم ولا عند ربنا أساسا، ولعلمك كل الناس اللي باشوفهم في الجورنال عيال بيئةْ، وعمال تراحيل تافهين ومنافقين، ولا تضمن لهم ذمة ولا ضمير، أشتري أي ضمير صاحي فيهم أنا أو أبويا.

قرر جلال أن يركز فيما يحبه وهو البيزنس، شارك على الورق وبدون أن يدفع مليما في مكتب استيراد وتصدير لم يصدر طيلة حياته شيئًا، لكن بدأ نشاطه منذ انضمام جلال ينصب في استيراد الأحبار اللازمة لمطابع المؤسسات الصحفية وجميع لوازم هذه المؤسسات من أفلام للطبع وزنكات ورق، وحتى الأقلام الجافة والرصاص التي يكتب بها المحررون، كان صاحب المكتب واحدا من المليونيرات الكبار الذي يتداخل في حقول عمل وتجارة مختلفة ومتباينة كثيرة من البترول وتجارة الماشية من استيراد الكافيار والجمبري حتى شركة ألبان شهيرة، وأدرك الرجل أن وجود جلال باعتباره ابن أهم رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير جورنال حكومي في البلد سوف يفتح لهم أبواب عالم الطباعة على آخره مستغلاً نفوذ والده بل وقد وضع لوالده حصة من الربح وقسمة من المال، الأمر الذي للغرابة قبله الوالد باعتباره هدية رقيقة من المليونير وجلال ابنه، ومن يومها احتكر مكتب جلال توريد الأحبار لمؤسسة السيد الوالد ثم تحدث والده مع زملائه أعضاء نادي الطائرة وهو الاسم الذي يطلق على رؤساء تحرير صحف الحكومة الذين

يصاحبون الرئيس في طائرته المسافرة للرحلات الخارجية – وهي كثيرة – في الدول العربية والأجنبية لمقابلات مع ساسة ورؤساء وملوك وإجراء مباحثات دائما ناجحة وزيارات دوما تاريخية، وكانت جلستهم في الطائرة في قاعة صغيرة معدة لهم خصيصا في ملحق جناح الرئيس، ثم جناح كبار رجال الرئيس، ثم يأتي موضع جلوس رؤساء التحرير الذين مهما أضيف لهم أو حذف منهم من صحفيين سواء من صحف خاصة أو أحزاب المعارضة إلا أنهم بقوا رؤساء تحرير ومجالس إدارات الصحف اليومية الرئيسية ومؤسسات تصدر مجلات أسبوعية حكومية يشكلون العصبة التي يتمحور حولها عالم الصحافة المصاحب للرئيس، ومن كثرة سفريات الرئيس الخارجية ولطول مدة الحكم ولبقائهم جميعا على مقاعدهم حتى نسوا متى لم يكونوا عليها، فقد حدث بينهم ما يشبه أخوة عصابة المافيا التي يتكاتف رجالها ويتحالفون كأنهم أُخوة دم حين يواجهون خطرا أو يدرءون فتنة، بينهم بعض من إِحنٍ ومشاحناتٍ زادت مع وصولهم سن الشيخوخة وانفلاتهم العصبي أحيانًا من جراء جرعات الويسكي في بارات الفنادق الأوروبية والأمريكية وما يفعله بينهم ثعالب

صغيرة تمشي بالنار في ممرات قلوبهم سواء برواية وقائع أو نقل آراء، أو زعم مؤامرات تشي بأن الرئيس يفضل أحدهم على الآخر، أو أن قلب الرئيس تغير على واحد منهم، بل أن عنوانًا يكتب بصفه دورية مع كل زيارة للرئيس لدولة أجنبية أو أيا كانت العاصمة، واشنطن، باريس، لندن، أهاج عواصفًا من عواصف بينهم أسابيع وأياما، واشنطن تتطلع لزيارة السيد الرئيس، هذا العنوان بتلك الجملة التي تأتي بعد اسم العاصمة، بما لها من وقع تاريخي على أذن رئيس مهتم كثيرا بالجغرافيا فسافر أكثر مما استُقبل، آثار نسب هذا العنوان بجملته الأثيرة من كان أول من كتبه وأول من صدر به صفحته الأولى وأول من صاغه وكرره واعتمده، أثار هذا النسب لمن فيهم السبق والفضل في ظهور هذا العنوان وإقراره في الصحافة المصرية معركة بينهم حيث ادعى اختراعه أحدهم ذات مرة بعدما نبهه مدير تحريره لذلك، فعاد آخر وفي لقاء تالٍ وقد أمسك بالعنوان حين ظهوره الأول في صحيفته وقد أعد له هذه الوثيقة أحد شباب المحررين الذي استفزه أن يعلن منافس رئيسه عن ملكية عنوان ليست له تاريخيا. وبدأت سِجالات حول هذا العنوان

بعواصف وشائعات ومماحكات وملاسنات لم تتوقف إلا بتدخل من مدير مكتب الرئيس الذي قال أن الأمر وصل الرئيس وأن هذا عيب يا جماعة فأدركوا فورا أنه عيب وكفوا عنه، إلا أن الجميع تكاتف مع السيد فهيم السعداوي والد جلال في إتاحة الفرصة لابنه كي يعمل ويجتهد ويشتغل في مجال مهم تحتاج إليه الصحافة المصرية وهو مجال لوازم واحتياجات المطابع، من هنا تحول جلال من مورد لمؤسسة والده فقط إلى مؤسسة زملاء نادي الطائرة الذي يفرض شرف العضوية فيه تكاتفًا من هذا الطراز، خصوصا أن هدايا مكتب جلال لا تتوقف عن زياراتها لمكاتبهم بين ساعات ذهبية وعلب سيجار كوبي وصنف ويسكي ممتاز، ثم وهو الأهم بطاقات صغيرة مكتوب عليها رقم حساب مفتوح توا في بنك باسم حفيد أو حفيدة، أو عشيقة أو زوجة سرية لا يعرفها سوى أعضاء النادي، وقد أودع فيه نسبة حسب كل عملية وحسب كل موسم وحسب ما ربنا يكرم.

لم يكن يعلم أحد أن هذا العشاء بين جلال وعلاء سيكون العشاء الأخير، وها هو العشاء الأخير يأتي راقصا أحيانًا.

قال جلال:

- بدأت تلعب خارج النجيلة يا علاء.

ابتسم علاء واحتفظ بهدوئه رغم صخب الموسيقى واندافعات الراقصات في هذا المحل الذي جلسوا فيه عند البقعة المميزة المخصصة لهم منذ فترة، وبينما انشغل وائل في قذف خيار وطماطم وجزر وخس وحمص المزة في جوفه كمن يلقي بحبات إلى فيل في جنينة حيوان.. كان علاء يتكلم بصوت بذل مجهودا كبيرا في إضفاء خشونة ذكورية عليه.. كان المجهود واضحا تماما لمن يسمعه:

- مالك زعلان ليه يا جلال ...؟ انت عارف السوق بيقول على وعليك إيه، أطلقوا علينا لقب الأطفال المعجزة، عمرنا أربعة أو خمس سنوات في سوق الأحبار ولوازم الطباعة واكتسحنا السوق وقعدنا تجارا كبارا قوي، ورجالة بشنبات ورجال أعمال قدامى في بيوتهم، وغيروا النشاط، نحن تقريبا نحتكر السوق ولا أحد يقول لنا أُف ولا ينهرنا ولا يجرؤْن على ذلك.

زاد هذا الكلام جلال غضبا:

- قول لنفسك.. أنت الذي ترمى سيجارتك في مخزن ورق.. وتفجر المشاكل.

حاول تامر أن يهدئ الموقف خصوصا أنه كان ملهوفًا على حضور فيرونيكا:

- طيب يا جلال، أي مشكلة لها حل.

تقريبا شخر جلال في وجه تامر:

- يا سلام إيه الحكمة الجديدة البليغة دي يا دكتور...؟

أكمل تامر دون أن يعير للتهكم انتباها، عايز يخاص:

- يا سيدي أنا طول عمري أقول أن لديك حلول لكل المشكلات، لدرجة أن لديك مشكلات لكل الحلول.

وائل ضحك وهو يتجرع البيرة واستفهم:

- يعني إيه مش فاهم؟

رد عليه تامر بسرعة كمن يغلق راديو يصدر وشيشًا:

- قول مثل والدك "موافقون" وصفق واخرس.

أعاد جلال الحوار إلى خشونته:

- أنا ملتزم بحدودي.. الجرايد والمؤسسات الصحفية، حتى هذه المؤسسات أنا سايب لك شوية فكة فيها ...

انت لك كل السوق بعد كدة جامعات ومطابع ومكتبات ... كله كله.

- كويس.
- انت الأسبوع اللي فات ضربت في مؤسسة الأنباء مسمار نعشك.

تصاعدت اللهجة وبدا جلال على وشك الانفجار:

- يعني إيه يا راجل (قال راجل بأداء من يقول يا امرأة) تِبعتْ تعرض على المؤسسة عقد بنصف قيمة عقدي تقريبا وبنوع أحبار أخرى وبعمولة لرئيس مجلس الإدارة خمسة وعشرين في المية وخمسة في المية لمدير المطابع وخمسة تانية لمدير المشتريات....؟

لم يظهر علاء مفاجأة و...... رد ..؟

- آه.. العقد وصلك تمام.
- طبعا.. أُمال كنت فاكرني نايم على وداني...؟

في استخفاف قال علاء:

- لا.. العفو، لكن رئيس مجلس الإدارة الذي أرسل إليك هذا العقد أرسله طمعا في هدايا زيادة منك ورشاوي أكثر وعمولة أكبر.

وانت مالْ أهاك.. هذا حصل بحذافيره وانت أرسلت أبوك لمؤسسة صاحبها مفيش عمار بينه وبين بابا (كلمة بابا أضحكت تامر وأحسها عيالي على الملايين التي يتصارعان عليها تلك اللحظة) وسيادة اللواء الكفراوي أفندي قال بعلو حِسه في المؤسسة احنا في دولةْ قانون واقتصاد حر من حقنا ننافس شركات جلال، وجلال بيدعي أنه فيه كبار في البلد بتحميه ووافقه وراءه، وهذا محض ادعاء ومجرد افتراء على هذه الحكومة الشريفة النبيلة العفيفة، وطبقًا لتعليمات وتوجيهات السيد الرئيس والكلام الفارغ الكثير اللي بربر بِه هناك.. وأنا أحذرك يا علاء لن أسكت ..

شَخَطَ فيه علاء وكانت الموسيقى قد توقفت وانفض المسرح من راقصاته، وتسمر تامر ووائل من هول تصاعد دخان الحروف ونار الألفاظ:

- لا.. أنا عايزك تسكت يا جلال.. انت بتوزع أسوأ نوع حبر في العالم بأعلى أسعار أحبار في العالم، ومحتكر شغل مؤسسات فلوسها تتصرف على دولة مش شركة وأنا ساكت.. لكن إنك تمنع عني صفقة المطبعة اللي تمنها ثلثمائة مليون جنيه وكنت وقعت مع المطابع الأميرية عقدا على

توريدها وتركيبها مع الجماعة الألمان.. تضربني فيها وتقول إيه اللي دخل علاء شغل مكن الطباعة، والراجل يقطع العقد في الجونة في قصر أبوك، بابا (قالها بعد توقف ثوان وبلهجة تهكم فاضحة)، لأن والد حضرتك اقترح عليه إنك تشيل الشغلانة.. لأ.. يا روح بابا.

ثم أطلق علاء شخيرا إسكندرانيا عميقًا وذكوريا وعاليا وصاخبا واتضح للجميع أنه صفارة إنذار أو طلقة رصاصة مسدس بدء السباق، سباق المسافات القصيرة.

بعد خمسة أيام من العشاء الأخير الراقص.. كانت مصر عن بكرة أبيها تهتم بالشذوذ الجنسي، ولا حديث لمصر عن شيء سواه ... لم يكن أحد تقريبا يجيد القراءة في البلد لا يعرف علاء الكفراوي.

جلال ضرب ضربته.

وكانت ضربة أسرع مما ينتظر.. وأوجع مما يتوقع.

كان علاء في الطابق العلوي للفيلا وقد انتهى من تدخين سيجار كوبي يتندر دائما بأن سعره يبلغ نصف معاش أمه من الوظيفة، جاءت رنة التليفون المحمول باللحن المميز لرقم تليفون العميد عصام، خصص له رنة النشيد الوطني

بلادي بلادي؛ فكلما سمع أحدهم نغمة نشيد بلادي قادمة من تليفونه المحمول ابتسم وانزعج، استغرب واستنكر وتساءل بعيونه أو بلسانه:

- أليست هذه نغمة نشيد بلادي بلادي لك حبي وفؤادي..؟

فيرد عليه علاء وهو يتأمل الاسم المكتوب على شاشة المحمول:

- صحيح..

يومئ برأسه ويضيف:

- دقيقة واحدة أرد على نداء الوطن.

لكن هذه المرة انقبض قلبه.. كانت أمه اتصلت به منذ ساعة سألته:

- انت كويس يا حبيبي...؟

توغوشُه هذه الأسئلة من أمه، رغم أنها لم تكن يوما لديه أُما مثالية، بل كانت نقمتُه عليها من استسلامها لأبيه واستصغار لشأنها وهوانها على نفسها، مما جعله مع الزمن يرى ويرقب ويتابع هذا الضمور الذي تآكلت معه ملامح وقسمات ومنحنيات جسد أمه، انحناءة في الظهر وتقوس عند

الركبتين وانغلاق جانبي عيونها، لكنها عنده هي المرأة الوحيدة التي انشغل قلبه بها ونام يوما يبكي لها وأحس احتياجا لدفئها وحنانها، وهذا التواطؤ الصامت الذي تحالفت به معه منذ توجست ميوله اللوطية إلى ما بعد اعترافه الكبير ومواجهته العاصفة لوالده، لم تحدثه أبدا فيما جرى وأعلن كأن لم يفعل، كأن لم يحدث، إنكارها بينها وبين نفسها أراحها وأزاح عنه عبء المعاتبة وتخييب الظن والملامة، حتى أنه خطب عزة وقرر زواجها لأجل خاطر أمه، ولهفتها الحنونة وحلمها الذي صاحبها عمرا ودهرا، بأن تراه عريسا في الكوشة، وقد أحبت هي عزة كأنها ستارة كعبة تتعلق بها، وكانت ترسل له إشارات الامتنان لقراره الزواج بالدعاء والنظرات والتربيت على الكتف والاحتضان الدافئ لعزة.

لكنها حين تقول وتسأل... مالك؟ يبقى ماله فعلاً، حين تنشغل عليه يبقى هناك فعلاً ما يقلق، وطالما قالتها الليلة فقد أحس دنو حدث مباغت، كان يعرف أن جلال لن يصمت لكنه قدر ودبر ونظر وفكر وأدرك ونظر وفكر وأدرك أن حدود جلال ستكون بعيدة لكن ليست عصية على الاحتواء والالتفاف، وأن أعلى ما في خيل جلال الذي سيركبه لن

يكون كافيا لكسب مبارزة البيزنس بينهما، ورغم كل ذلك عندما رن المحمول رنة بلادي ...

أوجعته الرنة ولمست عرقًا من الفزع داخله فانتفض:

- أهلاً عصام باشا، إيه النور ده كله..؟

ثم تجرع رشفة من السم حين قال له عصام نحن محتاجون نشوفك الليلة يا علاء بيه..

هذه هي المرة الأولى التي يتحدث فيها بصيغة نحن، كان ضمير المتكلم السائد بينهما أنا لاحت نحن وبدا المنحنى هابطًا، ثم أضاف عصام:

- ممكن نمر عليك الليلة..؟

- متى؟

- الآن نصف ساعة ونكون عندك..؟

وبعد أقل من نصف ساعة كانت كفيلة لأن يخلع روبه ويرتدي ثيابه.

كانت سيارات الأمن المركزي الفيلية، تهبط منها أحذية الجنود والعساكر كأنهم يخرجون من حصان طروادة، دخل بالآثنيين إلى طروادة ليلة غدر، صيحات من النداء العسكري الغليظ الذي يخرج من حناجر مدربة على الغلاظة، ثم هدير

اصطكاك الدروع والخوذات والعصي، وأبواب سيارات شرطة تنفتح وتُغلق، ونفير سيارات الشرطة تزعق، وعلامات ضوئية تدور وتلف فوق أسطح سيارات الدورية الراكبة، وتحولت الفيلا في شارع من شوارع المقطم إلى ثكنة عسكرية في ثوانٍ، واستولى رجال الشرطة على قلعة الفارس اللوطي في لمح البصر، كان عصام قد دخل إلى الفيلا من الباب الرئيسي وقد توزع العساكر على حزام الخضرة والحشائش التي تحيط بالمبنى الرئيس فدهسوا كل شيء.

علاء وقد شعر أنه في شبكة صياد تملؤها رائحة الظفارة وقشور السمك الميت، استسلم لكلمات عصام الحادة الحقودة:

- السيد علاء حمدي الكفراوي.. ممكن تخرج معانا..؟ بهدوء أنت مقبوض عليك..!

قال علاء وهو يرتعش للمرة الأولى من المفاجأة والغضب والإحساس الهائل بالسقوط من قمة جبل:

- ممكن أعرف تهمتي إيه؟

شخط فيه عصام بحده خشنة وقسوة ساخرة:

- فاكر نفسك في فيلم أمريكاني يا روح أمك ح أقولك تهمتك ايه.... وح اقرا عليك حقوقك.!

لم يسمع علاء نصف الجملة التاني، هو فقط توقف عند كلمة روح أُمك، فلم يملك زمام روحه ورمى ببدنه على العميد عصام، وصفعة على وجهه بأقصى ما استطاع وبأقسى ما تمكن، ومن هول المفاجأة، سقط الصمت كالمطر على رؤوس الجميع، حتى عصام المذهول كان مشلولاً في الحركة والنطق وقد احمرت خدوده واتسعت عيونه واشتعلت مقلتا عينيه تتفجران جمرات تتفتت مقذوفة الشظايا في الهواء الفاصل بينه وبين علاء:

- للأسف معنديش تعليمات أضربك...!

من صباحها امتلأت الصحف الرسمية في صفحاتها الأولى بخبر ضخم تصدر عناوين الحياة المصرية لأسابيع، القبض على تنظيم الشواذ يتزعمه رجل أعمال. لم يظهر اسم علاء في اليوم الأول لكن مع اليوم التالي في كل الصحف ظهرت صورته وهو مقبوض عليه يداري عيونه بكفه واسمه كاملاً وتفاصيل عن إنشائه تنظيم شواذ مهمته نشر الرذيلة والشذوذ في المجتمع المصري، يقوم على تجنيد الشباب من

جميع الأوساط الاجتماعية وممارسة الجنس الشاذ الجماعي في صالات وقاعات رقص معدة لذلك خصيصا، وإنشاء مواقع على الإنترنت تحت أسماء مختلفة منها جنة الشواذ، شواذ مصر، مثيليون حتى الموت، تقوم على إرشاد الشواذ في مصر لأماكن التجمعات واللقاءات الخاصة وتدبير المواعيد الجنسية وتسهيل الدعارة وإمدادهم بإرشادات وتوجيهات ونصائح، وتلقي الأسئلة والإجابة عليها من الخبراء، والزج بأسماء مسئولين في الدولة في الادعاء عليهم بالشذوذ والانحراف الجنسي.. لكن الصحف الخاصة التي أمدتها أجهزة أمن الدولة بأوراق التحريات وملفات القضية جعلت منها أهم ما يشغل البشرية، وأفاضت في الاتهامات حيث أكدت أن المتهم الأول هو علاء الكفراوي (ونشروا صوره مع أمه ووالده ورحلته منذ طفولته المريضة إلى شبابه الشاذ بالصور) قد ألف كتابا يحاكي فيه القرآن الكريم وأنه اعتبره الكتاب المقدس للشواذ في العال،م وكان المنتمي للتنظيم يقوم بحفظه كشرط للعضوية، كما أنه كان يختار من يقضي معه ليلته ضمن مسابقة يومية بين شباب التنظيم ومن يرض عنه يمنحه سيارة فورية، وأنه استغل صلاته ببعض

رجالات الدولة في الحصول على صفقات تجارية، لكن كل هذه المعاملات قد تم إيقافها فور إعلان الاتهام ثم بدأت الموضوعات الصحفية تنشر عن الكتب التي كلف بها علاء عددا من الباحثين لكتابتها وهي "اللواط في القرآن" "المثلية الجنسية في الأدب العربي" ثم نشروا فصولاً كاملة من الكتب ولا أحد يعرف من الذي كتبها على هذا النحو من السرعة وبكل هذا القدر من التعجل، وبدأ عدد من الباحثين يعلنون تبرؤهم مما جاء في هذه الكتب نقلاً عن دراسات لهم واتخاذها مراجع لهم.

ثم خرجت صحيفة خاصة بالعنوان الذي استولى على ألباب العامة والكافة، من هو عشيق علاء الكفراوي؟ وهل صحيح أنه تزوج في فندق خمس نجوم في حفل حضره مسئولون في الحكومة، وحين تم قتل هذه الأسئلة بحثًا في عدة أعداد من الصحيفة تبارزت معها أخرى بموضوع عن لوبي الشواذ، من يحمي تنظيمات الشواذ من وراء الستار؟ وحين أجابوا على بعض هذه الأسئلة بمزيد من الاستفهامات والأسئلة، رموا القنبلة الجديدة وهي صورة علاء مع عزة النجمة التليفزيونية، سر المذيعة الحسناء في قضية الشذوذ

الجنسي، وظهرت عزة ضيفة في أكثر من برنامج تليفزيوني فضائي تنفي وترد وتفند، علاء كان مجرد شخص عادي التقت به مرتين فقط في حياتها ثم انخرطت محطات الفضائيات في القضية كأنها حية موسى التي التقطت أفانين سحره الصحافةُ المكتوبة، فصارت عزة نجمة البرامج والمحطات، تنتقل من برنامج لآخر كالفراشة وتلدغ من جملة لأخرى كالنحلة، وظهرت صورتها على أغلفة مجلات مصرية وعربية، وتبارت الصحف في نشر حواراتها، ثم تحول اهتمام الصحف والبرامج التليفزيونية فتحدثت عن الشذوذ، مرض أم إدمان أم اختيار، استضافت عشرات الأطباء المتخصصين وعلماء المجتمع يتحدثون عن ظاهرة الشذوذ ويحللونها ويغمرون المشاهد بتفاصيل ودقائق تُضحك المذيعات من الخجل المصطنع حين ذكرها، ثم استضافوا في برامج أخرى عددا من الشباب الشاذ من خلف ستار خفيف يداري ويخفي، أو حيل جرافيك تُموه ملامح الوجوه، ثم خرج كاتب إسلامي بمقال يهاجم فيه اهتمام الصحافة بقضية الشذوذ، ويلومها على تجاهل قضايا العراق وفلسطين والمسلمين في العالم والتفرغ لهذه الحقارات، أعقب ذلك

الهجوم أكثر من مقال وتصريح تليفزيوني ومداخلات في ندوات تؤيد الكاتب فيما وصل إليه، وتشاركه الهجوم الحاد على وسائل الإعلام لإفاضتها الواسعة المبتذلة والرخيصة في هذه القضية، وكان رد فِعل الصحافة أن زايدت على الجميع وبدأت في نشر موضوعات تحت عناوين كبيرة: هل من حق الصحافة تناول الحياة الخاصة للمشاهير؟ أو السكوت على الشذوذ بشذوذ آخر؟ واندفعت الصحف في نشر مقالات عن حق المهنة وأخرى عن حق القارئ، لكن بيانًا نشرته منظمة أمريكية ترعى حقوق الشواذ في العالم ونداء عاجلاً بثته منظمة أوربية للشواذ أعادت الصحافة إلى هدير ضخم من نوع دور إسرائيل في نشر الشذوذ في مصر والعالم العربي، ثم رفض تدخل الجهات الخارجية في شئون الوطن، ومواجهة الضغوط الخارجية الأمريكية للإفراج عن الشواذ، ثم أحاديث وحورات ومقالات لا تنقطع عن انتهاك أمريكا لحقوق الإنسان، وأنها تتجاهل انتهاك حقوق الإنسان في فلسطين والعراق والشيشان وأفغانستان، بينما تدافع عن حق الشذوذ، وعروق تنتفض دماء على الشاشات التليفزيونية، وأخرى تحرض فوق المنابر، وثالثة تكتب مقالات بالدم عن

الكبرياء في رفضهم التدخل الأجنبي والضغوط على القضاء العادل النزيه، لكن شيئًا عاجلاً تم في تعديلات الاتهامات الموجهة لعلاء الكفراوي؛ فصارت التهمة إنشاء تنظيم يهدف إلى قلب نظام الحكم وازدراء الأديان، وبث الفتنة وروح الكراهية بين أفراد المجتمع، ثم خرج مصدر مسئول في وزارة الخارجية يقول: إننا نحاكم المتهم ليس لسلوكه الجنسي ولكن لانحرافه عن القانون بما يوجب محاكمته، وأنه لا تدخل في قضاء مصر المستقل، بعدها بساعات أصدر النائب العام حظرا على نشر تفاصيل هذه القضية بينما لم تكن هناك تفصيلة واحدة قد تبقت.

عبروا وراء سارة التي مخرت بين الأشباح فاختفوا، تبخروا في لفائف من الضباب يبعد وهو يذوي ويتبدد مبثوثًا في فضاء فوق رؤوسهم المحنية الراجفة، تحاملوا على حطامهم وتحايلوا على خوفهم وخرجوا من الممر كأن رحم أمهاتهم يلفظهم ثانيةً، بالبكاء والصراخ والصويت والعمى المؤقت والمخاط على الوجوه والأجساد وزرقة وحمرة وتورم وجلد منفوخ وأقدام تضرب عبثًا وقبضات يد

مضمومة ملمومة، شَعر جلال أن العقارب بقرتْ بطنَه فكان أن صرخ في عزة كأنها المسئولة:

- شوفي كده بطني مفتوحة...؟

حينما رأوا صبري واقفًا وخلفه بصيص نور دفعوه، وانطلقوا هاربين من العقارب التي التفتوا فوجدوها تترك الحيطان لتطير في الأسقف العالية لهذا الممر الضيق الملتوي الذي انحشروا فيه، كأنما نبتت للعقارب أجنحة صغيرة شفافة وطرية تحلق بها في فضاء الممر وصوت الرفرفة يدوي فحيحا يصم آذانهم، وكأنما يخرق طبولها فترنحوا في اهتزاز مرتعش ومحموم، وتامر يكرر مثل من أصاب حنجرته عطل فتحشرج وتشنج:

- لماذا لا تلدغنا العقارب؟

حينما شاهدوا النور شهقوا بالخلاص بينما كان جلال مملوكًا لفكرة وحيدة، أن بطنه مبقورة، وصارخًا في الجميع أن يتأكدوا، لكنهم تنبهوا على هذه الساحة الواسعة المنخفضة من الأرض المبلطة ببازلت قديم يشبه أرصفة الموانئ العتيقة، وبانت في الخلف أبراج مدخل القرية وجزءا من

بوابتها الحديدية، فقرر تامر أن يصرخ فيهم وهو يستمد شجاعته من لامعقولية ما يجري:

- ممكن نطلع من هنا على البوابة..؟

التفتوا فوجدوا وائل وهو ملتهب غضبا يدفع صبري في صدره فتتساقط منه بقايا عقارب، وتتدلى منه رؤوس أسماك، فإذا سارة تبكي تماما مثل طفلة ارتدت إلى شهورها الأولى حيث بكاء رفيع متصل، وتكورت أعضاؤها وهي ترمي بنفسها على الأرض تعود إلى وضعها الجنيني المحمي في بطن أمها، وغادة تحتضنها محاولة جرها نحوها تعاونها عزة وهي جامدة الوجه وقد تصلبت عيونها وتوقف ننني عينيها عن الحركة، كان وائل يصرخ في صبري:

- ابعد عني......!

وكان صبري بنظرة ذاهلة ذابلة لوائل وبصوت مسكيني كُليةً يهمس:

- فيه إيه وائل.؟!

ووائل يدفعه في كتفه ثم يرتد عائدا لمتر، ثم يقترب في قوة ويضربه في صدره ويلتصق بوجهه في تحدٍ، ثم يتراجع

في فزع ويتشبث في كريم المتهالك وهنا، ثم يتمالك شجاعة مستعارة ويدنو من صبري ليلاكمه وهو يصرخ:

- ليه كده يا ماما.. يا ماما.

كان تامر أكثرهم في تلك اللحظة تماسكًا؛ فأمسك بوائل ونهره وربت على صبري وصبره، وشخط فيهم جميعا وأنفُه يلامس أنف سارة الباكية الساندة على كتف غادة:

- كلنا نمشي من هذا الطريق وناف من ذلك المكان العالي ونتجه للبوابة.. مفهوم...!

لم ينطق أحد فاعتبره مفهوما وأكمل:

- من هناك نطلع على الطريق ونأخذ أي عربية في أي اتجاه ونغور من القرية، أشباح عفاريت، تتحرق، المهم ننجو من هذا الكابوس.

اصطدمت كلمات غادة بأسنانها وهي تقول:

- إنها العفاريت سلطت عقارب وأسماكًا وقططًا علينا، وممكن تسلط أبداننا وعقولنا علينا، ويمكن تسحرنا حيوانات تانية كثيرة.

أجاب تامر وهو يشيح بذارعه زهقًا منها:

- لا نعرف بشرا تحولوا لحيوانات إلا إذا كنت تقصدين وائل، فهو الحيوان الوحيد الذي يتكلم بالعربي والإنجليزي.

ذهلوا من قدرة تامر على الهزل، ولكنهم استسلموا لقوته المفاجئة.

مشى.. فمشوا وراءه.. بينما اقترب منه جلال مستخدما من أقدميته في زعامة الشلة ذريعة لهذه الثقة في سؤال تامر:

- لكن أنت متأكد يا تامر إن مش دي أمعائي طالعة من بطني.......؟

ومد له يده قابضة على حبال سوداء رفيعة طويلة ينز منها شيء لزج ثقيل وداكن الصفار المخلوط بلون الخضار، انكفأ تامر على بطنه وأغرق ذيل بنطلونه ومقدمة حذائه بتقيؤ غليظ، وانفك صف الماشين وراءه وهم يشهدون انهيار شجاعة تامر وإدراكه وحده دونهم أن بطن جلال مبقور وتتدلى منه أمعاؤه حقًا، لم يفعلوا سوى الجري بقوة وبآخر ما فيهم من غريزة حب البقاء، حين وصلوا إلى أطراف المكان الذي يسمح لهم برؤية البوابة انبعث فيهم أمل مفجر

لما لمحوا حراس بوابة القرية واقفين في ثبات أعطوا ظهورهم للقرية ووجوههم مصوبة تجاه الطريق المرصوف، حاولت غادة أن تنادي عليهم وأوشك كريم أن يهتف زغردةً، لكن أعياهم الضعف وأضعفهم الإعياء، فاكتفوا بالجري كمن يلحق بعلامات نهاية سباق الأربعمائة متر تتابع، وصلوا إلى البوابة فأحس بهم وبحركتهم ولهاثهم حراس البوابة التفتوا لهم فإذا بعزة تصرخ، وينزرعون هم مشلولين يكاد يبلعهم أسفلت المكان.

كان وجه كل حارس ممسوحا من الملامح، لا عيون ولا شفاه ولا أنف ولا شيء إطلاقًا كانت وجوها مثل وجوه تماثيل المانيكان المعلقة عليها فساتين وبدل بلا ملامح وجوه، مجرد دائرة تشبه الرأس وبروز عن الجسد يماثل البشر، لما تبين للجميع أن الحراس بلا ملامح، لا عيون ولا شفاه ولا أنوف ولا شيء، بلا وجوه، بلا روح، لكنهم في نفس الوقت وذات اللحظة يتحركون بأيديهم يشيرون لزاوية وتتمشى أقدامهم نحو مكان، كانت بقع من البلل تغطي منتصف بنطلونات جلال وتامر وكريم وصبري، نقط تتساقط من بين الأفخاذ وتتقاطر كأعمدة ماء ورقع بول غامقة تمتد في حجر

البنطلونات، وغرق يكتسح نصفهم السفلى، وبول يتكاثر ويتوسع وخيوط من البول تتسرب فوق الأرض ترتسم أشكالاً وفروعا وعيونهم مذلولة مكسورة موجهة نحو الأرصفة التي تستقبل خوفهم ماء وفزعهم بولاً ورائحة عطانة بعثرة كرامتهم.. في تلك اللحظة ابتعد الحراس بأجسادهم المتحركة وقد أعطوا ظهورهم لضوء شعاع يصدر عن جسد متحرك يتقافز عند نهاية الميدان، أفاق جلال وفتح كريم عيونه المتعبة على هذا الضوء الذي يقترب.

حين دخل جلال شعر أنه بيت مختلف، أدرك اختلافه لكن لم يحب اختلافه، ليس فخيما بثراء موحش كبيتهم، لا الصالونات المذهبة التي تحتل قاعة الاستقبال الواسعة كأنها ميدان محطة، ولا السجاجيد الإيرانية العجمية السميكة الثقيلة المفروشة في كل مكان تغطي الرخام الثمين، ولا مائدة السفرة الطويلة العريضة بمقاعدها العلية المحشوة نفخًا، ولا النجف الضخم الفخم المنفوش في فضاء الغرف بمصابيح كثيرة غزيرة تسد النظر إلى السقف ولا لوحات الرسومات على الحوائط بالألوان الوحشية بالفوشيا المسيطرة والأحمر الطاغي، ولا نقوش الآيات القرآنية ومخطوطات لفظ الجلالة

وهي معلقة في كل ركن نفحات البركة واستعراضات الإيمان، نقيض ذلك كله كان منزل ونيس الشرقاوي، المؤلف والأديب الذي يعمل عند والده في المؤسسة، كان ونيس أشهر وأقدم لكن والده فهيم السعدواي كان المدير النافذ والرئيس الآمر، لم يخرج بهي ابن ونيس من غرفته فاضطر جلال أن يجلس في مواجهة ونيس يرقبه في هذه الجلسة المرتخية على أريكة عربية مريحة ساندا على شلتات بدت قديمة مشغولة يدويا وسط أوراق ملقاة وكتب مرمية هنا وهناك وجهاز اسطوانات من طراز عتيق يعزف موسيقى سيمفونية مما لا يفهمها جلال ويسخر منها أبوه، ولوحات برسومات فنانين مبهمة المعنى شائهة الوجوه، وسجاجيد من قصاقيص وبقايا الأقمشة والمفروشات وبورترية متوسط الحجم لونيس بنصف وجهه يدخن سيجارة، كان الشبه بين الوجه المعاق على الكنبة والذي يجلس مدخنًا ذات السيجارة نافثًا دخانًا أكثف، هي تلك السنوات العشرون بين التاريخين، فقد ونيس نضارة الشجاعة واكتسب الآن شجاعة الخمر، يشرب الخمر داكن اللون في كأسه الملصوق في كفه وزجاجة خمر رخيصة وشعبية مركونة على فخذه، ويهز ساقة النازلة من الكنبة

وهو يبتسم، وترتجف شفتاه من مرض أوشك أن يسيطر عليه، وعيونه تقذف بنظرات محمية على نار لهيبة.

على فكرة يا واد يا جلال رغم إن أبوك راجل واطي ومنحط أخلاقيا وضعيف مهنيا إلا أني باحبه وهو عارف كده، قالك ولا لأ...؟

كان جلال مخضوضا رغم كل ما يعرفه عن كحولية ونيس وسمعته الضاربة في الحماقة التي لم يعد يأخذها أحد مأخذ الجد بل كانت وسيلة للتندر ونميمة للجلسات المملة، ومع ذلك لم يبلع جلال ما يقوله ونيس بسهولة.

- أقسم با ...

قالها ونيس وهو يلوح بزجاجة الخمر في يده قبل أن يصب كأسا جديدا:

- أقسم با أن الرئيس اتصل بي في هذا التليفون (وأشار إلى تليفون بجواره مكسور قرصه) وسألني إيه رأيك في فهيم السعدواي يا أستاذ ونيس، قلت له أفضل اختيار في ظل هذه الظروف يا سيادة الرئيس.

الغريب أن هذه المهاتفة كانت حقيقية تماما ليست من بنات كؤوس خمر ونيس، لكن كان قد مر عليها ساعة ما

كان يحكيها لجلال خمسة عشر عاما، حين كان ونيس كاتبا يساريا متألقًا ومعارضا وحادا ونجم مؤتمرات المعارضين وثقلاً كبيرا في مؤسسته الصحفية بينما كان فهيم السعداوي مجرد مصحح في قسم التصحيح اللغوي في الجريدة انتقل نقلات بلغت به حد أن ترشحه الأجهزة الأمنية لرئاسة التحرير وبعدها بعامين يصبح رئيسا لمجلس الإدارة، بدأ السعدواي الصعود بهذا الولاء العقيدي لرئيس التحرير ماضي عبد الرسول، كانت المؤسسة قد أُفرغت من المحررين سواء اليساريين الذين كانوا عصبة هذه المؤسسة ورجالها ونجومها، بعضهم من الذين أخذوا أجازات للعمل في صحف الأحزاب أو الكتابة للصحف العربية وإدارة مكاتب هذه الصحف في القاهرة، أو تم فصلهم للتغيب عن العمل، وبتعسف في أحيان كثيرة طبقًا لنظرية إخلاء المؤسسة من الشيوعيين والمثقفين، وخلت كذلك من المحررين المحترفين في فن الصناعة الصحفية التي تخاطفتهم صحف الخليج والسعودية ومع حرص ماضي على العصف بأي شخص صاحب موهبة أو صاحب كبرياء فقد صارت المؤسسة جدبا مطلقاً، الأمر الذي فرش طريق فهيم

السعداوي حريرا، فقد كان يراجع مقالات رئيس التحرير لغويا فيذهب له حاملاً معه عشرات القصاصات حول موضوع المقال وقد أعد بخط حسن ومقروء بيانات جمعها من الأرشيف أو تصريحات التقطها من قسم الاستماع حيث مجموعة من المحررين مهمتهم التسمع لكل إذاعات العالم وكتابة أهم ما أذاعت وأكثر ما حللت، ويقدم كل ذلك لرئيس التحرير الذي فوجئ في البداية ثم استمرأ الأمر بعد ذلك، وبدأ نشاط فهيم يزداد تقربا وتزلفًا فكان يكتب مشروعات فقرات للمقال ثم سرعان ما بدأ يكتب المقال نفسه بتكليف من ماضي بحجة انشغاله ولقاءاته بالمسئولين فليس لديه وقتٌ.

شوف يا واد يا فهيم أنا سأختبرك أقعد أكتب في نصف ساعة أفكارا لمقالي لأنني انشغلت وورائي ستين حاجة.

وصار هذا طقسا يوميا في حياة فهيم ضاعفه بكتابة تقارير مفصلة مقدمة لماضي عن مقال كل كاتب ومغزاه وأهدافه المستترة لضرب النظام من خلال جملة تهدف لتوريط ماضي في نشر نقد للحكومة في سطر مدسوس أو بيت شعر أو حكاية تاريخية، وكان خبيرا عن ماضي في فهم مغازي كتابات الشيوعيين وفلولهم الباقية في المؤسسة حتى

حين يكتبون نقدا لفيلم يأخذون عليه (على الفيلم) تجاهل مشاكل المهمشين أو ينتقدون مسلسلاً لأنه ممل يغيب ويخدر المشاهدين.

- ح يغيبوه ويخدروه عن إيه يا ريس سوى أنهم يقصدون الغمز واللمز في الوضع السياسي والاقتصادي للبلد.

وفي ظل ما عرفه المجتمع من مد ديني، وما عمله الحكم من نفاق ديني، كان يضع عينه التي هي عين رئيس تحريره بالضرورة على الملاحدة والعلمانيين الذين كانوا يطعنون في الإسلام من خلال قصصهم ومقالاتهم، فكسب جلال خلال ستة شهور فقط قلب رئيسه حتى التربع فيه ثم التربح منه حيث نقله ترقيا من قسم التصحيح إلى مندوب الجريدة في المطار، غاب فقط عن ماضي أن فهيم كان كما يقدم لرئيسه كل حرف من تقاريره فإنه يقدمها كذلك لجهاز مباحث أمن الدولة منذ اليوم الذي زارهم فيه متهيبا ومتأهبا وجلس في انتظار تعطف ضابط للقياه أكثر من ثلاث ساعات حتى جاءه عسكري وأدخله إلى مكتب صغير لضابط أصغر من المكتب ومن المهمة التي جاء يعرض نفسه لها، فوجئ الضابط بالعرض، كانت مرته الأولى التي يشهد فيها صحفيا جاء

ليعمل عميلاً للأمن وأجهزة الحكم ضد زملائه، ابتلع دهشته ثم اختبره مرة واثنتين فاكتشف إخلاصا مذهلاً في العمالة وأبهر ضباطه ما في نفسه من وضاعة، وما في عقله من طموح، وقد بدأ مع تقاريره وتفاصيل ما يكتبه ويرويه يترقى كما في الجريدة ففي الجهاز كذلك، وعندما صار مندوبا للجريدة في المطار عرف أنه قد أقلع.

وقتها كان المطار مكانًا بعيدا جدا ومنفى منفرا (إذا كانت هناك منافي غير منفرة!) لم تكن حركة السفر ولا شكل بنايات المطار ولا حجم الطائرات ولا إجراءات السفر مثلما تقدم بها الزمن وتطور، وكانت معظم الأخبار المجاوبة من المطار هي قضايا تهريب الملابس من الجمارك، وكان جلال ممن شارك في ترويج تعبير تاجر شنطة على هؤلاء الذين كانوا يضبطون قادمين من رحلات خارجية ومعهم حقائب ملأى بالملابس المستوردة التي تباع لذوي اليسر والغني في الوطن الذي كثرت فلوسه في أيدي بعض ناسه الساعين لمظاهر الثروة المرفهة الغائبة عن مصر التي كانت مغمورة أيامها في اقتصاد الشركات المؤممة وقطاع العام بذوقه الموحد ومعروضاته القليلة، كان تجار الشنطة يزودون

محلات في شارع الشواربي الصغير المتقاطع بين شارعين رئيسين في وسط المدينة، كان أشبه بزقاق يتفرع منه أزقة أشبه بسراديب ولا أحد يعرف لماذا اختار تجار الشنطة والبضائع المستوردة هذا الشارع على صغره وقصره مربعا لهم ومرتعا للحالمين بملامسة حرير الغرب، وقد انفجر وجوده في القاهرة ثم مصر كلها علامة على تجمع محلات تبيع ملابس مهربة أو مستوردة غالية الثمن مختلفة الذوق تمشي مع العصر وتُماشِي الموضات العالمية، فكان علامة ودلالة على رغبة مجتمع في الانفكاك من قبضة واقعه الخشن والمتقشف لعالم من البحبحة والاستهلاك الذي يروي عطش التحدث بالنعمة والتباهي بالثروة، واجهات المحلات تزخر بعروضها لفساتين تبهر جوعى الترقي الاجتماعي وبلوزات تلعلع في بلكونات الصعود الطبقي، وصار الشراء من الشواربي علامة الغِنَى، والتعامل مع محلاته دلالة الثراء في الذوق والنوق، وصار الانتماء له عنوانًا على تغير اجتماعي ورغبة مجتمع في الطلاق البائن من فروضه السياسية وفرائضه الاقتصادية، حمل الشارع الصغير الملتوي بمحلاته القليلة وأكشاكه الضيقة وملحقات محلاته في

دور أرضي في عمارة خلفية أو بئر سلم أو نفق مخفي ما يطيق وما يقدر على تلبية حاجة طبقات تصعد وطبقات تحاول الترقي وطبقات تتمسح بكليهما تنتسب للفرجة حيث هناك من لا يشتري يتفرج، ربما فهم ماضي عبد الرسول ما يجري في الوطن فأرسل فهيم إلى المطار، وأدرك فهيم بذكائه الشرير ما يحدث في المطار فعرف ما سيجري في الوطن، فتلونت حرباؤه بعد أيام من وصوله إلى عمله بالمطار، توطدت علاقاته بالعاملين واشتبكت صداقته مع الرؤساء والمديرين الصغار، تعرف على مواطن الفساد وزاويا الرشوة وثغرات القوانين وفهم كل واحد من هؤلاء ما سعره وما لونه وما آخره، كان مانشيت مجتمع المطار هو نفس مانشيت الوطن: الناس عايزة تأكل عيشًا...! ليس مهما هنا الحلال والحرام، فهذا يتم حله بإطلاق لحية وصلاة الظهر والعصر الجماعية في الشغل وتوقف العمل أثناء الآذان وحجاب النساء المتنامي، وسواك للأسنان طول ما الأخ قاعد يشتغل، وسبحات واردة من الحرم المكي أو المشهد الحسيني (صنعت في الصين) وساعات ومنبهات تؤذن بدلاً من دقات الساعة العادية، وإذاعة القرآن الكريم

ببثها المباشر مضبوطٌ مؤشر الراديو الترانزستور عليها طول الوقت، وبراويز وصور مكة والمدينة ولفظ الجلالة وملصقات الآيات القرآنية والأدعية والأحاديث النبوية المرهبة، وتمتمات وهمهمات وتسابيح وأدعية الركوب والمشْي والصبح والعمل والصحة والمرض، كل هذا وليس كل ما يضبط من مهربات يصادر وليس كل ما يضيع من الحقائب في رحلات الطيران يعود ويوجد، وليس كل هدايا القادمين رشوة وليس كل قاروصة سجائر أو قميصا أو بلوزة سرقة، وليس كل معاونة على تهريب تعاون على الأثم، ولا كل قسمة لمنحة وهبة من كبار المسافرين العائدين تعاون على الأثم والعدوان، فهم فهيم ذلك كله قطعا، وكانت صور العاملين تترى في الجريدة، وتصريحات المسئولين تتوالى بل وينشر فهيم بكل الحِيل والسبل صور الزفاف للأقارب وأعياد الميلاد للأولاد ويقدم خدمات في وزارات التعليم والصحة والتأمينات وإدارات الأحياء ومجالس المدن فصار في شهور إمبراطور المطار؛ فنصف البضائع المهربة من الخارج كانت تخصه، وكان شريكًا في محلين بشارع الشواربي وكانت بذل رئيس مجلس الإدارة كلها من إيطاليا وباريس

وهجر نهائيا فستيا وغزل المحلة، وهانم رئيس مجلس الإدارة صارت تشاهد مجلات الموضة الأجنبية التي توزعها مؤسسته ثم تطلب ما تريد فيأتي ما أرادت، ثم اشترى رئيس مجلس الإدارة قطعة أرض في مدينة الصحفيين فيما كان ضاحية قاهرية وبنى عليها عمارة تمكن من بيع الشقة تمليكًا بأغلى أسعار وقتها، حيث مدها فهيم ببضائع مهربة وغير مجمركة من صنابير مياه وأحواض رخام إيطالي وبورسلين بلجيكي وخلاطات فضة وسيراميك إسباني ومقابض أبواب ألمانية وستائر فرنسية وشيش إنجليزي، جهز عمارة كاملة لرئيسه الذي أُثري بها، لدرجة أنه اتخذ قرارا بتعيين فهيم السعداوي مديرا لتحرير الجريدة اليومية الحكومية وبدا الأمر كبروق الأحلام ووميض الأساطير.

جلال الصغير الذي كان وقتها في أولى إعدادي استوعب أن شيئًا كبيرا يحدث في حياتهم فقد انتقلوا من شقتهم في شبرا إلى الدقي ثم بعد عام واحد كانوا في طابق كامل في عمارة بالمعادي، واشتروا شقة في جاردن سيتي وصار عند بابا مكتب خاص في شارع طلعت حرب يعمل فيه خال جلال، وزاروا مرة أرضا في مدينة نصر جمع من كلمات

أمه ووالده أنهم يملكونها الآن، واشترى والده سيارة لادا وترك ال ١٢٤ لأمه، ثم باع ال ١٢٤ واشترى فورد وترك اللادا لأمه، ثم باع اللادا واشترى سيارتين مرسيدس موديل سنوات قليلة مضت وترك الفورد لجلال وأخيه.. وبعدها بشهور كان سهلاً وطبيعيا أن يتصل فهيم الساعة الواحدة ظهر يوم بزوجته في البيت ويقول لها بلهجة تهد الأرض فرحا وتخرق السماء زهوا:

- مبروك يا عطيات ... الريس عيني رئيس تحرير...

فشهقت بالبهجة وصرخت:

- مبروك يا فهيم مبروك، كده لازم نحج ... ونشتري الخنزيرة.

حين دخل جلال المؤسسة ليعمل صحفيا، في أول يوم وفي أول ساعة تذكر مشاهد الأفلام الأبيض والأسود التي يشاهدها صدفة على قناة الأفلام حيث هرج ومرج وجري من الفلاحين وهم يهتفون:

- البيه ابن الباشا جه يا اولاد.

كثيرا ما كان يستهويه تعبير البيه الصغير الذي صعد مع صعود والده إلى الباشا الصغير، وكان الباشا الكبير والده

واقفًا الآن في صدر قاعة الاحتفالات الكبرى بالمؤسسة هناك عند المنصة التي أخليت من المائدة، ووقف هو فيها معه نواب مجلس الإدارة ونواب رئيس التحرير وعدد من المقربين في قوس يمثل هو سهمه، وأمامهم في القاعة قرابة ألف من الصحفيين وأقسام التصحيح والإخراج الفني والعاملين في الطاقم الإداري للمؤسسة من محاسبين وماليين وقانونيين ومن أقسام الإعلانات والدعاية والتسويق وعمال كُثر مختارين من المطابع مع مهندسيهم وخبرائهم، كان هذا الحشد الذي يزداد ازدحاما بدخول كثيرين ممن لم توجه لهم الدعوة هذا العام وهم يهمهمون ويهتفون كما سرادق الانتخابات في حب فهيم السعداوي يطلبون مشاركته في الاحتفال؛ فيسمح لهم بابتسامة من خلال الميكرفون تتصدر شاشات العرض التليفزيوني التي تتوزع في أسقف وأركان القاعة فيدخلون جارين معهم صخب ومزيد من التابعين وعشرات من الهمهات:

- كل سنة وانت طيب يا ريس.

كان هذا هو يوم احتفال المؤسسة بعيد ميلاد رئيسها فهيم السعداوي، تلك المناسبة التي تحولت للعيد الوطني للمؤسسة

من عشر سنوات، حين تمكن فهيم من تثبيت قواعد عرشه، ونجح في إخصاء أو اغتصاب أو تجنيد أو شراء كل من كان يبدي معارضة طفيفة له، ثم كل من كان يظهر معارضة للنظام والحكم، باهرا كان نجاحه إلى حد إشادة رئيس الجمهورية في لقائه السنوي بالصحفيين والمذيعات بقدراته فقال أمام عدد كان كفيلاً بتوصيل الجملة عبر جميع أسلاك هواتف العالم:

- برافو عليك يا فهيم انت نظفت المؤسسة بتاعتك وبقيت أقرأ جورنالاك.

في اليوم التالي ذهب فهيم ليسجل الشكر بنفسه ويوقع في سجل التشريفات في قصر عابدين ومصر كلها تعرف أن الرئيس لا يعيش في قصر عابدين، بل ربما يراه فقط في الصور لكن هذا الطقس الملكي الذي يعطي خنوعا عبوديا لائقًا لإمبراطور أعجب الرئيس لما بلغه من مدير المراسم الذي كانت صورته مساحة ثابتة بأخباره وعضويته البرلمانية في الصفحة الأولى من جرائد المؤسسة، قرر الرئيس أن يقبل بنفسه دعوة فهيم السعداوي لافتتاح المطبعة الجديدة للمؤسسة، حتى عندما قدمت له الرقابة الإدارية ملفًا يثبت أن

فهيم السعداوي بنفسه تقاضى عمولة عشرين مليون جنيه غير شرعية من شركة هذه المطبعة التي لم تكن الأحدث والأفضل، عقب الرئيس كما بلغ لفهيم نصا:

- سيبوه يحسن دخلُه، وقولوا له بس ياخد بالُه.

ولا بني آدم فهم ماذا تعني يأخذ باله، أن يسرق ولكن يأخذ بالُه أنهم يعرفون أنه يسرق، مثلاً، أم يأخذ بالُه أثناء السرقة، أم قبلها، ولأن قريحة أحد لم تصل لفك طلاسم العبارة فقد صارت مثلاً في الحياة السياسية كلما عرف أحد سرقة عن أحد قال: بس يأخذ باله.

واقفًا بصدره الذي يتخذ عرضا واتساعا مع المنصب وسط حشد المؤسسة المحتفية به، وقد دخل الجرسونات مرتدين الزي الموحد الأنيق كما عمال الفنادق الفخيمة يدفعون تورتة ممتدة على طول أربعة أمتار وبعرض متر ونصف المتر، مرسوما عليها صورته بنظارته وسيجارهِ وفي الخلفية شكل الصفحة الأولى من الجريدة، في السنوات الأولى كانت الصورة للصفحة الأولى فقط دون صورته الشخصية ثم تطورت إلى صورته مع مؤسسي الجريدة، ثم صارت صورته يصافح الرئيس ثم استقرت أخيرا على

صورته وحده لا أحد غيره ولا أحد معه، كل قسم من المؤسسة وكل مطبوعة من مطبوعاتها يتلقى مسئولها مكالمة من نائب رئيس التحرير يخبره أن قسمه أو إدارته أو مطبوعته سوف تشارك هذا العام في احتفال السيد رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير بمبلغ كذا ألف من الجنيهات حسب التقسيمة التي وضعها هو ومدير والحسابات لتكلفة الاحتفال بحيث يخصم هذا المبلغ من ميزانية أو مخصصات المتبرعين السنوية كهدية لاحتفال عيد ميلاد الرئيس، رئيسهم، أما الجانب الذي كان يجعل الجميع متلهفًا على هذه المناسبة هي الهدايا التي كانت تدخل في تامبولة للسحب على الجوائز، حيث يقف فهيم السعداوي وهو مبتسم وسعيد وطفولي الدهشة، وهو يمد يده في الدائرة الزجاجية التي تشمل قطعا من الأوراق الصغيرة المكتوب فيها أسماء كل المشاركين في الاحتفال، ويسحب كما يفعل نجوم فوازير شهر رمضان ورقةً، ويقرأ الاسم المكتوب فيها فينفجر صاحبه بصيحة الفرحة، وتدوي أصوات تصفيق سواء خبطًا للحظ وندما على الفرصة أو تحية ومشاركة بالتصفيق كإعلان فرح بفهيم لعله يرى، كانت الهدايا كثيرة حتى

الإغداق سيارات توضع أمام المؤسسة ملفوفة في عناقيد من الزهور، وبورق لف الهدايا الذي ينتهي بفوينكة فوق زجاج السيارة الأمامي، كذلك رحلات عمرة تشمل مرافقًا، أجهزة ثلاجات أو غسالات وتليفزيونات وأضيف لها مع الزمن أجهزة كومبيوتر، أما مع دخول الهاتف المحمول فكانت توزع مائة جهاز هاتف محمول أثناء الاحتفال بأشد الطرق مرحا في المناسبة كلها، حيث تُنزع أجهزة الهواتف من علبها الملونة، وتوضع كلها صفوفًا فوق مائدة أمام فهيم السعداوي الذي يقف ويمسك واحدا من الأجهزة وهو يضحك مستثارا، والمئات من الصحفيين والعاملين يقولون له متوسلين ومستعطفين:

- أنا يا ريس أنا يا ريس....

فيقذف بواحد تجاه شخص أو ركن فيهرع الجميع نحو الجهاز فيلقي آخر نحو ركن ثاني فيصرع الجميع نحو الركن الجديد فيجد فهيم فرصة للإبداع؛ فيلقي الجهاز إلى أعلى في الهواء؛ فيسقط على حجر جماعة تتنازعه بينهم، مع رنات ضحك وشهقات فرح وحمم كلمات وصخب معارك

بالأكتاف، ونواب فهيم يتضاحكون ويشيرون له إلى مكان أو ركن أو شخص:

- شوف يا ريس شوف بيعمل إيه ا يجازيه.

ويتحدث مذيع الحفل أن كرتونات وعلب كل جهاز موجودة في الإدارة لتسليمها لصاحب الحظ بعد الحفلة، كان مقدم الاحتفال في كل عام مذيعا تليفزيونيا حسب نجاح كل مذيع جماهيريا في برنامج رمضاني، يتم الاستعانة به مقدما لهؤلاء المسئولين صحفيين أو عمالاً أو إداريين، الذين يفردون أوراقًا ويخطبون كثيرا طويلاً في مدح وتهنئة فهيم السعداوي، بينما يفضل بعضهم الحديث بالأرقام عن حجم إنجازات المؤسسة في عهده كل عام، أو يبدأ بعضهم الحديث بأن ليس له في الخطابة (ولا الكتابة) ويلقي بديلاً عن الخطبة قصيدة شعرية في حب فهيم السعداوي الذي تدمع عيونه بالضرورة تأثرا، ويهمهم أنه لم يكن يعرف أن هناك شعراء كبارا عنده في المؤسسة، وفي نهاية الاحتفال الذي يدوم ثلاث ساعات، ولم يتأخر أو يتأجل طيلة هذه السنوات إلا مرة واحدة لمرافقة فهيم الرئيس نفسه في رحلة سياسية تاريخية خارجية، يقف فهيم والسيجار في فمه وجلال يتابع

حركة سيجار والده بين أصابعه أو شفتيه، متذكرا علبة البلمونت التي كانت يدخنها في طفولة جلال، ثم انتقلت إلى كليوباترا سوبر من تلك التي تمزق فتحتها من أعلى ثم مر زمن حتى بدأ والده يدخن مارلبورو وواضعا مبسما أسود للسيجارة في فمه وتغير المبسم المعدني إلى العاج بهدية من الهند ثم إلى المبسم المصنوع من الذهب الأبيض بهدية من رجل أعمال، ثم تجمعت لديه أعداد من هدايا المباسم أصابته بالضجر؛ فتطور بعد رحلة لأوروبا مع الرئيس وعاد مدخنًا للبايب الذي صار مرتعا للهدايا، فأصبح والده يملك ما يقارب محتويات أشهر محلات للبايب بكل أنواعه وطرزه وموديلات واختلاف مصانعه ودوله المنتجة ونوعيات خشبه ومعدنه واختلافات وتميزات التوباكو وشتي معدات وكماليات البايب، لكن عصبيته وإيقاعه السريع لم يكن يسمح له بروقان وهدأة بال استخدام البايب، رغم تعيينه لسكرتير خاص مهتمه حشو وتبديل وتغيير وصيانة وإعداد البايب؛ فانتقل مع فخامة اسمه وضخامة مكانته إلى السيجار الكوبي الهافاني الذي تزود بدورة تدريبية من موظف كوبي في سفارتهم بالقاهرة تقاضي ثلاثة آلاف دولار على ستة أيام مصاحبا لوالده في

الساحل الشمالي، لتعليمه فنون السيجار وأنواعه وطريقة تدخينه ودرجاته وطبقاته وطقوسه ولوازمه وقواطعه ومقصاته وأسماء طرزه المنتشرة وزوده بطريقة تصنيعه وأهم كتالوجات مصانعه الكوبية وأشهر المجلات الأمريكية المتخصصة في السيجار فقط، وضع فهيم السعداوي السيجار على مطفئة موضوعة على يد أحدهم وألقى قراره بالعفو عن كل الجزاءات والخصومات لأي زميل في كل أقسام وإدارات ومطبوعات المؤسسة بمناسبة عيد ميلاده، مع التصفيق المدوي والدعوات الحارة تلهج إلى ا عز وجل بمد عمر الرئيس ومنصبه، يتناول هو السيجار بأصابع واثقة، ويركنه في جانب فمه في وضعية محترفة، وينشر ابتسامته مع دخانه.

جلس جلال أول ما جلس مع اجتماعات مجلس التحرير وهو الأمر الذي لا يصل إليه في هذه المؤسسة إلا الشيوخ المسنون، وكانت الجملة التي تتراقص على شفاه المجتمعين هي:

- فعلاً نحن في حاجة لجيل الشباب يتسلم منا الراية.

وكان جلال هو جيل الشباب الوحيد، حتى أن فهيم السعداوي هو الذي ترجى مرؤوسيه الكبار أن يكفوا عن نداء جلال مقدما بلقب أستاذ، كان جلال مستمتعا للغاية بفرش للجميع للسجاجيد أمامه كلما تحرك أو تكلم أو تبسم، لم يفهم جلال أنه نفاقُ حفي وتدافع انتهازي، بل وصله باعتباره ولاء طبيعيا وواجبا، لم يكن ينتظر غير ذلك ولم يكن يقبل بأقل منه، شرطه وشرط أمه عطيات السعداوي كان هذا.

الواد يتعامل على أنه ابن الرئيس، وبلاش كلام فاضي وفهم كل من في المؤسسة أنه لا ضرورة لمثل هذا الكلام الفاضي فعلاً من المساواة والعدالة في المعاملة واعتبارات الكفاءة وما إلى ذلك، كل شيء كان لامع الوضوح حين نشر جلال موضوعه الأول، وهو حوار مع وزير التعليم ذلك الذي لا يلتقيه شبان صحافة ومبتدءو المهنة ولكن للمهاتفة بين فهيم السعداوي والوزير صيغ الطلب وطعم الأمر، فها هو الوزير يستقبل بحفاوة وتهليل، ووا أنت كبرت أهه يا جلال فين لما كنت باشوفك مع بابا في الساحل الشمالي، فهيم السعداوي كان نابا في فك الدولة، مر وناشف، تستخدم جريدته ومقالاته اليومية في حملات التشهير والطعن في

الخصوم، كذلك في تمجيد ونفخ المقربين، تدور هذه الأفكار في ذهن الوزير فتتسع ابتسامته راحةً أن أرسل له فهيم ابنه لحوار صحفي معناه رسالة طمأنة؛ فرضا فهيم من رضا الرئيس والقيادة السياسية، وعندما يعود جلال بالحوار مسجلاً على شريط كاسيت يتناوله منه رئيس القسم فيأمر شابا بتفريغه ويعود الحوار مكتوبا؛ فيضع جلال لمساته التي يحييها ويمجدها مديره، ثم ينشر الحوار على صفحة كاملة بصورته مع الوزير وموقعة باسمه بحرف كبير وضخم مقارب ضخامة اسم والده، حتى أن ونيس الشرقاوي تمازح مرة أثناء سكرة وقال:

- المفروض يكتبوا على الترويسة رئيس التحرير فهيم السعداوي ووالده.

الغريب أن جلال شعر بالضجر ولم يألف المهنة قال لوالده ذات مساء:

- أنا اكتشفت يا بابا إن كل الصحفيين إما من الفلاحين وولاد المدرسين والموظفين اللي جايين من الأرياف وسابوا أهاليهم هناك وقعدوا في شقق مفروشة، أو عند أقاربهم في مصر لغاية ما خدوا شقة من المحافظة بخبرين تلاتة

وواسطة، إنهم كانوا أبناء غلابة وفقراء الصحافة عندهم طبقة مش مهنة.

ضحك فهيم وتدخلت أمه عطيات وهي تتحدث بلسان الزوجة وبنت العم:

- طيب ما أبوك كده تقريبا.

فنفر ونفى جلال تماما:

- لا احنا حاجة تانية، ثم أنا دلوقت ابن فهيم السعداوي أشتغل مع عيال بيئة ليه؟

لم يجد جلال في شلته مهتما واحدا بالصحافة أو بما يجري ويحدث حوله، حتى وائل الذي بدأ أبوه يناديه تاتا تاتا في مشيه نحو السياسة لم يكن مشغولاً بالأخبار وما ينشر وما يقال، كانت كل مصالحهم ونفوذهم تدور حول السياسة لكنهم تركوا هذه التفاصيل لآبائهم وانغمسوا هم في شبابهم الزاهي، حتى عندما أحس جلال أنه يحب داليا فهمي وأخبرها لم تستسغ حكاية أنه صحفي، بل قالت له ببساطة إرجاع شعرها للوراء:

- يعني لو ُأنكل فهيم ساب المؤسسة ح تمسكها انت..؟

كان سؤالاً غاية في الوجاهة، لم يفكر فيه لأنه لم يكن يفكر أن والده يوما سيترك مقعده، ثم هل يمكن أن يرث هذه الجريدة وهي ملك الدولة، سأل السؤال لنفسه ولتامر فشخر تامر بإخلاص سكندري وأضاف:

- يا سيدي، وليه لأ، هيه جت عليك ولا على أبوك!

وقرر جلال مع داليا أن يترك الصحافة فورا، كانت داليا خريجة الجامعة الأمريكية وابنة صغرى لطبيب شهير راحل وتعيش مع شقيقها أستاذ الهندسة وشريك وزير الإسكان في مركزه الاستشاري الذي يديره شقيق داليا في الواجهة لمنع الملاسنات عن الوزير، بينما كانت أمها تعيش مع شقيقها المهاجر في سان فرانسيسكو بالولايات المتحدة الأمريكية معظم شهور السنة، كانت داليا تمشي وفي فمها ملعقة الذهب التي ولدت بها لم تدعها أو تتظاهر باختفائها، مع رقتها المدهشة وهدوئها السامي فهي مدربة يوجا محترفة تركت الكومبيوتر وتفرغت لليوجا والنيرفانا، وتعترف بأنها تفرغت لتدريب اليوجا لأنها كانت تكسب منها أكثر، رغم يوجتها إلا أنها كانت ثورة من التفكير البراجماتي النفعي الذي سمح لها بأن تتزوج جلال، رغم أن مشاعرها ليست متأججة نحوه

ورغم يقينها أنه لا يلمس قلبها، ولكنه يتسلق عليه وعلى خصرها وصدرها للصعود لمنطقة ما في طبقتها لعلها تشفيه من إحساسه الدفين الذي نشلته من كلمات وألفاظ عابرة في حواراته بعاره من أصول عائلته، كان فرحا أسطوريا كما نشرت المجلات والصحف، ومع أيام الزواج الأولى اتفقا على احترام كل منهما لخصوصية الآخر ولكل متطلبات نظرة المجتمع منهما ولهما، فكان زواجا مستقرا وهادئًا حتى البرود، وحاول جلال أن يخفي نزواته لكنها كاشفته وصارحته أنها تعرف ولا تمانع، ولكنها تعده أنها لن تخونه أبدا وإذا أحست أنها تريد ذلك فسوف تنفصل عنه، بعد عامين من الزواج أنجبت داليا طفلها في أمريكا حتى يحصل على الجنسية الأمريكية لكنه ولد بمرض نادر مات قبل أن يكمل اليوم العاشر وفي اليوم الحادي عشر قررت داليا أنها لن تعود أبدا إلى مصر، وفشل جلال في إقناعها بالعودة وفشلت هي في إقناعه بالطلاق.. فظل متزوجا عازبا في القطامية هايت، وصارت هي متزوجة عازبة في بيركلي، ولم يتذمر كلاهما، وكان جلال يومها أشهر رجل أعمال في مجال توريد ماكينات الطباعة وأحبار وورق وأفلام طباعة

الصحف، عندما أقلته من مطار سان فرانسيسكو لمنزلها في بيركلي وهم يعبرون الكوبري الشاهق فوق المحيط سألته داليا:

- لماذا ترفض فيرونيكا حبك؟

بهت واستفهم:

فيرونيكا مين دي كمان....؟!

اندفع كريم يجري متوترا ومدبدبا نحو قلب الميدان وسط دهشة يزداد نبضها إلى ذعر يسحق عظمهم، كان كريم يصرخ ويعوي بجسارة المجانين فصار الرعب يطحن أعصابهم، كانوا يتابعون وقد فقدوا أي قدرة على الفهم، وعجن الفزع عقولهم فكانوا يرون أنفسهم دخانًا من الملامح ويشاهدون الأماكن والأحداث والوقائع ضبابا ملتبسا كأنهم يتابعون شيئًا من وراء ستارة شفيفة ومهزوزة، ندت من جلال ندهة:

- كريم، رايح فين...؟

كان كريم يلف حول النافورة الموضوعة في منتصف الميدان حولها سور صغير على شكل إغريقي والنافورة نفسها على هيئة عروس بحر متغنجة الانحناءات عارية، كان

صحن النافورة مملوءا بماء المطر، بينما صنابير النافورة لا تعمل، معطوبة أو معطلة، يلف كريم بحركات عصبية متوترة، يجري برهة ويتوقف فجأة، يخفض رأسه ثم يرفع عيونه، يتلفت نحو يمينه ويساره، خلفه وأمامه، يرمق أسطح الفيلات والقصور، بنايات المحلات والمطاعم، خلف اللوحات الإعلانية المعلقة والمطفأة، بين أعمدة أسوار أسطح وفي نوافذ وبلكونات مطلة على الميدان، حركاته المباغتة وتحركاته المترددة المتوجسة جعلت وائل يسأل غادة:

- هل نسي كريم أن ضلوعه مكسرة تقريبا..؟

عاد كريم سعيا وارتمى ركضا نحوهم وهو يلهث والعرق يسيل من رأسه ووجهه وعنقه كنزيف الدم المتفجر، خفض رأسه على الأرض حتى لامست أنفه الأسفلت وقد جثا أمامه تامر وهو يهز كتف كريم كأنما يوقظه من كابوس:

- مالك يا كريم؟

صرخت عزة وهي تضم سارة إلى صدرها مستغيثة بجسد لا يرتعش:

- بسرعة لازم نهرب من هذا المكان حالاً.

- أشار كريم بكفه إلى سطح فيلا مطل وقريب وهو يتمتم:

- لن نقدر عليهم.

خطف جلال نظرة وراءه أدرك أن شيئًا مازال هناك يلمع ويتحرك، مد نظره على وائل الذي تسمر وهو يشير إلى حيث ينظر:

- أشباح فوق السطح.

ارتعدت أجساد.. وارتعشت أكف وهي ترقب رجالاً طويلي العيدان، بملابسهم السوداء الفضفاضة والأوشحة التي تهتز وتتمايل مع نسمات الهواء، وتلك العمائم الخضراء الملفوفة بإحكام وإتقان، ونظراتهم التي تشع برقًا وتبرق إشعاعا، يمر أحدهم فوق سطح فتصرخ عزة:

- إنه يطير.

تتابع العيون المذعورة والأعضاء المخلوعة صعود شبح آخر من سطح مقابل، ثم مرور ثلاثة في صف منتظم ورشيق فوق سور قصر، يتلفتون لهم في لحظة واحدة يتثبتون في مكانهم برهة.. هم يمضون كخطف النظر، كلمح البصر، تشعر غادة من هذا البعد بكل هذا القرب لعيونهم،

واسعة تكبر جدا وتقترب نحوهم تُعبئ الفضاء ببياض محجرها، وهذا النني الأسود الغطيس يدور مثل لفات مروحة في هذه العيون الكبيرة، ثم تتعالى صيحات العجز ونشيج البكاء حين تتحول ألوان هذا النني الأسود إلى حمرة دموية تشع شظَى نار لهيبة ترتمي على صدورهم مثل شرر ولاعة زاد بنزينها، أو طرقعات فحم تحت لحم، تحرق شيئًا من جلودهم مع أنات البكاء الطفولية وصرخات الاستسلام الكسيرة، يقفز شبح من سور إلى سطح ومن سطح إلى سحابة محلقة، ومثل لاعبي السيرك التايلاندي المذهِلين يرمون بأنفسهم في الهواء بلفة وثانية ثم يفردون أذرعهم فيلتقطهم ذراع شبح طائر آخر فترسلهم اليد إلى سطح بينما تحطم أقدام الشبح المنقذ على سور، كانت ملابسهم تشع أنوارا وكانت الحمرة اللونية كأنها شهب أو شظايا نار تتطقطق وتتكتك في الهواء حتى تلامسهم كأنها سهام مرسلة، نهض كريم كأنما ردت فيه الروح، وجرى مرة ثانية نحو قلب الميدان، ثم يتساند بظهره على سور النافورة، يحمي رأسه بالتمثال ويصرخ يستحث جلال ووائل على الحركة:

- جلال، وائل غطوا ظهري...!

- لم يفهم أيهما ما الأمر وما المقصود، لكن غادة زعقت بعزم ما فيها وقد تطايرت كلماتها من الحنق والفزع:

- لازم نهرب حالاً..

دفع الضجر وائل إلى أن يمسكها من كتفيها المرتعشتين بعنف وعدوانية ألجمتهم جميعا:

- نهرب إزاي، حد يقدر يهرب من العفاريت؟

تركهم تامر وهو ينطلق نحو كريم الذي نام على الأرض وزحف ملوثًا بطين الشارع وماء الأسفلت وآثار الحبر وتمزقات اللبس وهو يصرخ ملوحا ومشيرا بين عفاريت الأسطح الطائرة وبين وقفة الشلة المبهوتة المرتجفة:

- استخبوا، ح يضربوا نار.....

ارتبكوا وترنح تامر من الحيرة والتردد بين تصديق تحذير كريم الصارخ فالانكفاء أرضا كما فعلت غادة وعزة فورا، وبين الوقفة والدهشة المسمرة كما فعلت سارة في ثباتها الثلجي، بينما رأى جلال ووائل بعد تردد ينحنيان وهما يشهدان أخيلة تمضي على الأسطح، وبرقًا يظهر من النوافذ ولمعان عيون حمراء مغلية تدور وتلف محمومة في المآقي الكبيرة البعيدة، فجأة ضج الميدان بأزيز ودوي صفافير حادة

وقصيرة، كانت أقدام كريم تضرب في الأرض كمن مسه صرع وهو ينادي:

- حاسبوا الرصاص.

ثم في نصف وقفة مد يده بشيء جامد وصاب وهو يصرخ:

- إحموا ظهري يا كلاب....

ثم كأنه يرد طلقات الرصاص بمسدس في يده، صوت حنجرة كريم مخنوق ومحموم، يزوم ويدمدم، وتامر على الأرض أخيرا، رمى نفسه على قطعة رخام أمام رصيف؛ فإذا جلال بجواره يحدقان في شرر ونار وقذائف لهب تمرق فوقهم تكاد تلامس ظهورهم المشفوطة رعبا، وتلاطم صوت الرصاص مع الصراخ مع هبوب ريحٍ صرصرٍ عاتية قذفت أوراقًا وعلبا كرتونية وقطع خشب وعبوات عصائر وكسرات رخام وزجاجات مياه وصفائح بيرة تصطك بأجسادهم، تصدم وجوههم، وكريم يقف قبالة النافورة تضربه كل هذه الكائنات وهو يمد ذراعه نحو هذه الأجساد التي تطير جماعات كأنها أسراب جراد هائل وأسود ومهاجم مقتحم، سمعوا جميعا صوت كريم متأوها يذبل صراخه

ويهوي مع تفجر دم من صدره وذراعيه وساقيه وهو يصوت كأنما طفل يشكو لأمه وهو يخبط كفيه على فخذيه ويدبدب في الأرض:

- دم، دم، قتلوني، فين الكلاشينكوف، خطفوه مني...

هبط صمت هائل على المكان وانسحب الهواء العاصف، هبوا بعد جمود رقود من نومتهم الخائفة، اندفعوا ناحية كريم، كان تامر أول من اقترب، ثم هتف وقد اندست نبرة سخرية في صوته وهو يكتشف أن ما يسيل من جسد كريم لم يكن دما، كانت هي مياه النافورة تتفجر من كل ثقب وتنهال عليهم قطرات ملونة بحمرة دموية، فقط أدركوا ساعتها أن النافورة قد اشتغلت وأن الأسطح صارت خالية من برق عيون ومن مروق أجساد شبحية، كان كريم يهمهم:

- أين الكلاشينكوف؟

وحين كان همس غادة واضحا في هذا الصمت:

- أين سارة....؟

كانت عزة وقد أحست أنفاس سارة دنت من أنفها البارد قد قالت:

- ما هذا الصوت؟

بحثوا عما تقصده لكنها اتجهت ناحية جلال واقتربت من صدره وهي تصرخ مولولة:

- صوت فظيع جواك يا جلال........!

ثم أخذت تضرب بكل ما فيها من قوة على صدر جلال وهي تصرخ:

- صوت العفاريت طالع من هنا، العفاريت دخلوا في عروق جلال..

تجمد جلال حين رآهم يجرون بعيدا عنه ثم يعودون نحوه لاهثين.

وقف كريم يتأمل والده وهو يحتضن جسد هذا الرجل الأسود الإفريقي الذي انكمش جلده من عبور الأيام على ثناياه وضاقت عيناه فأطبقت مرور الزمن عليها، جلس معه في هذه الحديقة التي مشت فوقها أقدام الماضي وتكسرت عيدان أشجارها وجفت، وضمرت خضرة الأرض وتآكل، هذه الفيلا التي خصصت لهذا العجوز الإفريقي شارل بوكاري باعتباره لاجئًا سياسيا لمصر لم تكن مقره الوحيد في هذا الوطن؛ فقد كان أبوه محمود داود حريصا مع صعوداته المتتالية وتوسعاته المتنفذة أن يشرف على انتقال بوكاري

معه في بيوتاته الكثيرة وفي مصايفه ومشاتيه حتى ظن كريم في مطالع صباه أن شارل بوكاري هو جده رغم زنجيته ومسيحيته، خاصة مع حنو والده وهو الذي لم يلتقط شفرة حانية من عينيه لأي بني آدم يتعامل معه أبدا، ثم سكوته الحليم وهو ضيق الصدر نافذ الصبر على كلمات شارل المبعثرة المتوترة والمتعالية الممزوجة بين الفرنسية ولغة القبيلة، لم يفهم كريم رغم لغته الفرنسية الأصيلة تلك الحوارات ولو لمحا أو لمما، كانت الألفاظ قاسية الحروف وخشنة النطق وكان عنف والده في التأنيب والتأديب أحيانًا لا يقل عن سخائه في الاهتمام والرعاية من المؤكد أنه سأل والده كثيرا عن شارل بوكاري الذي كان يكبر في السن وينحل في الجسد مع كبر كريم في سنه، وكانت إجابة والده مقتضبة ثم مصحوبة إن ألح وطارد برشوة صمت من سيارة جديدة يفكر في شرائها، من رحلة أوروبية يرتب لها، من موتوسيكل سباق أو يخت بحر، أما الإجابة المرصوصة المحفوظة التي كانت تثير الأسئلة الجديدة لكريم أكثر مما تجيب عن الأسئلة القديمة القديمة فهي:

هذا لاجئ سياسي من إفريقيا أنقذني من القتل أثناء الحرب الأهلية في بلاده، وكنت وقتها سكرتيرا في سفارة مصر هناك.

كان محمود داود خريج كلية الاقتصاد والعلوم السياسية صغيرا في السن وكالحجم والطبقة حين قدم أوراقه للالتحاق بوزارة الخارجية، كان تفوقه في كل امتحانات القبول هو الرد الدفاعي المتفاني على هجمات التفاوت الطبقي الذي صادفه في الكلية وفي التقديم للخارجية، ليلة إعلان النتيجة أقسم بكل إيمانات المسلمين أنه لن يترك نفسه لمثل هذا الرعب والخوف من جذوره وأصوله المتواضعة مرة أخرى، كان قلقًا مؤرقًا ومدغدغًا أعصابه كيف لابن الحاج عبد القادر داود صاحب محل بقالة النصر بحارة ضيقة في مدينة ملقاة في جوف الدلتا أن يتم قبوله في الخارجية، وهو الذي قضى سنوات الجامعة في المدينة الجامعية وشهور الصيف والعمل المتقطع المتذلل في دوريات ومجلات نَتِنَةْ، صباح النتيجة أدرك أنه قد نجح، حتى أول بعثة له بعد عامين ذاق فقرا على فقر حتى أن شقيقة الذي يعمل في ليبيا تكفل بمصاريفه وهو دبلوماسي في الخارجية أكثر مما فعل أيام

دراسته، في نهاية يوم عمل في ديوان الوزارة جاءه دبلوماسي أكبر سنًا وأنشف عودا وأغلظ قلبا، اصطحبه معه لمدير مكتب رئيس دائرة في الوزارة وقال له في لغة سقيمه تخرج من طبيب تشريح أن شقيقه من بين المصريين الذين جاءوا من الحدود الليبية قتلى، طردوه من هناك فمكث أياما في السلوم، ثم حاول أن يتسلل عبر أسلاك الحدود ويعود إلى ليبيا، كانوا هؤلاء هم السلكوية كما أطلقوا عليهم في أوائل السبعينيات من القرن العشرين الذين يدخلون ليبيا بطرق التهريب عبر عصابات منظمة تتخلى بين الوقت والآخر عن عدد من المتعاملين معها لقمةً لإسكات حرس الحدود في البلدين، وفي بعض الأحيان كانت مقاومة المتسلل السلكاوي تعني مطاردته حتى القتل، وكان شقيقه من هؤلاء الذي يصيبهم سوء الطالع في مقتل، أضاف الدبلوماسي ببرود:

- نحن نفضل التغاضي عن كون شقيقك مهاجر غير شرعي لليبيا حفاظًا على مكانك في الوزارة وفي المقابل لا نتوقع إلا صمتك.

نفس الرجل قال له:

- إمسك نفسك، وشد حيلك، وخليك راجل، والبركة فيك، وهذا حال الدنيا، ولا تدري نفس بأي أرض تموت.

كل هذا لم يسمعه منه في الوزارة سمعه في سرادق العزاء حين كان محمود يقف بجوار والده المهزوم، في البيت قال له والده أنه بعد موت أخيه سيعود لفتح الدكان الذي أغلقه فطلب منه محمود أن يحذف كلمة أولاده من اسم المحل، بقالة النصر لصاحبها الحاج عبد القادر داود وأولاده، حين وصل محمود داود للعاصمة الإفريقية خلع قلبه القديم واشترى قلبا جديدا من أقرب غابة للعاصمة، تحديدا من غرفة البلياردو في قصر نعوم سركيس اللبناني المقيم في إفريقيا منذ سنوات طويلة ويحمل نصف جوازات سفر دول غرب ووسط إفريقيا رسمية وحقيقة ودبلوماسية كذلك، التقى به محمود في حفل السفارة بثورة ٢٣ يولية، في حديقة السفارة حيث انتثرت أجساد إفريقية رسمية وموائد الخمور والمشروبات امتدت، والأكلات الخفيفة والدسمة، وألوان الأزياء المتباهية ببهجتها، وضحكات باردة على خشونتها وكلمات تشكل أنصاف

جمل وأرباع معاني، كانت كذلك مظاهر التسلح الشخصي واضحة فقد وصل والبلاد على حافة حرب أهلية تسدها أكف الدبلوماسية الصغيرة الناعمة، وصفقات مالية وسياسية سرعان ما يقذفها تيار الماء والدم العاصف القادم، قرأ نعوم عيونه بسحره الإفريقي المستعار فدعاه إلى قصره، وكاد رذاذ زخات الرصاص الذي نخر البلاد سبع سنوات تالية يبدأ من نافذة هذه الغرفة، قال له نعوم:

المتمردون أوشكوا على الاستيلاء على الشمال، والحكومة هنا كما رأيت في الأسابيع التي قضيتها مفكوكة بالفساد والرشوة ومسنودة على الأمريكان ولن تسقط بسهولة فقبيلة الرئيس ووزير الدفاع لن يتركوا متمردين من قبائل حاقدة منافسة أي فرصة للوصول إلى العاصمة، تقديرات المخابرات الفرنسية أن هذه الحرب ستندلع بين لحظات وساعات وضحاياها في الحد الأدنى بين ربع إلى نصف مليون بني آدم.

روع محمود ولم يكن قد وصل للخامسة والعشرين من عمره، ولم يجند في جيش لظروف نظره الضعيف فلم ير بندقية إلا في السينما، ولم يعرف أن للحرب ضحايا بل

شهداء، كانت عيناه تجولان خارج زجاج الجدار الدائري المحيط بالغرفة يطل على مشهد جبلي مكلل بالخضرة التي لم ير مثلها في مصر، التفت حائرا وقد مال عليه خادم في ملابس كاملة الأناقة يضع كأسا من جوز الهند أمامه، وقال لنعوم:

- تفتكر هذا الخادم سينضم لمن في الحرب الأهلية القادمة؟

ضحك نعوم في قهقهة دوي رصاص:

- لأهله، ينضم لقبيلته وسيقتل من يريد شيخ القبيلة منه أن يقتله.

ثم بعد ضربة كرة ناجحة:

- لكن اطمئن، إنه من دولة مجاورة لم تشتعل فيها الحرب بعد، مسألة وقت.

ثم في عربية فصيحة أضاف نعوم:

- المتمردون مسنودون من الاتحاد السوفيتي، يمدهم بالسلاح، لكنه سلاح لن يصمد طويلاً، ثم أن الأمريكان يفتحون نفقًا للحوار مع المتمردين؛ فهم يخشون من نجاحهم

وانتصارهم في الحرب، من هنا يحاولون مد جسور معهم بالسلاح والمعلومات كذلك.

- هل أشعلت الحرب الباردة الصراع هنا؟

رفع نعوم عصا البلياردو وهو يرقص الدبكة على نحو تجريدي وتهكمي:

- إنس دروسك في كلية السياسة والاقتصاد، أنت هنا في قلب إفريقيا حيث الجمال والفقر، حيث الغنى والدم، الخوف والسيف، لا الأمريكان ولا الروس صنعوا الحرب بل إنهم يحاولون الاستفادة منها، الذي يصنع الحروب هنا هو الماس..؟

استغرب محمود لكن لم يعقب، ترك مساحة من التأمل ومسافة من الصمت قطعها نعوم سريعا:

- هل تسمع عن شركة دي نبيرز، لقد أنشأها اللورد سيسل دودس ومقرها في جوهانسبرج وتمتلك حوالي تسعين في المائة من تجارة الماس في العالم.

- وما دخلها بالموضوع؟

- هي الموضوع نفسه، المتمردون قبائل تعيش في مناطق مناجم الماس، الثروة التي تمول النفوذ والسلطة، من يملك المناجم يملك البلد، لم يكن هناك مبرر لدى أحد من الفريقين لأن يملك شيئًا دون الآخر؛ فقررت الحكومة أن تسيطر على المناجم وتؤممها رغم أنها حكومة الأمريكان وقرر المتمردون احترام الملكية الخاصة رغم أنهم ممولون من الروس، وتشتعل الحرب من أجل أن تملك قبيلة كل شيء وتبيد القبيلة الأخرى بالمرة، شركة دي نبيرز ترى أنها الأولى بالحصول على الماس الذي وقعت عقدا مع الحكومة على البحث عنه واحتكاره مقابل مئتي مليون دولار، أرباح العقد قد تصل لأربعة أضعافه، بينما الحكومة تتحجج بالتوتر الذي قد يتحول حربا في مناطق المناجم، فالشركة تبحث عن صلات مع المتمردين للبحث والتنقيب والشراء ومستعدة للدفع والمتمردون يريدون سلاحا أمريكيا والشركة لا تمانع، الماس أمام السلاح.

يومها عرف محمود الدور الذي سيرفعها إلى النجوم الساكنة في سماوات مصر، ليعتبر نفسه في سفارة دي نييرز، كلفه نعوم بوضوح أن يكون ضمن الوفد المحايد الذي ستطلُب الأمم المتحدة تشكيله من سفارتي مصر ويوغسلافيا باعتبارهما من دول عدم الانحياز وموضع احترام من الحكومة الرسمية هناك ومن المتمردين كذلك، صغر سن محمود داود وحماسه جعله محرك الوفد وكبده، عند منجم الماس لأول مرة خفق قلبه كأنه لا يزال يملك عاطفة، حيث وقف في ضعف ووهن عمال في ملابس بالية وصحة رثة وأطفال غارت عيونهم وانتفخت بطونهم ينغمسون بسيقانهم وينغرسون بأقدامهم في الوحل والطين باحثين في خوف ممزوج بالكلال عن أحجار الماس وقد حاصرتهم أحذية عسكرية وكعوب بنادق في أيدي جنود المتمردين بصيحات ترهبهم وعيون تبرق بالغضب والنقمة عليهم والضرب والاعتداء والرفس والركل من أجل مزيد من النشاط، كان الأطفال يتساقطون في الوحل موتى، ويغشى على الرجال وقد تآكلت جلود أقدامهم وسيقانهم فبانت العظام الرفيعة العليلة، كان توحش الجنود مع قبائل صغيرة متحالفة معهم

أكثر ضراوة من تعذيبهم أفراد قبيلة رئيس الدولة التي ينتمي لها معظم وزراء الحكومة، وكان استعباد بني الملة والجلدة أكثر عنفًا وحيوانية من استعباد غرباء من بيض تجار العبيد وشقر رجال المحتلين، كان محمود بعد شهور هو الوفد وحده، ولم يكن أحد قد شغل رأسه بعمل هذا الوفد الذي لم يكن سوى شيئًا صوريا بلا معنى بعد جلستين من المفاوضات، لكن محمود وفي خيط رفيع حاد وقوي مع نعوم كانا أهم حلقات الوصل بين تجار الدم وتجار الماس، الاتفاق على تسليم كميات الماس المطلوبة التي يحملها معه محمود مأمونًا من المتمردين والحكومة، مقابل صفقات الأسلحة المطلوبة التي يحمل محمود قائمتها من زعماء التمرد للتسليم على حدود مناطق البلاد الشمالية التي يسيطر عليها المتمردون، حين وصل محمود داود الذي كان الجميع ينادونه في غابات وسط البلاد أو في مناجم شمالها بديفيد إلى قرية تيكالا مع صحبة من جنود المتمردين وجدوا كمينًا من جنود الحكومة في انتظارهم بالقرية، أُدرك مع طلقات الرصاص والصيحات المفزوعة وجنازير العربات المدرعة وسقوط جذوع وفروع الشجر، ونشوب الحرائق في أكواخ

وبيوت، ورصاص يشق بطون البقر وشظايا تخرق ظهور الحمير، وهطول كبيس للأمطار مع قفزات قرود فوق شجر يتهاوى، وصبية يسقطون من الجري، وفوضى هروب الأمهات في الوحل مقطوعي الرؤوس وممزقي الأذرع، وجثث تهوى أمامه مفخوتة العين مرتعشة البدن مخلوطة بين حمرة الدم ووحل الجلد الملوث، أدرك محمود أنه مجرم ليس فقط لأنه شريك فيما يجري بل لأنه أمسك بندقية من متمرد ملقى بجانبه ميتًا وأخذ يعدو بين أشجار وخلاف كوخ محطم وهو يطلق الرصاص مصروعا وممسوسا وهو يصرخ بعرقة وفزعه وكتلة متوحشة تقيأتها روحه:

- يا حيوانات.....

قبضة يده الرابضة على يد الحقيبة المكدسة بحبات وأحجار الماس الخام ارتخت وفُكت، وتذكر وجوه والده وشقيقه الميت على أسلاك ليبيا، وأمه التي رآها ضبابا في طفولته، والسفير الذي كان يشك في سلوكه، ورجل السفارة بالأمن السري الذي ابتسم له في صفار وقال له كلمتين فقط: نصيبي يوصلني، فكان يصله مقابل الصمت المتواطئ، وبينما كان علم مصر الذي ضبطه يرفرف ممزقًا يوم احتفال

العيد الوطني في عامه الثاني بالسفارة يملأ مساحة عقله فإذا بيد شارل بوكاري تضغط على رأسه، وتحني عنقه من الخلف ويخبط يده القابضة على البندقية؛ فيرميها محمود مرتجفًا ومستسلما، ويربت شارل على حقيبة الماس وهو يقول له بفرنسية ناعمة:

- إطمئن يا صاحب الحقيبة لن نقتلك..

بر شارل بوعده فقد كان قائد الكتيبة التي صنعت الكمين للمتمردين ويومها نشبت هذه العلاقة الممزوجة بحاجات المال والنفوذ وغرائز الجسد المهتاجة والسرية، تقاسم محمود وشارل حقيبة الماس وقال محمود لنعوم أن رجال الكمين استولوا عليها، وقال شارل لحكومته أن جنود المتمردين هربوا بها، بعدها وجدوا نعوم مذبوحا في قصره مع ثلاث من نسائه الجاريات وخادمه الأمين، وصار شارل حاكما للعاصمة في الحكومة الرسمية، وكان أول نصائحه لمحمود أن يعود سريعا لمصر، فانقلاب قادم في الطريق قد يجعله رئيسا أو قتيلاً، سافر محمود داود حصل على أجازة مرضية من الخارجية وقد تكدست ثلاثة ملايين جنيه في حسابات متفرقة ببنوك مصرية ودولية، وحينما رأى في مجلة يقلبها

في الطائرة صورة فدوى المنصوري زميلته في الجامعة، وهي على بدانتها ونظراتها الحزينة، وعزة نفسِها الدفاعية في حفل خيري تقف منزوية في خلفية الصورة، قرر أن يتزوجها فهي إلى جانب ذلك كله ابنة المحافظ النبية والمرضي عنه من السيد الرئيس، قدم رشوة سخية لحارس أمن البنك الذي تعمل فيه فقدم له تقريرا وافيا عنها، ذهب إلى محل البوب الذي تسهر فيه يوميا مع شلتها واصطدم بها وهو يحمل كوب عصيره فسقط على قميصه وسقطت هي في هوادة بعد فاصل من العزف المنفرد الذي اختلط فيه كذب صريح وتجاهل محترف لوحاشتها المسكوت عنها، وبروايات بأنصاف حقائق عن مرحلته الإفريقية، قدمته لوالدها بعد شهر، وقدم لها شَبَكة خاتم من الماس يقدر بمائة ألف جنيه والغريب أن أحدا لم يسأله من أين جاء بكلفته ثم بعد ذلك بشهور أخبر حماه أنه سيستقيل من الخارجية ويتجه للبيزنس، كان حماه السيد المحافظ لا يعرف خارج وظائف الحكومة مترا، موظف مخلص ومطيع ويتلقى التعليمات ويمشي حسب التوجيهات وكان كثيرا ما يتندر عليه محمود أمام فدوى ويقول لها:

- أبوكي، شعاره لا اجتهاد مع النص، ولا نص إلا توجيهات السيد الرئيس ورئيس الوزراء.

بطاقات تعريف محمود داود زاد فيها سطر مصاهرته للمحافظ فدخل بها على دائرة سيد سليمان، ذهب إليه في العزبة الكبيرة المترامية على حدود المحافظة التي ولد فيه ولم يدخلها منذ وفاة والده، علامات الإهمال وزوال العز كانت بادية في المماشي والممرات وهزال الأحصنة في اصطبل سيد سليمان الذي كان يوما أهم اصطبل في الشرق الأوسط، لقيه الرجل ملفوفًا في معطف اتسع على هزال الشيخوخة، دخان سيجار، ورائحة روث تاريخية، وندى شتوي ونظرات سيد سليمان متطلعة مستغربة، لفت المشهد الذي لون بياضه وسواده محمود قائلاً:

- أنا متفهم الأوضاع التي يمر بها الاصطبل، وأنا أعرف أنه يضم أعظم سلالات الخيل العربي، ولذلك أحب إنني أتعاون مع حضرتك في هذا الاستثمار المهم.

رمقه سيد سليمان من وراء احتراف سبعين عاما في السياسة والمال.

- تتعاون إزاي يعني؟

- اعتبرني بنكك.

- أستلف واقترض منك...؟

- لا.. قطعا، أشارك حضرتك بنسبة، وأنت بكل خبرتك وسمعتك وماضيك قادر على النجاح.

غمس سيد سليمان سيجارة في مطفأة وهو ينظر لقطرات مطر تستأذن أداء وظيفتها الشتوية:

- وهل تفهم في الخيول؟

- حضرتك لو بتربي عجول كنت جئت لك أيضا، أنا بادور على الخيال مش الخيل.

يفرد الخدم المظلات السوداء الواسعة فوق جلستهم وقاية من مطر متسارع، وقد لمعت نظرات إعجاب في عيني سيد سليمان بينما شعر محمود أن شبها يجمع خدم سليمان بخدم نعوم سركيس:

- ونسبتك كام؟

- حددها حضرتك، انت الخبير.

ثم تسلقت نبرة غرور سور كلامه وأكمل: مزرعة واصطبل على وشك الموت جوعا، رأسمال تفتت على

أبناء أخوة لا يرحمون ولا يفهمون، مجد يزول ونحن سننقذه ونستعيد المجد والنفوذ والعز..

في اقتضاب أجاب سيد سليمان:

- خمسون في المائة.

في حسم رد:

- ماشي.

مشى محمود داود يغسل أمواله التي شك الجميع أنها أموال حماه، وجد ابنه كريم الذي ولد ليكتب باسمه أسهم في شركات وحصص في مؤسسات، لكن قفزة الجمباز الرائعة لمحمود داود جاءت يوم تم تعيين حماه وزيرا، أدار مكتبه في الوزارة، وبعد ثلاثة شهور كان مدير مكتب رئيس الوزراء، ثقافتُه ولغتُه وأداؤه وأناقتُه جعلته يهزم ممانعة رئيس الوزراء بلمس الأكتاف، سيطر محمود على دهاليز وسراديب مجلس الوزراء كله، كان يعرف أن رئيسه مهزوز ومحدود الموهبة وأنه لن يكمل في مقعده كثيرا فحلق وحيدا حتى طاردت الصحافة ابنه كريم بلقب الطفل المعجزة، حيث قدمت صحيفة معارضة عرضا بنسب وأسهم مشاركة كريم داود ابن الثانية عشر في شركات ومؤسسات تجعله مليونيرا

صغيرا، تعالت الحملة وامتدت وتواصلت وبدا من الذين أداروها في الصحافة أنها مدبرة من مسئولين داخل النظام والحكومة، فلا يقدر أحد على المساس به سوى وهو محمي بغيره، وتلك الوثائق المنشورة تشير ليد قابضة في موقع نافذ يدير ويلعب، وعندما أشار أحدهم إلى أن الصحف لا تجد صورة واحدة لوجه محمود داود قرر فورا أن يتصرف، كان عدوا للصور موسوسا بها رافضا لها، كأنما يريد أن يتخفى ويطمس ملامح وجهه حتى أن أحدا لم يلحظ عملية التجميل التي أجراها لأنفه، وحرصه على إطلاق شاربه ولحيته رغم تحذيرات الجميع له أن يحتسب على التيار الديني؛ فكان يرفع كأسه أمام وجهه ويقول: الأجهزة عندها خبر بالكأس قبل اللحية، حتى أنه منع نشر صور زفافه وفرحه بعدما أعيته الحيلة في منع التقاطها أصلاً، كما لم يلتقط صورة مع ابنه كريم أبدا، كان كريم سعيدا بطفولة ترتع في الشهرة بين عالم نادي الجزيرة ومدرسته الفرنسية التابعة لسفارة فرنسا في القاهرة، وحفلات قصور العائلة وأصدقائها وحفاوة وتدليل جده، يوم خرج كريم من المدرسة فوجد سائق سيارته المرسيدي السوداء واقفًا مع اثنين من الرجال طويلي القامة

وعريضي الصدر، كأنهما خرجا من موقع كمال أجسام على الإنترنت، ولاحظ بعين لامبالية تعليق مسدساتهم تحت الأكتاف، نظر لسائقه الذي طمأنه بابتسامة فخورة:

- لا تقلق يا كريم بك، هؤلاء حرس من أجلك أصل بعد ما جدو بقى وزير بابا النهاردة الصبح مسك مدير مكتب رئيس الوزراء.

ثم ركب حارس بجوار السائق والتحق آخر بسيارة حراسة مصاحبة يقودها جندي حليق الشعر ريفي الملامح، تلاذذ كريم بالصحبة وكان كثيرا ما ينبه زملاءه غير المنتبهين ويلح على استعراض موكبه في الرائحة والقادمة وحين طلب من حارسه أن يعطيه مسدسه ليراه ويلعب به دقائق؛ فارتبك الحارس وتراجع وحاول أن يزوغ ويراوغ، بينما تسمر زميله كأنه برئ من اللعبة كلها، مد كريم يده بعنف في إبط الحارس، وشد المسدس الذي لم يخرج؛ فتعصب وتوتر كريم أكثر؛ ففكت أصابع الحارس زر الطوق الذي يغلق جراب المسدس؛ فأمسكه كريم بين يديه ووضعه بجوار جهاز الكومبيوتر وبدأ يلف بهم على مواقع المسدسات بكل الطرز والأشكال والأنواع والتطورات التكنولوجية، ووسط انبهارهم

قرر أن يهديهم مسدسات جديدة ألمانية الصنع، حين فتح دولابا وراء مكتبه فوجدوا عجبا من مجموعة مسدسات حديثة، رد كريم على انبهارهم بأن أمسك مسدسا في قبضته وأخبرهم أنه نفس الطراز الذي استخدمه آل باتشينو في فيلم الأب الروحي، لم يعرفوا آل باتشينو لكن عرفوا المسدس، قال أحدهم وهو ينظر لصاحبه يطلب مدده:

على فكرة لو حضرتك غاوي يا كريم بك فنحن نعرف صديقًا لنا في مخازن السلاح، عنده من كل الأنواع جديد وقديم وبرخص التراب.

فزايد صاحبه على كلامه:

وممكن تروح يا كريم بك بنفسك مخازن الداخلية تتفرج وتختار واحنا نتصرف.

تصرف محمود داود كم أملاه ذكاؤه وشره، دعا فهيم السعداوي على العشاء في بيته الريفي كانت المرة الأولى التي يتعرف فيها كريم على جلال الذي بدا له صلفًا وأطول من اللازم، تبادلا كلمات التعارف الباردة ثم سخنا البرود بدور بنج بونج، ثم لعبت سيجارتان من البانجو دورهما الرئيسي في الفناء الخلفي، وجابوا أخرها من الأول، تسبح

الزوجتان على بدانتهما ساعتها في حمام السباحة الآمن، وتنتظرهما بنتان في ملابس ريفية نظيفة ومكوية ومعهما فوط مطوية ومناشف بيضاء وأرواب سباحة، وكانت موسيقى خفيفة تأتي من غرفة مطلة على الحمام بينما يظهر في الطابق الأول المطل بشرفة واسعة فسيحة على حمام السباحة محمود داود مع فهيم السعداوي ودخان السيجار يتبختر في نهار شتوي دفيئ، بعد قهقهات مصنوعة ونصائح متبادلة، ذهب محمود إلى قصر الرئاسة والتقى به هناك، مدير القصر أشهر لاعب عرائس في المسرح السياسي، طويل القامة متغضن الوجه سميك النظارة أجش الصوت غليظ النظرات وقح الألفاظ، كان محمود يتجنبه ويتفاداه في الحفلات والمؤتمرات مع هذا الوجه الثلجي الذي لا يذوب مع الحرارة، لكن محمود تعمد الآن أن يقف قليلاً أمام فهمي زكي، تمهل قبل أن يجلس فسلمه القيادة واعترف بوقفته أنه ممن يسيرون خلفه وليس بجواره أو أمامه، لذلك قال فهمي زكي وهو يمسك بمسبحته وكأنه تلقى الوقفة:

- أيوه كده يا ابو كريم، فهمت وعرفت تيجي لمين!

- وا يا دكتور كمان نفسي الزيارة دي تتم من زمان.
- وكنت مستني إيه؟
- الإشارة.
- ووصلتْ..؟
- بس وصلت حمراء.
- ضحك حتى اهتزت المسبحة في يده وقدم له سيجارا وقال:
- أخبار الراجل الإفريقي اللي انت دخلته لاجئ سياسي إيه..؟!

أُخذ محمود وتفاجأ، لكنه تمالك نفسه سريعا قبل أن يتضح تأثير اللكمة:

- بفضل رعايتك يا دكتور..
- ضايقتك الجرايد اليومين اللي فاتوا، خصوصا أنهم ضربوك من ناحية الواد كريم، أنذال قوي بتوع الصحافة دول...
- قوي يا دكتور.
- لكن عرفت غلطك يا أبو كريم.....؟

ثم فطس على نفسه من الضحك المبحوح:

- الطفل المعجزة، حلوة وا ..!
- ثم ارتدى ثوب شيطان الحرب ورفع حربته وقال بأداء بارد ثلجي:
- أصلك لعبت يا أبو كريم من غير ما تستأذن
- رضاك يا باشا

في الأيام التالية التالية نشرت الصحف اعتذارا لمحمود داود وتأسف رؤساء التحرير لأخطاء محررين صغار لديهم، وسحب محمود داود القضايا المرفوعة في المحاكم والبلاغات للنيابة، وأشادت الصحف بدور دكتور فهمي زكي مدير القصر الرئاسي على وساطته في الصلح واحترامه لحرية الرأي والتعبير، بعدها بأسابيع هاتفه حماد الغزولي وقد ضخ في صوته أنبوبا من الخباثة والسخافة وقال:

- الانتخابات قادمة.
- وانا مالي؟
- لأ، مالك ونصف.
- الحزب محتاج تبرعات في حملته الانتخابية..!

- ما انا كلمت بتوع السياحة ووزارة الإعلام والمسألة خلصانة..!

- - ولا واضح إننا لازم نتقابل.

ليلتها التقوا في نادي العاصمة وفتح على الآخر :

- أخبار الواد كريم إيه..؟

- الحمد .

يستهل بالحمد، على فكرة أنا عايز نلم ابنك على عيالنا في شغل يأمن مستقبلهم..؟

- مستقبلهم...؟

- مستقبلنا يا سيدي.

- قوي

- على فكرة الواد وائل ابني مصاحب ابنك كريم.

- معرفش...!

- ولا انا، ده مجرد استنتاج.

ثم نفض يديه وقال صادق:

- المهم الراجل عايزك تقف جنبه..

- أي رجل؟

- فهمي زكي!

لم يستوعب محمود داود فتلقى الحصة كاملة الشرح من صادق الغزولي:

- هو داخل الانتخابات، صحيح سيكسب بالتزكية ابن ال.. ولا بلاش، لكن فيه لزوم الدعاية والإعلانات والتبرعات، وترضيات المنافسين كي ينسحبوا ويزكوه والذي منه.
- وأنا مطلوب أشوف الذي منه...!
- انت حر أنا باقول هذه مصاريف لا تساوي حملة إعلانات شركة.
- وانت ألست في حاجة لدعم في انتخابات الفلاحين بتاعتك..؟
- وا كلاك نظر...
- ابتسم محمود متهكما وراضيا،
- قلت لي ابنك إيه إيه؟
- وائل.
- عاشت الأسامي.

في نهاية الأسبوع دعا فهمي وصادق الغزولي وفهيم السعداوي لقصر الساحل الشمالي وبين صنوف السمك

وطلات المايوهات وروائح الشواء وزجاجات النبيذ وصخب الأولاد، وضحك النكت الجنسية، ووجوه الخدم الإفريقية والبذلات الكاملة للحرس المنتشرين حول الأسوار وتحت المظلات وعند أطراف الشاطئ الخاص ومع اصطكاك موج وهزات شجر وبلل رمل ولهث نسيم حار وذرات ثلج مبشور حول كؤوس فوق موائد، قال فهمي وهو يبتسم كأنما يوزع نفحات أمام مسجد الحسين:

- الريس مبسوط منك قوى يا محمود بيقول أخيرا مسئول عينه مليانة أغنى من الحكومة ومش طمعان في فلوس، مش عايزين نطفشة بقى بكلام فارغ بتاع استغلال نفوذ وتداخل مصالح والكلام اللي جايب البلد للوراء.

ضحك الغزولي وهو يفك زرار قميصه وينادي على وائل:

- تعالى ياله حِب على إيد عمك داود.

لم يسمعه وائل بينما قال فهيم السعداوي:

كفاية فلاحة بقى يا غزولي، أولادنا خلاص بقوا طبقة تانية لا علاقة لها بحِب على إيد عمك وسلم على ابوك الحاج وشغل بلادكم.

في المساء التالي كان كريم يتجول في مخزن أسلحة الوزارة بصحبة حرس والده الخاص، وأكثر ما أعجبه هو المدفع كلاشينكوف، وبعدها بصيفٍ كانت صورة كريم المفضلة الموضوعة على شاشة كومبيوتر غرفته وجهازه المحمول صورته مع الجِنِرالْ كلاشينكوف شخصيا بجسده الممتلئ ووجهه الأشقر العريض وشعره الأبيض الغزير وابتسامته الواسعة، كان قد التقطها لهما حارس كريم في معرض أسلحة زاره كلاشينكوف وطارده كريم حتى اصطحبه نهارا كاملاً انتهى بإهدائه ساعة من الماس للسيد كلاشينكوف ووقع كلاشينكوف بخط يده على مدفع يملكه كريم وقد ذهل الرجل بهذا الطفل ذي الشارب وقال لمرافقه وهو يدافع عن مشاركته مراهقة مراهق:

- إنه ابن أمير من الأسرة المالكة لبلد عربي.

حين عاد كريم من سهرته الأولى مع وائل وجلال كانت مجلة فرنسية مرمية على سريره دون أن يفهم لماذا هي هنا، ألقاها على طول ذراعه ونام مخدرا من صنوف البيرة والبانجو، في الصبح سألته أمه هل رأيت مجلة "جين إفريقيا"، دهش من سؤالها وهي تفرد أمامه صفحات المجلة.

كانت صورة شارل بوكاري في تقرير فرنسي عن مجرمي الحرب المطلوبين في أفريقا لمسئوليتهم عن جرائم إبادة لقبائل وسكان حدود، وأشارت المجلة إلى وجود بوكاري في عاصمة عربية إفريقية، أخذت عينا كريم تجري على السطور وهو يتمتم بالفرنسية العجولة باحثًا عن اسم والده فسكنه هدوء مريح لما لم يجد شيئًا عنه:

- هذا شارل بوكاري صديق بابا، أنا مش مصدق.

قالت الأم وهي تنتهد:

- هل تعرف أن شارل بوكاري اختفَى منذ أسبوعين؟

- كيف؟

في جرعة من الشر التلقائي والإيماءات الاتهامية، أضافت:

- سألت أبوك عمل فيها مشغول وتهرب من الإجابة.

طوت المجلة وهي تسأله في فضول أمومي غريب على نوعها من الأمهات:

- ما حكاية غادة.؟

وبعد همسة تنهيدة صامتة أضافت:

- بنت الرقاصة..!

ضحك كريم فمنذ دخل الجامعة الأمريكية وعلاقته بغادة تطن في أذنيه بالأسئلة، كانوا يتضاحكون مستندين على سور السلم العتيق في الجنينية التي انتشرت فيه الأجساد الشابة في استعراض بزهو فتوة المال وفتنة الطبقة، غادة تقهقة في قرقعة صوت تنضح فيه جينات أمها الراقصة:

- زوزو كانت هبلة.

كانوا يتحدثون عن سعاد حسني في فيلم خلي بالك من زوزو، فالجماعة كلها تعرف أن غادة بنت هذه الراقصة المشهورة التي تزين صورها فرح الكبراء وبرامج التليفزيون وأغلفة المجلات، وصورتها مع غادة في ضحكة مشتركة مفتوحة الشفاة كأنها إعلان عن معجون أسنان تملأ الصفحات، كانوا جميعا يتعاملون مع غادة باعتبار الحسد لنجوميتها المبكرة ولسعان عقل أمها التي لا تكف عن إطلاق آراء تحرك نصف برامج تليفزيونات ومجلات البلد وهذه الروح المبهجة الصارخة التي تفجره غادة في كل مكان تذهب إليه، هو وحده الذي أعلنت له أنها معجبة به، لاعب في دماغها، كانت علاقة بلا تخطيط ولا تكتيك ولا ضوابط ولا مستقبليات، لكن عائلته لم تسمح بمكان في قلبه لغادة

وظل اسمها الرسمي بين ألسنة العائلة الداوودية بنت الرقاصة، حتى لما تعلقت أميرة سعودية بغادة لما التقت بها في رحلة عمرة مع أمها، فقررت أن تصبح غادة هي وكيلة أعمالها في مصر ومندوبتها في القاهرة وسكرتيرتها في عواصم العالم، لم تنل رضا أمه، كانت غادة قد سافرت مع أمها وعدد من الفنانات إلى عمرة بالأراضي المقدسة، هناك لما احتضنتها تلك السيدة وضمتها في صدرها أعادت صدر غادة للخلف ونظرت في عيونها الباسمة طويلاً وقالت:

- خلاص يا ست شوشو أنا أخذت بنتك.

وأخذتها فعلاً، كانت غادة تسافر جدة كثيرا وتعود منها لباريس ولندن، وتتابع في القاهرة بناء قصر جديد للأميرة، وتشتري لها عمارة في الدقي، وتشارك باسمها في أسهم شركات ومحلات، وتبحث لها عن قطعة أثرية وتزور معارض لوحات فنية لشراء مقتنيات للقصر والفيلا والشاليهات في الساحل الشمالي والجونة والعين السخنة، وتؤثث بيوتها وتصحب بناتها في رحلة لتايلاند وتشرف على حفلاتها الخاصة في دبي وتظهر في مزادات سرية ومتكتمة لعرض تحف قصور من عصور غابرة، وتدير مآدب الطعام

ورحلات الصيد النسائية لها في يخت البحر الأحمر وحفلات عيد ميلادها هي وبناتها في أجنحة فندقية خاصة، وتتفق مع مطربين مفضلين لدى الأميرة وبناتها، وتحدد زيا موحدا لحضور الحفل وتكلف مهندس ديكور سينمائي بوضع تصميم الديكور وتنفيذه، وتشرف على إخراجه تليفزيونيا وفي هذا المرج الدائم في حياتها إذا بها تغيب أياما لا تفعل سوى الجلوس مع الأميرة في شرفة القصر تشاهدان طلوع الشمس وغروبها فقط، لا شيء سوى الطعام والشراب وتخرجها مع كريم، صارت غادة أشهر منه، وهو الذي ظل الناس ينادونه بالطفل المعجزة سنينًا، وباتت كذلك أشهر بنات القاهرة في دوائر نسوة المال وصحبة رجال الأعمال وصخب الفنانين ونجوم الطرب والتمثيل الذين يزحفون على بطونهم سعيا لحفلات وهدايا الأميرة التي كانت غادة هي مفتاح قلبها وصراف خزينتها، في قصر الأميرة رأت غادة ما كانت لتحكيه إلا لكريم وكان يعرف هو أنه لا يعرف منها إلا ما استأذنت غادة أن تحكيه له، أدرك لما دعته إلى قصرها الصيفي أن شيئًا غامضا يتكاثر ويتراكم بين الأميرة وغادة، جلس وسط قاعة أُضيف وصف لها أنها واسعة، كان على

جدار أمامه بارتفاع السقف العالي عدد هائل من شاشات التليفزيون الموضوعة بنظام في صفوف أفقية ورأسية متساوية في نفس حجم البوصة فيم يشبه غرف الأخبار التليفزيونية، يتوسط هذه الصفوف من الأجهزة شاشة عملاقة في القلب تماما، كل الشاشات تعرض مشاهد من مسلسلات ومنوعات وأغنيات ورقصات ونشرات وأفلام ومباريات، حين جلس بجوار الأميرة على أريكة واسعة وبراحة وتنعم بالنظر إلى امرأة خمسينية فاتنة بجمال صحراوي يلطمك بشهوانية متعالية، ندت منها بسمة لما لمحت مطربة تغني وترقص في أطياف لونية على شاشة أعلى الصف الثالث فضغطت على جهاز تحكم ضخم في يدها فتبدلت القناة المعروضة على الشاشة العملاقة لتتحول من عرض مسلسل فكاهي أمريكي إلى مشهد هذه المطربة وقد ترنمت بأغنيتها غادة وهي تمسك بكف الأميرة وقالت موجهة كلامها لكريم:

صاحبتنا، مطربة تجنن، لكن كمان ست زي العسل، مش ده هو الفستان، صح هو، ذوقك يجنن يا قمر.

وضربت بكفها على كف الأميرة دون أن تفصلهما فواصل أميرية.

قالت له الأميرة:

- غادة بتحبك وأنا باغير مِنك.

ضحكت غادة وهي تشهق:

- وبعدين أحسن يفهمنا غلط....!

حاول كريم ألا يفهم لا خطأً ولا صحا، ولم تحاول غادة على مدى تلك السنوات أن تشرح له لغزا أو تفك له طلسما، فقط كانت عيونها تتلون بالأزرق الغامق ثم تتبدل بعدها بأيام إلى خضراء ثم تسيطر عليها حالة العيون البرتقالية المخيفة، ثم تعود مع إيشارب رقيق يغطي ثلاثة أرباع شعرها إلى لون عيونها الطبيعي، ثم فجأة يصفر شعرها أو تضربه بلون أحمر في خصلات تتوسط رأسها، ثم تعود لتلفه في ذيل حصان كأنها هابطة من أتوبيس المدرسة، ثم تعيش فترة ليست قليلة مع حجاب وتدين ظاهري يمتلئ بالتمتمة والهمهمة والتهامس بالأدعية طول الوقت وتقف في كازينو ليلي حيث مرقص يرتع فيه جموح الهوى ثم تخرج منه تتجه لصلاة الصبح في السيدة نفسية، ولا ينسى مشهدها ليلة ما زارها مع عزة وجلال في شقتها الجديدة المطلة على النيل وهي تقدم لهم عقد التمليك باسمها، وتقبض على كأس

الكونياك في يدها اليسرى، وتمد يدها اليمني لتمسك المصحف، وأصابعها ترتعش فتسقط قطرات من الكونياك من الكأس المائل المهتز، وتحرك المصحف نحو عينها وهي تقسم:

- وا العظيم الأميرة ما دفعت مليما في هذه الشقة.

كانت أمها قد اعتزلت وتحجبت، وظلت تدير كازينو شارع الهرم سر سعدها وبوابة شهرتها، وتحوله إلى مأدبة ضخمة في شهر رمضان، وأخذت تتصدق حتى بات المكان المفضل للمحتاجين من مساكين البلد وفقرائها الذين كانوا يتوافدون على الكباريه، وفي ممر خلفي من داخل الجنينة تجلس الأم بنفسها خلف شباك زجاجي، وضعت له فيما بعد قضبانًا من حديد حينما عانت من خشونة الأكف المزدحمة والمتكالبة والشفاه الناشفة التي تهوي على يدها تريد تقبيلها، كانت ترفض أن يتولى غيرها مهمة الصرف حتى تسمع بنفسها دعاء الناس لها كأنه تصفيق الكبارية، يا حاجة (هكذا حكت لصديقه لها ذات مرة) وقيل أنها كانت تخصص أموالاً شهرية لموظفي الإدارات الحكومية في أحياء كاملة بالقاهرة، وتحلفهم على المصحف حين يحصلون على معوناتهم

الشهرية أنهم لن يرتشوا طيلة الشهر فقط، أو على الأقل حتى يقبضوا معونة الشهر التالي، شاركتها غادة في الحج والعمرة وإدارة الكباريه وسط كل انشغالاتها، وبينما تنغمس في كآبة واكتئاب لأسابيع إذا بها تنغرس في سهرات ليلية حتى مطالع الفجر بكل ما تملك من هيستيريا الحماس المفاجئ، بل كان وزنها يزيد وخديها ينتفخان من السمنة أسابيع وشهورا، ثم إذا بها تقبل بنهم على الجوع إقبالها على الأكل وتمارس الرياضة بصرامة التزام ديني، وتخفض من وزنها عشرين كيلو جرام في أسبوع في معجزة من معجزات نسائية خالصة، غضبت أم كريم ولم تمسك زمام نفسها وشاطت بألفاظ أساءت كثيرا للعائلة الكريمة حين عرفت أنه مسافر مع غادة إلى باريس، هناك اصطحبه فرنسي غامض من رجالات الأميرة، وذهب به إلى قبو قصر قديم، وأبهره بجولة بين أكثر الأسلحة قِدما وعتاقة وحداثة، ثم أهدته الأميرة بندقية نابليون وأخبرته غادة همسا أن البندقية من مقتنيات زوج الأميرة شخصيا.

لكن الأميرة رفعت صوتها بخشونة رجولية وهي تضيف:

- هذه البندقية هبة مِني اك لكي تحرس بها غادة.

فقالت غادة وهي تترقع بأنوثة راقصة مبتذلة:

- يبقى أنا اللي آخذ البندقية، هو يحرس أمه بس.

حتى جاءت الليلة التي ذهبت فيها مع كريم إلى المقهى الليلي الراقص في المبنى الشاهق الجديد على ضفاف النيل وقد نغبش الفجر في سماء القاهرة، كانت عزة وجلال هناك بينما لم يأت تامر، ووعدهم وائل بالحضور ولم يحضر، تطاحن كريم وغادة في مائدة منفردة حول أمه وأمها، طلبت منه أن يكون رجلاً ويحدد موقفه، فطلب منها أن تكون امرأة وليست رجلاً للأميرة، فضربته على صدره، فأمسك يدها كاد يدميها، ثم تجرع خمرا وبلعت هي قرصا وانطلقت في رقص محموم معه، ثم تضرب رجولته في منطقته الحساسة، استلمت صفوت عجمي وهات يا رقص، ثم ارتمت على زين الخميسي، وهما الشابان المتنافسان المخموران بمال وعز عائلاتهما، وصارت غادة هي حقوق الملكية التي يتصارع عليها ليلتها زين وعجمي، وهي تتلذذ وتستثار بهذه المعركة وكريم ممزق العظم بالغيرة، ثم انتهى الموقف بين زين وعجمي إلى عراك وخناق فنهرت غادة راقصها زين وأخبرته أن عجمي يرقص أفضل وعليه أن يكمل الليلة، كان

عجمي يرقص مع غادة التي استعارت لياقة أمها في المزج الخاص بين الرقص الشرقي ورقص الاستربتيز، فانطلقت شعلات من الرغبة في عروق شبان هذا المكان الذي يتنافس فيه هؤلاء على الخمر والنساء واستعراض النفوذ، يبدو أن صفوت عجمي قد ضغط على أعصاب زين حين جذب غادة من أمامه بعنف أحبته غادة في لحظات السكر والغياب العقلي، عزة جاءت وأشارت لجلال الجالس بعيدا أنها تريد أن ترحل لكن جلال اعتبر الأمر غيرة نسائية فزاد من غزله لها، وطواها تحت ذراعيه فتراجعت عن الرحيل، بينما رمت غادة بنفسها على صدر صفوت الذي قال لزين:

- روح انت راحت عليك.

دفعه زين بقبضة يده، انحشرت بينهما غادة، وأمسكت بيد كل منهما في كف من كفيها، ورقصت بهما فصار المقهى كله يصورهما ويحيط بهما في طقس مهووس، لكن حين عادت غادة إلى المقعد الوثير، ورمت نفسها على رجلي عزة كان زين وصفوت يخلصان مشاكل بينهما متراكمة بالركل والضرب وسطا التوتر على الجميع، واختلط سباب راقٍ مائع بألفاظ شوارع خشنة وغليظة، وتطايرت زجاجات وكؤوس

وفي لحظة هدأ الجميع لما جذب صاحب المقهى زين إلى مكتبه، ثم إلى ردهة الخروج، وتمسك صديقتان به وواحدة منهما تقبل رأسه وأصابعه وشفتيه كي يهدأ:

- عشان خاطر صافي حبيبتك يا زين، تعالى روحني.

اهدا يا زين بيه، صفوت بيه حبيبك وصديقك، مش معقول كده انتوا ولاد ناس.

رحل زين لعله أوصل صافي، وقيل أنه دخن مع صديقتيه سيجارتي ماريجوانا؛ فعاد وحده قبيل الفجر فوجد المكان وقد فرغ من ناسه عدا غادة وكريم، وقد رحل جلال بعزة، بينما كان صفوت في صحبة شلة ويحادث غادة على مبعدة أمتار، دخل زين وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة:

- حد هنا مش ح يشوف النهار.

فصرخ فيه صفوت وهو بين مداعبته واستفزازه:

- رجعت ليه يا بطل.....؟

وبينما ترمش رموش الحضور، إذا بزين يضرب زجاجة خمر في حافة رخامة البار، ويندفع بالزجاجة المكسورة مدببة الحواف حادة النصال، ويرمي بجسده على صفوت وهو يطعنه في بطنه مرة، ثم ثانية ثم في صدره ثم يعود إلى

كتفه ثم يهبط ويضرب بقوة وبغِل فيما بين فخذيه، ويتراجع بظهره وقد أدميت يداه، ونزفت دما بينما يعوي صفوت ويلف بجسده، وينحني للأمام ويسقط برأسه نحو صدر غادة ثم يلقي بنفسه في حضنها فيغرقان دما معا.

صرخت غادة:

- اسمعوا.........

وضعت أذنها على صدر جلال المبهوت وهي تلهث وترتجف:

- سامعين بيجروا في دمه..

جرها تامر ناحيته وهو يقبض على كفها البردان المرتعش:

- إهدي يا غادة.

كان جلال قد تجمد في وقفته حين قالت عزة وهي يائسة مسلمة:

- أنا سامعة الصوت فعلاً.

كان وائل يحاول أن يدافع عن جلال، لكنه تردد في نطق أحرفه الأولى، فقد تنبه وأنصت وهو يقترب من جلال ثم ينتفض فجأة:

- إلحق يا جلال العفاريت دخلت جواك.

كريم كان مهدودا مهمودا، فسكت وسكن، بينما ارتدت أقدامهم وتراجعت، وجرت عزة وتردد تامر وترقب صبري.

كان الصوت مثل وقع صوت حوافز خيول على رصيف بازلت، كقرع الطبول في مقدمة فرقة الموسيقى العسكرية، يدق ويعلو منتظما ومتصاعدا ومنفجرا تحت جلودهم، وضعوا أكفهم على وجوههم ودسوا أصابعهم في غضاريف آذانهم، الميدان المعتم الذي بدا أمام عيون تامر المذهولة يضيق ويطبق على صدورهم شهد انفلات جلال وهو يخلع ملابسه، الجاكت وقد تمزق في أطرافه وجوانبه فينزعه متوترا فيمزقه، القميص تتفكك أزراره وتتساقط تباعا، البنطلون وهو يرتمي من بين ساقيه ويتعثر فيه فيسقط معه مربوطًا بذيله، يقف مترنحا ويتخلى عن آخر ما بقي من ستر فيخلع ملابسه الداخلية وسط الصيحات والصرخات، لكنهم وقد زعرتهم المفاجأة، وقفوا ثابتين محملقين محدقين في هذه العروق الخضراء البارزة النافرة من صدر جلال وبطنه وحول فخذيه وعلى امتداد ساقيه، تجري كائنات صغيرة

حشرات حمراء متدافعة تظهر من العروق المنتفضة المنفوخة الشفافة.

تامر أول من تخلي عن حراسة ونطق:

- مستحيل، مستحيل...!!

وظل يردد الكلمة متدافعة الأحرف متصادمة بأناته وهمهماته وحشرجته، ساعتها وجلال يلف حول نفسه ويضرب بكفيه صدره يطارد الكائنات الحمراء التي تعدو في عروقه يحاول أن يراها يتحسسها وصوتها يعلو جحافل جيش يغزوه، وغادة قد أمسكت بحقيبتها ودنت منه مترا ثم شرعت في ضربة بالحقيبة ترفعها وتدور بها في الهواء ثم ترميها لتمس جسده، وائل بطيش المحبة رأى نفسه يندفع نحو جلال وقد أخذ يعاونه في مطاردة عروقه المنفوخة؛ فلكم بطنه وصدم صدره، ثم انهال عليه بسن الحذاء وطول الذراع ولكمات القبضات وفي مساحات الصدر والبطن والفخذ، وتعالت إيقاعات الضرب مع أصوات الجري في العروق مع صرخات البنات وصوات صبري مع صيحات تامر وكريم، وفي لحظة علت ندهة سارة فأفاقوا كأنهم صحوا من النوم، نظروا فلم يتبينوا هل هو جلال الواقف متجمدا أم أنه جسم

ضامر لروح مرتعدة، هل صمتَ طنين الحشرات الساعية الراكضة في عروقه، أم أنه ملأ الكون حتى صار لفح الهواء وفحيح الريح..؟ هل توهموا أم تاهوا، هل وصلوا أم ضلوا؟ هل نجوا أم جنوا؟ هل كانوا نائمين فاستيقظوا أم يقظى فناموا؟ فقط كانت سارة تنده وتشير إلى هذا الشبح الذي يقترب، كلما دنا طال، كان جلال قزما صغيرا واقفًا في حضن الشبح الذي جاءه من الخلف ولف ذراعيه حول ظهره وأطبق على صدره بحفيف عباءته، تتمدد منها أصابع رفيعة بارزة العظم طويلة السبابة تنقش على صدر جلال العاري الشاحب نقوشًا من الألوان الفوشيا تغطيها أطراف عباءته، وهم يتفرقون ويتسربون ويتسللون بعيدا فرارا ونفورا، لكن الشبح رفع رأسه وسدد نظراته إليهم فغمرهم هذا الإحساس الوحشي بالضعف والهوان، رأوا ظلال أشباح تحيط بهم من ظهورهم ومن فوق أكتافهم، حوصروا وظنوا أنها النهاية وقد غمرتهم هدأة اليأس، رفع الشبح عباءته عن صدر جلال فظهرت النقوش التي رسمها على صدره المرتعش اللاهث بأنفاس متقطعة كأنها تقول شيئًا، تعلن أمرا وتذيع سرا، كانت غادة أول من أدرك وجودها ولم يفهم معناه فصرخت:

- نجينا يا رب، والنبي يا رب..؟

سمعت خلفها تمتمة فاستدارت وهي تسمع الصوت جليا مجلجلاً:

- حاضر يا بنتي.

هبط تامر من السيارة الجوالف الحمراء كمن يهبط من سيارة تجري في سباق سيارات داخل شوارع وحارات لعبة كومبيوتر، تلك التي تتحرك بأنامل تلامس أسهم لوحة المفاتيح وتتصادم فيها السيارات دون موت دون دم، فحولت العمر إلى لعبة، وتحت نظرات تامر المتعالية حولت اللعبة إلى عمر، على الكوبري أمام كمين التفتيش حيث سيارة نقل جنود واقفة بعرض الطريق وقد سدت نصفه وحواجز منصوبة وموضوعة أمام نصف الطريق الباقي، يقف عدد من الجنود في زي عسكري أسود بالٍ وفقير ممسكين ببنادق تبدو أرفع قيمة وأغلى حالاً منهم، يشعر اثنان من أمناء الشرطة بغرور السلطة حين يتحصل عليه فقراء لا حول لهم ولا قوة فيعتبرون سلطتهم على خلق ا أعز أمانيهم وأعظم ثرواتهم، يتفحصان رخص وبطاقات قاد السيارات التي تتباطأ عند الكمين، وتطفئ أنوارها حتى لا تضايق البيه

الضابط الذي يجلس غالبا عند سيارته الرسمية مصطحبا عددا من رفاقه يضعون صينية شاي وحاجة ساقعة على سطح العربية، وغالبا يتناقشون ويتندرون مع سائقي الميكروباص المنتهية رخصته، يتوسل لهم ويتقاذفونه بينهم سبا ولعنًا، حينما هبط تامر من سيارته كان قد ركنها جانبا وسط صياح عدد من العساكر:

- جرى إيه يا بيه...؟

نهرهم في خفة:

- اتلم يا له انت وهوه .

واتجه ناحية الضابط الذي وقف ونهض بجانبه وائل متفاجئًا مرتديا بذلة كاملة، وارتدى نظارة غامقة في عز الليل، وفرد صدره وكان لا يزال حديث عهد بكمال الأجسام، لم يسمن، ولم تزدد كرات عضلاته وانتفاخات صدره بعد، قال الضابط:

- أهلاً شوماخر.

رد تامر:

- حتى في رأس السنة بتقرفوا الناس.

أجاب وائل كأنه الفاهم العارف:

- هذا أحلى شغل في رأس السنة.

أضاف الضاب:

- صحيح، طراطير بقَى وبوس ونسوان وخلاعة ومياعة وسكر وعربدة وشارون ستون على ناهد شريف...!

ثم أشار له وائل على حقيبة سيارة الضابط الخلفية وقد رفع غطاءها فظهرت ثلاجة صغيرة فتحها تامر فرأى زجاجات وعلب البيرة، بينما أمسك وائل بكيس بلاستيك في يده وهو يهمس لتامر:

- الأمانة وصلت.

كان وائل من المغرمين بهذه الوقفة في الكمين، أجمل سهراته هي التي يحضر فيها ويشارك عددا من ضباط المباحث والمرور ممن صادقهم مستغلاً السماجة المشتركة بينهم ودون إخفاء لنفوذ والده وقد تلبست وائل حالة ونفسية ضابط الشرطة، وصار يتحدث بلغتهم ويتعامل بطريقتهم، وشارك في الكمائن باعتباره ضابطًا في أمن الدولة وكان يستجوب ويضرب ويشخط ويشتم، بل ويعاكس النساء ويترازل على المرأة التي تقود سيارتها في متأخرات الليل، ويستفهم منها عن نوع عطرها وطراز فستانها، وكان يستمتع

بالأجوبة المرتبكة والمبهوتة، بالضبط كما استمتاعة بالأجوبة الغليظة الغاضبة من نوعية وانت مالك؟؟ وشوف شغلك من غير تجاوز يا حضرة الضابط.. بل ذات مرة قرر أن يخطب فتاة ردت عليه بثقة وكبرياء: ممكن أشوف كارنيهك يا حضرة الضابط، وفي أزمات كتلك يتدخل ضباط الكمين من أصدقائه وينهون الموقف باحتراف حل الأزمات لكنهم يتضاحكون ويتسامرون حوله طيلة الليل وحتى مطالع الفجر، بعد ليلة رأس السنة تلك توقف وائل عن هذه الهواية واتجه بعدها لتربية عضلاته ولعبة كمال جسمه وبات خبيرا في عقاقير الهرمونات التي يتعاطاها لزيادة قوته وقدراته العضلية وجمال وكمال عضلاته وبروز صدره وتضاريس بطنه، حتى اكتشف تأثير تلك العقاقير على ذكورته فانقطع عنها، وكان يحلو لتامر أن يقول له متحديا وساخرا أنه انقطع عنها متأخرا.

لوح وائل للضابط والتفت لتامر وهو يركب بجواره:

- حتة حشيش بقى مغربي من كازابلانكا ذات ذاتها.

ثم أضاف والسيارة تمر من تحيات وسلامات وتوسيعات عساكر الكمين:

- وحياتك أحلى شغل الليلة مع عمرو عزت.

قال تامر وهو يبتسم أمام عشرات الطراطير على الكوبري، وباعة جائلين يمسكون بعرائس بابانويل يبيعونها على الأرصفه:

- شفت بابا نويل على كوبري امبابة..؟

- طبعا يا بني وماما نويلة كمان.. مصر تقدمت زي ما ابويا بيقول.

سخر تامر وهو يضيف:

- ماما نويلة.......!!!

- آه.. ماما نوال والدة بروفيسير عمرو عزت اللي مطلعش من البيضة وفاكر نفسه راجل، وبيشتمني ويقول على بغل، وكمان عايز يمشي مع ريم البرعي ويخطفها مني...

- انت مش صالِحتُه.. ما لازمة الغِلّ؟

- أنا لم أصالح أحدا.. مفاجأة رأس السنة سوف تقبلها ذيل سنة بعون ا .

- يا وائل عمرو شخص جدع، هو مضطرب شوية لكن طيب.

قال وائل والسيارة تقف أمام برج المعادي الشاهق:

- مضطرب...؟ ده أنا اللي مضطرب.

ثم أخرج من طيات بذلته شريط فيديو، وأخذ يطبل عليه إيقاع رقصة على واحدة ونصف.

- على ا جلال لا يرجع في كلامه وفي اللي اتفقنا عليه.

استغرب تامر:

- اتفقتم على إيه؟

مرحا ومزهوا رد وائل:

- لا هذه مفاجأة يا دكتور.

كان عمرو عزت معيدا بكلية الحقوق، وعلى غير رغبة والده المستشار على عزت القاضي ورئيس المحكمة الذي كان ينوي كما المعتاد تعيين ابنه في سلك النيابة، شيء ما في نفس عمرو يأبى أن يبدو قاسيا ويتأذى من إلقاء التهم، شيء ما عميق ومتنامي ظل يكبر معه وداخله وهو يرى والده متنقلاً من موقع لموقع بين إدانات وأحكام، حين كان يسمعها عمرو طفلاً ومراهقًا كان يكرهها، وينبت نبتٌ نما وترعرع من شعور عدائي مكمور تجاه هذا الأب الفخور بسجن

البشر، وكانت أمه السيدة نوال نجمة جمعيات الخير والمساعدات الاجتماعية، تزهو بصورتها في مجلات المجتمع وتصادق معظم صحفيي ومصوري الحفلات والأفراح التي باتت ضيفة مستديمة وخبيرة بها وتؤدي هذا الدور السينمائي الذي كانت تشاهده لسيدة الصالونات في الأفلام السينمائية العربية على أفضل ما يكون، وكانت شهرتها تصعد أكثر من والده وحين أصبحت عضو مجلس إدارة ذلك النادي القاهري الكبير شعرت أنها وجدت ذاتها بعد أن كانت تقدم نفسها بلقب مدام المستشار على عزت، أما عمرو فقد اعتبره البعض من مجموعة علاء الكفراوي الطرية بينما كان هو غاطسا في حب مستحيل لريم البرعي التي لم يجد كريم أي مناكفة ضمير في أن يصفها بأنها صديقة الطلبة، ومن بينهم كان هذا الطالب الغشوم وائل صادق الغزولي.

كانوا جميعا في حالة الخدر السريع المجهز، القادم على دراجة بخارية. ومن خلال صبي بصندوق كرتوني في يده وقبعة حمراء على رأسه، كل ما يحتاجونه يأتي في علبه المجهزة، وحتى باب البيت، ومرميا تحت الأقدام، ملفوفًا في

تلك الراحة المرفهة التي دفعتهم ساعتها لاسترخاء مصنوع بفعل العقاقير والبانجو وكؤوس الخمر التي اندلقت في أجوافهم دفعات وجرعات طيلة الليل حيث كانوا ممددين ومتطمتعين في شرف استقبال نهار السنة الجديدة، أعد كريم لهذه الليلة شقته في الطابق العشرين من هذا البرج الذي لم يكن في أية حاجة ليكون عاجيا حتى يبدو بعيد المنال في منطقة محالة الوصول للعاديين من خلق ا ، إلا لو صعدوا لها خدما أو حاملي الأطعمة السريعة، الشقة فسيحة وبرحة وشرحة وأثاثها فخيم لكن بأناقة فنية ذات ذوق رفيع، أهم ما ميزها هذه الليلة حشد الزحام الذي امتلأت به حتى بعد منتصف الليل بقليل، كانت وجوه شتى وشتيته، تكدست مشاعرهم منفلتة (تصدر من منطقة سفلية تحت مساحة وعي غائب بفعل الحذر) بأصواتهم (تصدر من حلوق مبحوحة بنبرات نزقة)؛ خف الزحام الزخِم بالعطور والنحور المكشوفة والغرائز الولعة بشبق محموم تؤججه الموسيقى الصاخبة وتعري الأجساد والمشاعر مفضوحة تماما، بلا جهد يداري ولا إرادة تحجز وتمنع الانفلات؛ انسحبت وجوه ورحلت عن المكان، بينما جفت جذوات الاشتعال لصالح

هدأة روح مخمورة تماما، مفكوكة أوصالها ومسترخية أجسادها، استلقت عزة بظهرها وقد وضعت ساقًا على ساق في مقعد وثير يبلع مؤخرتها في قماشه المبطن؛ وجلس تامر مع وائل في نصف دائرة على الأرض بين قائم ونائم وأدار كريم اسطوانة أخرى في الجهاز تبعث موسيقى تحاول أن تكون هادئة؛ غادة ظلت تضحك طول الوقت وهي تشاهد تامر يراقص سارة، وعاد صبري ممسكًا بطبق من الجبن الأبيض المهروس في قطع طماطم وشرائح رقيقة من الخيار وزيت يغرقه مع قطع من الخبز المحمر برقائقه الناشفة، وضع الطبق أمام جلال الذي يلف سجائر البانجو بدقة ونبوغ ويسحب دخانه كأنما النشوة اليقظَى، وتحلق حوله على السجادة ثُلةٌ من أصدقائهم في حفاوة حضور المخدر؛ في ركن بعيد كانت عزة تقوم لتستقبل مخرجا سينمائيا بقامته الطويلة وكرشه المنفوخ وهو يضرب سارة التي مرت أمامه على مؤخرتها وتحضنه عزة بشبق عطش وهي مغمورة في الخمر ومغموسة في الخدر، وتتدلل عليه بكلمات مكسرة الأحرف تحت وطأة الكحول:

- متى يبدأ التصوير؟

كان قد وعدها بالظهور معه في الفيديو كليب الجديد الذي سيصوره لمغنٍ شهير، ولهذا فقد ضمها ذراعه الأيمن وأسقطها على كتفه كأنما تدريب رقص، وخطف قبلة على خدها وقال:

- لازم أجرى حالاً ألحق السهرة.

كانت في انتظاره سهرة أخرى فخطف ساعة لدى كريم حتى لا تمر الليلة دونما جلسة الشلة، ولما دخل سرى في المكان رعد التوتر، رآه عمرو فانتحى بنحالته جانبا وقبع مقموعا في زاوية الشرفة المطلة على نهر النيل الكل يدرك أن هذا المخرج هو الزعيم الأول والأب الروحي لنزق ريم البرعي التي حضرت الليلة بأوامره وسبقته بتعليماته، إذا تحدث أحدهم مع عمرو ملمحا بحبه المكبوح لريم يرتج، حتى أنه يغضب إذا أشار فرد من الشلة لهذه المشاعر المحشورة في قلبه تجاهها؛ اختار الصمت منهجا في علاقته بها واختارت هي كل طرق إشعاله وإغضابه وإثارة غيرته وذل أحاسيسه، لكنه واجه الأمر بصمود مهِض وصمت مريض؛ وحده كريم الذي كان يدرك أن دخول المخرج غرس قلب عمرو في وحل حزنه أكثر لكن عمرو ممن يؤثر

أن يعذب نفسه بالسكوت والبعاد، وفي لحظات حين تزيد فيها جرعات العقاقير المخدرة تخذل قدر أي شخص على التفكير في قرار أو فرار، فإن عمرو يبدو بحزنه وبصمته أقوى كثيرا من أن تعطل العقاقير قدرته وأن تثبط همته.

أدرك الجميع أنه من الصعب أن يتقدم أحدهم خطوة واحدة خارج الشقة من فرط ما فرطوا في الشرب وقرروا استكمال مطالع النهار:

- سوف نبيت هنا في شقة كريم.

أعرب تامر عن جوعه وجلال عن سعادته ووائل عن صداعه وصبري عن حاجته للرحيل، عبرت عزة عن رغبتها في النوم المخطوف، وتابعت غادة مشاهد من أغنية على قناة الموسيقى، وأخذت سارة تجري خلف القطط أحضروها كلها إلى حجرها، وصلوا إلى خمسة عشر قطًا تجري وراءها ويجرون معها وخلفها، بينما أخذت بقية أفراد السهرة يعجنون في همساتهم ويعبون في مشروباتهم، وأعلن كريم عن عجزه إقناع عمرو بالعودة من الشرفة؛ فتقدم وائل وهو يشير لجلال القادم من ردهة مدخل الشقة، وقال بصوت يتمالك سكره بوعي متيقظ وبارز:

- أنا ح اقنعه.

جلس عمرو زائغ العينين وسط الشلة في هذه القاعة التي يتصدرها تليفزيون بشاشته السينمائية الضخمة، ويرقب الجميع، انهماك وائل وجلال في إخراج شريط فيديو وإدخاله في جهاز التشغيل وسط همهمة وتمتة، تامر أحس أن هناك كارثة قادمة فاستعان بالسخرية في مواجهتها، سأل عمرو:

- كيف أقنعوك بترك التأمل الفلسفي الوجودي الميتافيزيقي في البلكونة قبل أن يهبط عليك الوحي؟

رد وائل قاطعا المناقشة:

- أنا كنت خايف لَيهبط هو من البلكونة يقابل الوحي شخصيا.

وشغل الجهاز.

بعض الصور المتتابعة الغامضة غير المفهومة مع تشوشات متداخلة فعقبت عزة:

- ماله ردئ قوى كده....؟

ثم صمت الجميع رغم مزاج الخمر والخدر حين ظهرت مائدة في مطعم فارغة بلا أحد مع حركة من جرسونات خلفية ومتقاطعة يظهرون بظهروهم أو بجانب من وجوههم.

قالت عزة:

- إيه دي الكاميرا الخفية...؟

لكنهم فهموا رغم صعوبة الاستيعاب أن الكاميرا مثبتة ومخفية وأن مجهولاً ساحقًا قادما مما رفع مستوى تنبههم وطرد كثيرا من خدرهم وهمس كريم:

- واضح إن وائل وجلال قرروا يفوقونا.

حين ظهرت على الشاشة السيدة نوال والدة عمرو تجلس على المائدة المجهزة للتصوير بصحبة رجل كان قبضة هائلة تنزع قلب عمرو من مكمنه.

يعرف عمرو أن والده المستشار على عزت مرضي عنه من كبار المسئولين ورجالات الحكم، كما أن والده لا يبذل أي مجهود لإخفاء ولائه للنظام ومشيه في ركابه وانتظار لُقماته أو فُتاته، كان الرجل دمثًا حتى أن أحدا لا يمكن أن يضبطه منفعلاً، عالي الصوت، لكنه هدوء يغلف برودا، وكان أدبه يبث الريبة في نفس الجميع الذين يدركون أن ابتسامته تبصق سما في أحيان كثيرة، اعتاد المحامون الواقفون أمامه معاملته الحنونة لهم، وتلك الطيبة الأبوية التي تتبدى في مناداتهم بألفاظ التفخيم والتعظيم، حتى لأصغر

المحامين وأدناهم مكانة، وكانوا جميعا بالتجارب والمقالب يعلمون أن وراء ذلك بئرا من القسوة لا تنضب وأحكاما مغاظة لا تنهد، فخافوا هدوءه ورقته واعتبروها زحف جلد ثعبان على حشائش جنينة، اللدغ الصاخب أرق وأخف وطأة، كان على عزت طول الوقت ينتظر رنين هاتف، سواء من وزير العدل ليوصيه على قضية محالة إليه مجرد توصية أحيانًا ليس فيها تعليمات محددة وقرارات مفصلة بل تترك لمفهومية على عزت وعطاءاته القانونية، أو توصية فيها أن الرئيس يتمنى أن يرى هذا الشخص عشر سنوات في السجن، أو القيادة السياسية شايفة أن هذا المتهم أخطأ في حق البلد ويريده عظة وبالمرة يتربى، أو مجرد ألفاظ هادئة قليلة يتمتم بها النائب العام في جلسة أو قعدة فيعتبرها بمثابة التعليمات السنية والأوامر السماوية، كانت الدائرة التي يترأسها على عزت هي المفضلة لدى الحكومة في قذف خصومها إليها، فكان طبيعيا أن أحكامه هي أحكام النظام، وعنف عقوبته من قسوة قلب النظام وليست من قلب مواد وأحكام القانون، مهمته الحثيثة والأسيرة أن يعكف بهيئة العالم المتبحر وروب النوم الحرير ونظارة القراءة السميكة

وفنجان القهوة الذي يحتسيه في ساعة كاملة، والسيجارة التي يدخنها عند رأس كل ساعة لا قبل ولا بعد، وقد حافظ كل هذه السنين ألا يراه أحد لمحا أو فحصا مدخنًا أبدا، يعكف على تخريج مبررات قانونية أو ممسحات من القانون أو لحسات من مواد القانون لهذا الحكم المفصل والذي دفع قاعات المحاكمة ودوائر المحاماة وممرات نادي القضاة إلى وصفه على استحياء ثم في علانية فخورة أنه ترزي أحكام، واحتفظ الرجل على مدى سنوات برقم قياسي من نقض محكمة النقض لأحكامه المتداعية، فقد حكم على أستاذ جامعي معارض بخمس سنوات سجنًا بتهمة الإساءة لسمعة مصر، لأنه كتب مقالاً أو أذاع رأيا في مؤتمر وبعد عامين من السجن برأته النقض، وأوقع عقوبة السجن ثلاث سنوات على صحفي شن حملة صحفية على وزير؛ فكان نقض الحكم بعد ستة أشهر، حتى عندما أصدر حكما على وزير سابق بتهمة الفساد عشر سنوات كاملة وقد شكره يومها شخصيا وزير العدل في مكتبه حيث أحال له هذه القضية ربما كي يغسل سمعته ويطهر اسمه من شوائب علقت من رذاذ الحقدة الحسدة، عادت محكمة النقض وقضت بفساد الحكم وأعادت

القضية للمحاكمة مجددا، يومها قال له الوزير الذي جاوز الثمانين من عمره توحي قبضة أصابعه على أطراف مكتبة أنه سيموت لأجل خلود جلسته، قال له مستدفئًا بولائه الانسحاقي:

- سأحكي اك حدوتة يا علي وحطها حلقة في أذنك، منذ عشرين عاما خرجت أنا على المعاش ولم يجدد لي وقد أحبطني هذا وكسر ظهري بعد كل هذه الخدمة للبلد وبعدما أشهرنا سلاح القانون في مواجهة أعدائه من مجرمي السياسة وخصوم الحكم، أنا كنت عمري ما أصدرت حكما في قضية رأي عام إلا واستأذنت الأول، ولعلمك لم يكن وقتها حال القضاة كما عملت أنا لهم الآن، وقدمت من خير ومال وحوافز ومرتبات ومكافآت ونغنغة، أصل انت صغير يا علي اسأل الكبار ستجد قضاة كانوا يذهبون للمحكمة في الأتوبيس آه وا العظيم، أنا مكنت وبصراحة بفضل الرئيس من نقل القضاء طبقيا بحيث أن أي قاضي بقى غرقان في العز والامتيازات، وبالذات الزملاء المحترمون الذين يضعون للدولة هيبتها وللرئيس مقامه كقاضٍ أعلى لنا ومنا جميعا، أليس كذلك.....؟؟

كأنما يستفتي علي عزت في أفكاره، فلم يتنبه لوجوب الرد، فقد كان مشغولاً بشرف سماع الحدوتة إلا أنه مع تكرار السؤال سارع وأقسم مغلظًا على صحة كل حرف مما قاله وزير العدل، وأضاف أبياتًا من مدح ومديح في الوزير والرئيس، فواصل وزير العدل حكايته وقد استكان للمدح حتى أنه أخرج طاقم أسنان جديد من مكتبه وأخذ يتأمله بأصابعه ويوزنه بكفه ويفتحه ويغلقه وهو يقول:

- عال عال أحدث طاقم أسنان بأحدث تكنولوجيا، مسافر أعمله في إيطاليا بعد غد، وراجع بعدها بيومين، الواحد مش عارف يأخذ أجازة ويرتاح وا ، بالمناسبة هذا الطاقم (ومد يده به لعلي عزت) مجرد نموذج مطاطي للتعريف والدعاية لكن يبشر بطاقم أسنان يأكل الزلط، (وضحك مهتزا) ولو أنه لا يوجد زلط في حياتنا خالص وكله بفضل هذا.

توهم على عزت أن إشارة وزير العدل بأصبعه السبابة إلى أعلى أنه يقصد ا   في السماء، لكن الوزير أضاف وهو يهز سبابته انفعالاً:

- شايف ابتسامته وسماحته...؟

ارتج على عزت .

- ابتسامة مين؟

والتفت حيث ينظر وزير العدل فوجد صورة للرئيس مثبتة في أعلى الحائط أمامه ففهم مقصده والوزير يواصل.

صاحب الفضل على هذا البلد وعلينا كلنا، أنا فاكر لما أحيلت على المعاش ورحت العزبة حكِم انا عندي عزبة وارثها عن المرحوم والدي في المنيا، لبست الجلابية والعباءة وقعدت في قلب الأرض أقرا واتفرج على التليفزيون أنا وزوجتنا العزيزة، تعرف أنا كنت حافظ مواعيد مسلسلات التليفزيون في جميع المحطات والقنوات، وكنت مغرما بالقناة الفرنسية، هو انت عارف إن زوجتي فرنسية، من الجنوب، من صعيد فرنسا...؟

ضحكا ثم أكمل:

- تعرف عشت على هذا الحال ثلاث سنوات وزارني هناك الضغط والسكر وضيق في شريان القلب وقلت خلاص يا ولد حسن الختام، فاكر من هو أمير المؤمنين الأموي الذي كان جالسا يقرأ القرآن في المصحف المفتوح أمامه لما قالوا له الخليفة مات وأنت أصبحت الخليفة الجديد، قام مطبق المصحف وقال له: هذا آخر عهدنا بك، لا أعرف لماذا

أتذكر هذا الخليفة دائما لما كنت باصلي العشاء إمام للزاوية بتاعة العزبة، وقعدت أتلو قرآنًا في ختام الصلاة لما جاء الواد السفرجي وقال لي تليفون من مصر عايزينك ضروري، كان مدير القصر الرئاسي قال لي الرئيس معك على التليفون، ذُهلت وا ـِ ركبي فكتْ ساعتها وأخبرني أنه محتاجني بجواره وزيرا للعدل، انت عارف يا عزت إن جده ا يرحمه كان حاجب، والدي في محكمة عابدين ولما الاتنين طلعوا على المعاش شغله فراش مكتب المحاماة الذي فتحه في وسط البلد.

دار شريط الفيديو الذي أحضره وائل سرا من وراء والده دكتور صادق الغزولي الذي حصل عليه من قبيل الفضول والتسرية من صديقه مدير الرقابة الإدارية، عندما فاحت رائحة القضية في أقبية الدولة، كان نسخة منقولة عن الأصل شاهدها أبوه بأكبر قدر من المصمصة والمسكنة ووجده وائل كنزا فأحضره ضربة قاضية لعمرو، محمولة ببغض ثقيل عبأ قلبه تجاه عمرو دائما منذ زمالتهم في كلية الحقوق، شاهد عمرو صور الشريط تتالى وتمزقُ أوردة حياته، تفض أكياس قلبه، منذ أسابيع لم يجد تفسيرا لاستقالة والده من

القضاء وهو الذي كان ينتظر منصب وزير العدل، ولم يفك طلاسم سكون أمه وضمورها وتقوقعها في البيت دونما رفقة ولا زحمة، حطت الكآبة منزلهم دون أن يواجههما أحس شيئًا مريبا ومريعا لكنه طارد كل الهواجس فطاردته هي في نومه وصحوه وسوسات وهلاوس وتوترات وكآبات، شلت روحه وضيقت الخناق على عنقه، مع هذه الهزيمة اليومية الكاسرة من حب مستحيل لفتاة كل ما يصل إليه يلمح ويفصح عن عاهرة ماولة، لكن ما التعهر إذا لم يكن ما يراه الآن على شاشة الفيديو؟ ما النهاية إلا ما يدركها الآن في الوجوه المحيطة به بكل ما تملك من خسة وشماته ونفوس مأجورين.

قام عمرو وعاد إلى شرفة كهفه مخنوقا بالبكاء والدموع فسب تامر الدين لجلال ووائل والبنات المشدودات للشريط وقال لهم:

- كفاية عايزين تشوفوا إيه تاني....؟
- كانت ما مرت من مشاهد تبين جلوس نوال أمام رجل في منتصف العمر تقريبا بدا أنه متهم في قضية الاستيلاء على قرض من بنك:

- وا يا مدام نوال أنا مش عايز من سيادة المستشار غير إن القانون يتنفذ وأنا راضي بيه.

فقالت في حدة متغطرسة:

- كل أحكام سيادة المستشار قانونية ومحبوكة تمام.

- ما انا باقول كده طبعا ونفسي أقابل سيادة المستشار في إباء وشمم.

- جوزي لا يجلس مع متهمين قضاياهم قدامه أبدا.

- ما انا مش عايز أقابله من أجل القضية، أصل فيه واحد صاحبي عايز ينشر أهم أحكام وحيثيات علي بيه عزت في كتاب.

ضحكت في خبث ودلال:

- حلوة حكاية الكتاب، جديدة، وتدفعوا كام بقَى؟

- الذي يأمر به سيادة المستشار.

- شوف يا حبيبي.

فابتسم الرجل..........

- نفسي الكلمة دي تكون بجد.

تراجعت ونظرت له في شراسة:

- لا القضية بتمن.. قصدي الكتاب، وحبيبي بتمن تاني خالص.

- خلينا نتكلم في حبيبي الأول.

تحولت العيون الخمسينية إلى امرأة لعوب تقف على رصيف تفاوض رجلاً:

- ح تشيل بضاعة عجوزة كده.

- عجوزة إيه فشر، دا انا سامع أساطير.

- وعايز تشوف الأساطير.........؟

- أشوف بس..؟

- لا وتجرب كمان.

- نفسي.

- مليون للبراءة قصدي للكتاب.

- كتير.

- يا عاصم بيه دا انت مستولي على تلتميت مليون.!!

- وحياتك على ما وصلوا كانوا مِتين.

- مستكتر مليون في البراءة أُمال ح تدفع كام في الأسطورة بقى....؟

ثم نزع تامر الشريط وتجرع من زجاجة خمر عبوة ضخمة وهو يصرخ ناظرا لغادة في عيونها النهمة:

- احنا ولاد حرام..؟

فقالت غادة في استخفاف:

- طيب نعرف بس ح يدفع كام عشان الست الخرشانة دي...

كانت الأسقف الآن عالية جدا وأجسادهم صغيرة وواطئة وقزمية، رائحة الشقة بين البخور والبخار والدخان، ومواء القطط يتكاثر ويزيد مع أنات أصوات نسائية وقهقهات الرجال المفاجئة والغافلة حين رن جرس الباب أكثر من مرة مع دق أكف على خشبة، حتى تنبهت، فتيقنت الآذان أن هناك أحدا على الباب ذهب صبري ففتح الباب وصمتَ هناك مقبورا تماما، كريم الجالس في استئناس وصمت تصور أن أحدا من رفاق المجموعة جاء متأخرا ليكمل السهرة عنده، أو ينام لديه فالكل يعلم أنه ينظم سهرة رأس السنة في شقته؛ أو ربما أن أحدا طلب طعاما فجاءه لم يدر في ذهن أحد أن جرس الباب الذي رن سوف يطن طنينًا طويلاً في حياتهم؛ عاد صبري ووقف وسط الصالة حيث رآه الجميع وباتت

ملامحه في غبش الدخان والليل خابية وضامرة عن التعبير لكن كائنًا ظهر من خلفه أشعل فتيل التوجس في أجسادهم، كان ضابط شرطة بزيه الرسمي ونجومه الفضية على كتفة ثم ظهر بعد برهة خلفه عدد من أمناء الشرطة بزيهم الأسود الغطيس وأجهزة اللاسلكي التي تنقل أصواتًا من أماكن أخرى في كمائن الميادين وأركان الحراسة الليلية.

في اللحظة الأولى كان الضابط يشعر بقوة تملؤه أمام شبان سكارى مخدرين وبنات في لحظات كحولية عارية؛ كان صيدا ثمينًا رغم كآبة الحدث وسوداوية الحادث، وفي اللحظة الأولى نفسها كان كبرياء الثراء يسطع من عيون المجموعة ووهج الإحساس بالنفوذ يقدم نظرات عنودة ومتغطرسة تتحدى نفوذ الضابط وألفًا غيره، فمن المؤكد أن أحدا أبلغ عن سكر وعربدة في شقة كريم، رغم ندرة من يجرؤ على ذلك، إلا أنه لا يزال في البلاد حمقى، شرع كريم في رفع صوته وأن يستعرض نفوذ والده، وسارة تبتسم في طفولة وتهمس: شو تايم نطق صبري في ضعف وهشاشة:

- يسألون عن عمرو؟

مد الضابط يده ببطاقة الجامعة عليها صورة عمرو ملوثة بحمرة، وسط غابة من عيدان التوتر والقلق والمخدرات أدركوا أنها حمرة دم.

قال جلال وقد استغلق عليه الفهم تماما:

- ماله عمرو إنه في البلكونة؟

خرجت الكلمات من الضابط حاسمة وهو يتحرك ناحية الشرفة التي قاده إليها كريم؛ قال:

- الأخ عمرو واضح أنه رمى نفسه من الدور العشرين ووجد الجيران والبوابون جثتَه منذ ربع ساعة وأبلغوا وقال البواب أنه كان في زيارة كريم.

نظر لكريم وأومأ له فاستجاب كريم بهزة رأسه:

- أي نعم أنا كريم.

عاد الضابط وأكمل:

- وشاهدت واحدة من الجيران من خلال نافذتها وهو يسقط من البلكونة.

وصل الضابط حتى الشرفة التي لم يكن فيها أحد، مجرد مقعدين من البامبو المفروش بالإسفنج المدثر بالقماش الملون وكوب زجاجي فارغ على الأرض وزجاجتان فارغتان من

البيرة وعلبة سجائر أجنبية وولاعة ذهبي على أحد المقعدين ثم لا شيء، طل الضابط من سور الشرفة إلى أرض الشارع حيث شعر رهبة الأماكن العالية، وهو يتفحص رصيف الشارع بأشجاره الصغيرة وزحام الشرطة حول الجثة الملقاة، تزايد قدوم العابرين والجيران على الفُرجة، بدا مشهدهم صغيرا وضئيلاً من الدور العشرين حين ألقى الضابط بغطاء زجاجة البيرة المعدني من مكانه إلى الهواء تقاذفته الريح اللاهبة وظل يهوي حتى احتفى مبددا تماما

بمجرد خروج الضابط من الشرفة وجد الملامح قد زالت عن وجوهها فالتفت إلى كريم:

- أريد أحدا منكم معي للتعرف على الجثة..؟؟

ونظر إلى أمناء الشرطة:

ولا أحد يدخل ولا يخرج من المكان.

وقف الضابط (فيما بعد عرفوا أن اسمه ممدوح الزين)، في المصعد الواسع المفروش بسجادة حمراء والمرايات موضوعة على الجدران تعكس ملابسه السوداء وحركة قدميه التي لا تهدأ في دائرة من سنتيمترات كأنه فوق صهد اللهب كانت ملامح كريم الواقف بجانبه بكماء تماما، كأنه وجه

منحوت في بطن جبل وخلاط شديد العنف، يدور في ذهنه يمزج ويصهر ويدهس عقاقير مخدرة مع سوائل كحولية مع دخان حشيش، مع أفكار سوداء مع كسل مريع، مع فراغ هائل مع حزن مقيم، مع رغبة في إنكار ما جرى، مع استخفاف طفولي، مع غطرسة ثرية، خلاط بدأ يعلو صوت موتوره هادرا إلى الدرجة التي تحركت فيه خلجات وجه كريم أخيرا، وفضحته عين الضابط الفاحصة التي استقرت على المرآة عاكسة وجه كريم الحجري، في تلك اللحظة فزع كلاهما منذ تحولت الخربشة الصوتية في جهاز اللاسلكي الذي تمسكه يد الضابط، تحولت إلى صوت خشن وآمر وسلطوي لا شك، جاء مهيبا رهيبا وهو ينهر الضابط ممدوح حين يستدعيه للحديث، كان يقول له "ممدوح" ما الذي يحدث عندك"...؟

لما أحس صمت ممدوح أو غياب صوته، شد وضاعف من لهجته الآمرة:

- حضرة الضابط ممدوح أنا اللواء عبد الرحمن الديب مدير الأمن..

تهيب الضابط ممدوح الصوت الزاعق رد بسرعة:

- معاك يا أفندم.

شخط فيه اللواء ألا يفعل أي شيء دون أوامره وتعليماته. نظر ممدوح إلى كريم الذي يتابع الحوار منصتًا وصامتًا، كان ممدوح قد أحس بضعف ما يتلبسه أمام الولد، فجأة شعر أن شاربه الأسود الكث يذوي ويتحال وتسقط شعيراته على صدره وعلى الأرض، أمام كريم الذي يتصنع أمامه الصمت والإنصات والإطراق، بينما يتخيله في باطنه يضحك، وتتسع شفتاه بحمولة طن سعادة ورضا يداريها وراء نظرته الجامدة حين صرخ اللواء شاخطًا:

- انت عارف دي شقة مين..؟ كريم داود ابن محمود بيه داود، ثم هل تعرف من معه في شقته خلال هذه السهرة ولاد مليارديرات وكُبرات البلد، سهرة رأس السنة التي دخلتها الآن تجمع حوالي ٦ مليار جنيه في شقة واحدة شوف هذه هي التعليمات.

حين تضغط على زر اللاسلكي كي تتكلم فإنك تتوقف ساعتها عن الاستقبال، ولا تسمع من يكلمك، لذا ضغط ممدوح على اللاسلكي في نفس اللحظة التي ضغط فيها على

زر التوقف في المصعد؛ فانفتح الباب عن الطابق الثالث، خرج الضابط وهو يحدث رئيسه في اللاسلكي:

- أيوه سيادتك، معاك سعادتك.

يمشي في الممر أمام المصعد الذي وقف فيه كريم دون حراك ودون أن يقترب أي تعبير إلى حدود وجهه يحاول الضابط أن يذهب بعيدا عن المصعد حتى لا يسمعه كريم، يبتعد ويتسمع كريم حروفًا متفرقة وألفاظًا متقطعة، ينغلق باب المصعد لكن الضابط يعود سريعا جريا ولهثًا كي يضغط على زر المصعد في الممر حتى يبقى مفتوحا، ثم يعود ويتلكم مع لوائه همهات وهمسات، وحين يوشك الباب أن ينغلق على كريم في الداخل وحيدا، يرهق الضابط نفسه في العدو ناحية باب المصعد للحيلولة دون انغلاقه، بدأ كريم في مساعدته كلما أوشك الباب على الانغلاق وتحركت ضلفتاه وتلاقيا أسرع كريم فضغط من داخل المصعد على زر فيعود الباب مفتوحا، حين اكتشف الضابط ذلك وقف أمام كريم وأخذ يستمع معه إلى تعليمات اللواء التي بدت نافذة الصبر:

أولاً: كل البنات تمشي من الشقة على بيوت أهاليهم، ولا ذكر لأي بنت في المحضر.

ثانيا: تجاهل في المحضر سيرة الخمرة والحشيش ولكن ممكن تشوف واحد متطوع فيهم يقر بوجود سيجارتين بانجو معه لكن لو لم يتطوع أحد لا تضغط عليهم.

ثالثًا: الولاد يروحوا القسم لتحرير المحضر وأخذ أقوالهم في عربياتهم الخاصة، لا أحد يركب سيارة الترحيلات، ثم ركز على أن الولد صاحبهم انتحر، واضح إن الولد عنده متاعب مع عائلته يا ممدوح وربنا يصبرهم.

لم يملك نفسه من السؤال:

- يصبر مين يا أفندم؟

لم يرد سوى الوشّ والخربشة..

كان الضابط قد دخل مع كريم إلى المصعد وانغلق الباب والمصعد يهبط بسرعة غريبة كأنه يهوي:

- سيادتك وصلك الخبر إزاي، احنا مكتشفين الجثة من ثلث ساعة.

رد اللواء دون أن يبذل أي جهد في إخفاء فظاظته:

- انت فاكر إني نايم على وداني...؟!!

أفسح أمناء الشرطة والجنود القلائل الموجودون مكانًا كي يقترب كريم مع الضابط إلى مكان الجثة، كان عمرو كأنما

أعضاؤه مفكوكة تحت ملابسه، رأسه مهمشة كأنها رأس تمثال خزفي سقط على أرض صلبة ودماؤه النازفة بين الحمرة والسواد، ووجهه مفلوق وأسنانه مقذوفة من فمه وعيونه مغمضة منكمشة ومنقبضة.

تقاسم وتشارك ملامح وجه كريم الرعب والخوف والذعر والحزن والأسى والدهشة والصدمة والحيرة والارتباك والجمود والذهول والذبول والغضب والعتب والنقمة.

سأله الضابط:

- اسمه عمرو على عزت أليس كذلك؟

لم يرد كريم، بدا أنه قد أومأ برأسه كأنه يقول إنه عمرو. رد الضابط:

- البقية في حياتك يا كريم بيه.

لأول مرة هذه الليلة تكف غادة عن البكاء، وتهتم عزة بضبط مساحيق مكياجها، وتبتسم سارة في هدأة مطمئنة، ويترك وائل لنفسه حرية الإحساس بالجوع، سرى شيء من الهدوء وعبرت قلوبهم نسمة ما من الطمأنينة، مد زهدي يده المسنة البيضاء بكوب النسكافيه لكريم وربت على كتفه:

- اشرب وهدي أعصابك، كل شيء تمام.

كان كل شيء قد اختلف حين هبط كلاهما من السيارة المرسيدس القديمة التي تشبه السيارة التي كان يمتلكها عماد حمدي في أفلامه فتبهر شادية، تقدما نحوهم وقد تراجع جلال وانكمش وائل وارتجف كريم وتكورت سارة وتسمرت غادة والتصقت عزة بكتف صبري المزروع في الأرض، بينما قال تامر:

- من هؤلاء؟

بدأ مطر خفيف في الهطول، رذاذًا يزداد اندفاعا في وجوه الجميع، في اتجاهه كان الرجلان يفتحان مظلتين، انفردت المظلتان فوقهما المطر الذي انتقل من الخفة للتثاقل سريعا، اقترب منهم الرجلان وخرجت تحية المساء من فم أحدهم ملأى بالمودة والحنو:

- مساء الخير.

ثم خرج صوت طيب من حنجرة أحدهما كان هو نفسه الذي رد على لهج غادة بالدعاء أن ينجيهم ا ، قالها بأبوة ووقار وثقة:

حاضر يابنتي.

ثم أكمل:

- ربنا سميع مجيب الدعاء.

ثم قال زميله:

- مالكم يا شباب، شفناكم من الفيلا وانتم بتجروا ومرتبكين وشكلكم تائه أو خائف!

كان منظرهم برعبهم وخوفهم تحت زخات المطر يشبه قططًا ضالة جائعة بللها مطر في زقاق تباغتها أضواء السيارات وترجفها نباح كلاب بعيد.

أضاف الصوت نفسه وقد أحس تداعي قوتهم ويأس ضعفهم، وهو يتجه بالمظلة نحوهم ويقربباه منهم فيحمي بعضهم من المطر فاقترب الآخر وأحاط الباقين بالمظلة يحمي أجسادهم من بلل مجدد وقال:

- أعرفكم بنا، هذا هو أستاذنا المستشار زهدي الراضي، وأنا اسمي فكري فتح ا .. مستشار.

ضحك وعلق زهدي:

- مستشارين على المعاش، على المعاش من زمان قوي.

كانت ملامحه كافيه لتعرف تاريخ ميلادهما، في السبعينيات من السن، زهدي اشتعل شعره بياضا على نعومته ونحوله، قامته طويلة وشاربه خفيف وعيونه تلمع حياة

وابتسامته مثبتة في وقار على وجهه، أما فكري فقد تقدمه صوته الأجش في تعريف حماسه وطيبته المندفعة:

- شكلكم مبهدل قوي، أنا ح اطلب المستشار رفاعي يأتي بعربيته مع المستشار قاسم وناخدكم كلكم على الفيلا.

ما حير الشلة هو هذا الاختفاء التام للأشباح من حولهم، فجأة عاد الميدان لبلله ومطره وليله وعتمته المستضاءة بألوان من الضوء الخفيف المنبعث من شرفات ونوافذ، روح ما إنسانية وبث عائلي سرى في المكان، غسل طين أرواحهم ورتق مزق ملابسهم، عندما جاءت السيارة الثانية بوشيش أليف كانوا قد شعروا أن ما مر كابوس أو أن من جاءوا ملائكة من طاردي الأشباح.

التصقت عيونهم بزجاج السيارة ترقب شوارع القرية هادئة وساكنة، الفيلات والشاليهات تصدر أضواء ناحلة، والسماء صافية في زرقتها تزينها نجمات بعيدة عديدة ومبهجة، تبادلوا نظرات متعبة وأفكارا مهدودة وغطست قلوبهم تحت مياه الاستسلام في سلام وسكون! حتى عندما سألت غادة:

- هل أخذتم بالكم ما الذي كان كتبه العفريت على صدر جلال؟

رد كريم في لامبالاة:

- كان مكتوبا باللون الأحمر الفاقع كلام مفكوكة الحروف لم أفهم بالضبط معناها.

وأضاف تامر:

- ليس مهما.

كان تسليم الجميع لهم لا لبس فيه، هدهم التعب وروعتهم الأشباح والأحداث والكواليس، فشعروا أمانًا سريعا بعودتهم إلى الحياة الطبيعية، واستدفأوا حضن هؤلاء العواجيز الذين بدت ملامحهم السمحة حلاً لكل الألغاز التي عاشوها، كان جلال يحكي كل ما جرى لهم من لحظة ما شاهدوا الأشباح على الطريق إلى أن جلسوا الآن على ركن صيفي بسيط بفرش قديم في فيلا على أطراف القرية ذات إضاءة متوسطة بلا مصابيح أو نجف في الأسقف بل أباجورات صغيرة ذات شماسي هرمية تكسو لمبات بنور أصفر صافٍ، وعلى الحوائط لوحات كثيرة معلقة في كل مكان في الفيلا تكاد تكون نفس المشهد ونفس الريشة لشواطئ مهجورة ومراكب

منسية بلا بشر، ومراوح كبيرة في الأسقف أرهبهم لونها المحبر وأجهزة تليفزيون عتيقة الطراز معطلة في الغالب إلا جهاز واحد في ركن أمام كنبة يبث صورا متقطعة وخيوطًا سوداء تشق الشاشة كل حين، كان استقبالهم ومطاردة كائنات وحشية غريبة استقبالاً ضاحكًا بوقار ولم يملك المستشار رفاعي وهو يقدم حشدا من السندويتشات على صينية طويلة يضعها على المائدة أمامهم، وضحكاته تلامس كلماته وتهتز بطنه ذات الكرش البارز من محاولة مسك نفسه عن الانهيار في الضحك.

- أشباح..! طيب هذه سندويتشات بيض، وهذه بسطرمة وهذه لحمة باردة.

ويلحق بنفسه قبل أن ينفجر بالضحك فيكح ويعطس ويواصل:

- وهذه جبنة رومي وجبنة بيضاء بالخيار والطماطم وهذه سندويتشات الحلو مربى بالقشطة.

أكثر من أذهله الإعجاب كان صبري فقد رأى وهو الطباخ المحترف أسرع إعداد لهذا الكم المفرط من السندويتشات، تدخل المستشار زهدي بين ضحكات رفاعي

وقال في هدوء سمح لهم بالبدء في التهام الطعام كأنهم جاعوا منذ ولدوا:

- فعلاً شبكة المحمول واقعة من ليلة أمس.

قبل أن يكمل قال رفاعي ضاحكًا:

- بالمناسبة ولا واحد فينا عنده محمول.

عاد زهدي وأكمل:

- لا يوجد أي شيء غير طبيعي في القرية اليومين دول، احتمال كبير أنتم توهمتم هذه الأحداث أو هناك من يلاعبكم.

سألتهم عزة وهي توجه نظراتها لزهدي أهم سؤال لها في حياتها، وهي التي خلت حياتها كلها كإنسانة وكمذيعة من الأسئلة المنطقية.. قالت:

- لكن ما الذي يجمع عددا من المستشارين الكبار مثل حضراتكم في فيلا واحدة في الساحل الشمالي؟

حدق فيها زهدي:

- حضرتك مذيعة أليس كذلك...؟

- نعم.

- عمركم ما سمعتم عن هذه الفيلا منذ جئتم للقرية...؟

التفتت عزة لجلال الذي أجاب عنها:

- هذه الفيلا تحديدا؟.

- نعم تحديدا.

- أبدا.

- خسارة....!

قالها فكري الآن متحسرا، وهو يمد جسر نظراته لقاسم بينما تنهد زهدي وقال:

- طيب اهدوا الأول وسأحكي لكم.

قطعت سارة حوارهم ولم تكن قد سمعت حرفًا منه، وتدخلت في لهفة أسقطت طعاما من فمها:

- هل ممكن يا أونكل تاخدونا في عربياتكم نرجع مصر...؟

تدخل فكري:

- أولاً هو مش أونكل، هو جدو يا دوب، ثانيا طبعا ممكن..

كانت ملامح المستشار قاسم أكثر طيبة مثل ممثل يعلب دائما دور الرجل الطيب في الأفلام لا يستطيع المخرج أن يعطيه دورا آخر، لكن صوته كان أكثر وقارا كذلك وأعمق أثرا.. قال:

أنا شايف إنكم تاكلوا كويس. واضح أنكم جوعى وهذه مائدة من السماء عملها لكم جدو رفاعي، ثم تشربون قهوة فسوف تفيدكم لو كنتم شربتم حاجة شقية، وبعدين تدخلوا الحمامات وتغيروا هدومكم المبهدلة والمقطعة ثم نروح معاكم قصر الابن كريم وسوف تتثبتوا وتتأكدوا أن ما رأيتموه مجرد أوهام.. أو على أسوأ تقدير حوادث مدبرة وممكن تكون مجرد سوء فهم أنتج هذا الرعب الجماعي.

تحررت روح تامر وسأله:

- إذا كانت أوهاما وأنا كنت ميالاً لذلك فما تفسيرك للكدمات والخبطات والتشققات في جسد صبري ووائل، وكريم عظامه مكسره وجسده كله أزرق ومنتفخ وتلك الحمرة المفروشة على صدر جلال..؟

تأمل قاسم في كريم ولف رأسه إلى حيث وائل وجلال فندت منه ابتسامة، بينما قال له صبري مشيرا لصدره:

- أنا صبري..

ضحك قاسم ورد:

- وأنا قاسم تشرفنا.

ثم تبادل النظرات مع رفاقه زهدي وفكري ورفاعي:

- هل تشاهدون أي شيء مما يقول عنه دكتور تامر؟

هزوا رؤوسهم نفيا وقال رفاعي:

- شكلهم مجهد وملابسهم مبهدلة وملامحهم مفزوعة لكن صحتهم وأجسادهم بلا كدمة واحدة ولا كسرة واحدة.

رد تامر وهو يجاهد من أجل تشغيل عقله:

- هل هذا كله وهم؟ معقولة؟

رفعت عزة عيونها للوحة المعلقة أمامها وفي ضربة تشبه شق سكين لقلبها لاحظت أن مياه البحر في اللوحة تموج وتتحرك، غالطت نفسها وأغمضت عيونها، ثم أطلقت سراح رموشها المحبوسة فوجدت مراكب اللوحات تتحرك وتطفو على الماء، قبضت على كف تامر فكأنما أوحت له بسؤال للسادة المستشارين:

- من قال لك يا سادة المستشار أنني دكتور؟

انطلقت عاصفة من التوتر أطاحت بسكون المكان، وقد تحجرت عيون جلال وصرخت سارة وهي مرتعشة ورمى كريم ظهره على مسند الكنبة، كأنما يعلن يأسه المطلق، بينما وقف وائل يمسك عزة التي أخذت ترتجف وهي تقول في

حروف متقطعة وكلمات متكسرة تتساقط حروفها في آذان الجميع:

- اللوحات على الحيطة، المراكب بتتحرك، الموج والماء، لا ليس معقولاً، أشباح، كله بيتحرك...!

زعق فيهم قاسم بقوة، وبشراسة وقف على حيله محدقًا فيهم مثل مدرس يوقف الفصل عند حده:

- استكتوا خالص ولا كلمة.

تنمرت ملامح المستشارين بين الردع والأسى، لأول مرة يتنبه جلال أنهم جميعا يرتدون بذلات سوداء تقليدية وأنيقة كأنها خرجت توا من أكياس محل البذل من ربطات عنق فيها لون مخضر خفيف على قمصان رصاصية فيها لمعة مطفية، نفرت عروق قاسم فاقترب رفاعي وقد تخلى عن ابتسامته وقال له:

- اهدأ حضرتك يا سيادة المستشار، هم لا يفهمون، سأشرح لهم ...

التفت نحوهم وقال:

- اسمعوا بهدوء، ومن غير ما تفزعوا نفسكم، نحن يهمنا مصلحتك فقط، اللوحات على الحائط تتحرك فعلاً لكن هذا

مجرد خداع بصري تتميز به هذه اللوحات المجرية، هي مصنوعة في بودابست وأكيد انتم لفيتم العالم وعارفين إن فيه مثل هذه اللوحات التي توحي لكم أنها مجسمة أو متحركة يعني في غرفتي فيه لوحة شكسبير، داهية ألا تكونوا بتعرفوا شكسبير وهو يبتسم ويتكلم، وكي أكون واضحا معكم فالمراوح في الأسقف تهبط إلى الأرض هكذا.

تسلقت نظراتهم بالهواء الصاعد للسقف، صرخت سارة وزام جلال بشفتيه، وتيبست عزة تماما بينما وقف وائل على حيله وقرر كريم أن يغمض عينيه بينما همس تامر بكلمات مدموجة الأحرف ربما كان يقصد أن هذا سحر، لقد هبطت المراوح من الأسقف بنفس وضعها وقد ظهر في كل مروحة عمودها الذي يتصل بالسقف وهو يزداد طولاً وامتدادا، وقد تحركت رِيشُ المراوح بطيئة ودائرية، حتى وصلت إلى قمة رأس وائل الواقف وبدت كأنها مقصلة قد تعصف برأسه فصرخ وصرخوا وقذفوا بأنفسهم على الأرض، واستمرت المراوح في نزولها نحو الأرض حتى وقفت عند رأس كريم المستلقي مغمضا عينيه في يأس جامد، ارتفعت صرخاتهم الخائفة من أن تقطع المراوح وقد زادت حركتها وتسارعت

ريشها رأس كريم، لكن ضحكًا كان مصدره رفاعي نهرته نظرة قاسم وأكمل زهدي:

- اهدوا يا ولاد.. المراوح سترجع لمكانها في السقف، انظروا.

كان في يده جهاز تحكم عن بعد، لوح به أمامهم، وقال:

- هذه المراوح مرتبطة بريموت كنترول وهي اختراع شاب من الصعيد لم يجد من ينفذه له في مصر أو يعترف به إلا نحن.

ثم انكسر صوته وهو يضيف:

- بعد أن انتحر يأسا..!

عاد قاسم وتكلم وقد نهضوا من رقدتهم وقاموا مرتبكين مشوشين، خاصة عندما أخذ رفاعي يضغط على جهاز التحكم ويصعد ويهبط بالمراوح مداعبا وهو يشير للملامح المرعوبة المرسومة على سطح وجوههم، أسكتته كلمات قاسم حين بدأ يتكلم:

- آخر المفاجآت هي أن تنظروا لشاشات التليفزيونات الموجودة في الفيلا وكلها عتيقة كما تعرفون، لكن لو تأملتم فيها قليلاً........

قبل أن يكمل كانوا يمعنون فيها نظرا ويقتربون منها فعلاً، حتى صفعتهم الرؤية، فقد وجدوا صورهم تتحرك ووجوههم تظهر وفزعهم من المراوح وهبوطهم إلى الأرض، والتفاتاتهم الآن وعيونهم التائهة وجلستهم على الكنبة والتهامهم الطعام......

أكمل فكري:

- هذه شاشات موصولة بكل أرجاء الفيلا، فقد كانت مملوكة من قبلنا لجهاز أمني مهم وتركها لنا بكل تجهيزاتها

وواصل رفاعي كلامه:

- أما حكاية أننا نعرف دكتور تامر فهو مشهور لدينا من الجرائد التي كانت نشرت كلاما كثيرات عن شركته وشركة والده، لاحظوا نحن على المعاش لا نفعل شيئًا إلا القراءة.

ثم تدخل زهدي:

- أما لماذا نحن هنا فالجواب بسيط، كلنا إما الأرمل أو الأعزب وعلى المعاش، وأولادنا تزوجوا واندمجوا في حياتهم ماذا نفعل غير أن نكون معا، وهذه الفيلا مملوكة لمحكمة النقض؟ هل تعرف ما هي محكمة النقض يا وائل؟

هز السؤال باللهجة الامتحانية روح وائل ولم ينطق.

أضاف فكري:

- كلنا كنا مستشارين في محكمة النقض، هيئة المحكمة مكونة من تسعة قضاة، ونحن آخر من تبقى من هيئة المحكمة التي أبطلت حكم قضية.......

قاطعة قاسم حاسما:

- ما عشتوه الليلة من رعب وفزع بصرف النظر عن حقيقته هو رسالة لكم قوية وعنيفة ممكن تكون مرسلة من السماء أو من كائنات على الأرض تريد أن تواجهكم، ماذا فعلتم معها وبها في ماضيكم وحياتكم، أعداء أو خصوم لكم يملكون وسائلهم وقدراتهم وجنودهم، تذكروا أن جنودا لم تروها، ريح هواء.

أضاف رفاعي:

- عاصفة مترية، فيروس الانفلونزا..

قال فكري:

- صخرة على حافة جبل، سيول.

عاد رفاعي وقال:

- بذرة جوافة بين سِنتَين في فمك.

أضاف زهدي:

- وسواس في رأسك..!

استكمل قاسم:

- عجلة غير منفوخة جيدا في سيارتك.

قال رفاعي:

- جناح ذبابة على طرف طبقك.

أضاف زهدي:

- قشرة موز على سلم.

قال فكري:

- ذرة رمل دخلت عينك.

عاد قاسم:

- سن ورقة رفيعة يشرط أصبعك.

أكمل زهدي:

- شوكة سمك محشورة في حلقك.

الشعور الوحيد الذي ملأ عقل الشلة الجالسة أمامهم أن هؤلاء المسنين مجانين حتما، لم يفهموا مقصدهم، ولم يستوعبوا تلك التفاصيل الملقاة على رؤوسهم، ولا هذا الأداء المسرحي الكورالي، تلفتوا لبعض، وكانت نظرات جلال لا

تعني سوى (قصروا، كي نرحل سريعا) فأومأت غادة وقالت:

- آه وا   صح.

كانت جماعة المستشارين قد وقفوا متوزعين على أرجاء القاعة أمام مداخل الغرف والممرات، بينما جلس قاسم خلف مائدة بدت كأنها منصة قضاء وقال في حزم وحسم خلا من الانفعال وتلامست حروفه مع هدوء بارد.

ما قلناه من أمثلة لا يعني أن جنود ا   من بذور الجوافة وذرات الرمل وأجنحة الذباب وشوك السمك تقصد موتك أو الانتقام منك، بل هدفها التحذير والتعزيز، أن تشعر لو جرت لك مثل هذه الأحداث أن هناك رسالة قد وصلت، ما جرى لكم الليلة وا   يعلم هل سيجري لكم ثانية، رسالة جاءتكم عبر كائنات تطاردكم وتلاحقكم وتعذبكم، كائنات من ماضيكم أو حاضركم، ربما أرادت الانتقام، وتتمنى النيل منكم والاقتصاص مما فعلتم، لكنها قد تهدف لشيء آخر فقط أن تبدوا اعتذاركم، فكروا بقوة التفكير قد يقودكم إلى النجاة، فقط السماء تريد أن تسمع اعتذاركم، أن ترى ندما منكم على ما فعلتم، أسفًا على ما جنيتم، براءة وتبرؤا مما شهدتم

وشاركتم، وتذكروا أن بللكم الآن في بول الرعب هو مقابل غرقكم في موج النعمة، وأن ضعفكم من الجزع والفزع هو ثمن قوتكم، وانهياركم من الهوان والإهانة الآن هو ثمن غطرستكم وغروركم، وأن ما تشعرون به هذه الليلة من خوف رهيب هو نتيجة ما تحسون به من تجرؤ على الحق وعنفوان بالنفوذ والمال وتحصن بالسلطة والآباء، أمامكم فرصة وقد رمينا لكم بأطواق النجاة، تقدموا وخذوها أو انصرفوا واتركوها..

قام عن جلسته فأمرهم زهدي أن يقفوا جميعا فوقفوا في تكاسل أو ارتباك أو خوف، وأضاف زهدي وهو يتحرك مع فكري ورفاعي بعيدا عن مداخل الغرف:

- اتفضلوا الأولاد من هذا الباب والبنات من الباب المجاور، ستجدون حمامات للاستحمام والنظافة وملابس لتغيير ملابسكم المتسخة والممزقة، بعدما تقوموا بهذه الأمور اجلسوا مع بعض، فكروا ونحن في انتظاركم.

أشار لهم أن يتحركوا فتحركوا، ذهبوا إلى البابين ودخلوا.

حين دخل تامر وجلال استرعي انتباههم هذا السكون الهائل للغرفة التي دخلها معهم كريم ووائل وصبري، كانت

معتمة وأضواء الخارج فقط التي تنيرها لكن اتساعها كان واضحا بما يوحي برهبة ورجفة، لم تتضح محتويات الغرفة ولا مداخلها ومخارجها في قلب هذه العتمة ذات الإضاءة الخافتة؛ فبحثوا عن زر الكهرباء، تنهد وائل وهو يعلن أنه قد وجده، ضغط عليه فاشتعل المكان نورا نهاريا ملأ المكان صبحا، سمعوا صرخة دمدمت في آذانهم، مصدرها كان قريبا ولصيقًا بهم، كانت صرخة سارة حيث التفتوا يسارا فوجدوا عزة وغادة وسارة وقد وقفن نفس وقفتهم وأدركوا أنهما كانا بابين يفتحان على غرفة واحدة، أرشدتهم صرخة كريم هذه المرة وذهلوا كيف لم يلاحظوا لما اهتزت أصابع كريم مرتعشة وهي تشير إليه، كان شيئًا هائلاً ومقبضا تماما، الغرفة الواسعة التي خلت من أي قطعة أثاث، كل جدرانها حتى التصاقها بالسقف والسقف ذاته قد التصقت عليها صفحات الوفيات المنشورة في الصحف، غطت صفحات الوفيات كل سنتميتر من جدران الغرفة، وعبأت سقفها وسماءها، وغطت نوافذها إن كانت لها نوافذ، كانت الغرفة تتسع أكثر في أبصارهم وسقفها يرتفع جدا فوقهم، لما أشار جلال إلى الصور التي تتصدر بأحجام كبيرة وبتكرار منتظم

صفحات الوفيات المعلقة على الجدران، سقطت سارة متهالكة من الصدمة، وانهار صبري في بكاء محموم وتيبست سيقان الجميع وأنفاس لاهثة تصعد من صدر وائل كأنها مقدمات صعود روحه، كانت الصور كلها في صفحات الوفيات لوجوه قاسم وزهدي ورفاعي وفكري، تتكرر نفس الصور في نفس الصفحات التي كانت من عدد واحد من صحيفة الأهرام ملتصقة على كل الجدران، وزارة العدل تنعي رموز القضاء المصري السيد المستشار قاسم حسين علوي رئيس محكمة النقض والسيد المستشار زهدي نجيب نائب رئيس محكمة النقض والسيد المستشار رفاعي أيوب نائب رئيس محكمة النقض والمستشار فكري صالح نائب رئيس محكمة النقض، وصورهم منشورة بالأبيض والأسود وبالبنط الأسود الضخم كتبوا الآية القرآنية ﴿**يا أَيتُها النفْس الْمطْمئِنةُ.. ارجِعِي إِلى ربكِ راضِية مرضِيةً. فَادخُلِي فِي عِبادِي. وادخُلِي جنتِي**﴾ ثم ينعي نادي القُضاة فقداء العدالة، وتتكرر الأسماء والصور، وتمتلئ الصفحات بنعي من جهات الدولة والحكومة وعائلات المستشارين وأقاربهم، كانت عيون جلال

زائغة تمسح الصور بنظراتها وقد قبضت على كفه يد وائل وهي ترتجف بضخامتها:

- معقولة، موتى ومعانا بره وبيكلمونا....؟؟؟؟

وصرخت عزة:

- أشباح فعلاً.

التفتت غادة إلى باب الغرفة مرعوبة بكلماتها وحركة جسدها:

- تفتكروا ح يعملوا فينا إيه....؟

- أنا عايز أعرف ليه دخلونا هنا، وما مصلحتهم في أننا نعرف إنهم موتى وأشباح...؟

كان جلال حائرا وزائغًا ومتهتها هو من سأل هذا السؤال المترنح منطقًا، والذي لم يجبه أحد عليه، لكن تامر الذي دار حول نفسه أكثر من مرة وحلق في السقف كثيرا تساءل وهو يرفع سارة عن الأرض ويسلمها لكريم المبهوت:

- إزاي يا جلال كل المستشارين دول ماتوا مرة واحدة ومع بعض، مش غريبة...؟

كان أصبع صبري طال كأنما أصبح مؤشرا وهو يشير لصفحات ملصوقة أطرافها داخل صفحات الوفيات، ذهبوا

جميعا نحوها، وفي وهن وضعف بدأت عزة تقرأ ما هو مكتوب ومنشور ومعلق:

- هذا عنوان يقول: مصرع رئيس محكمة النقض وثلاثة مستشارين في حادث مروع.. وتحته عنوان أصغر: اصطدم أتوبيس القضاة مع سيارة نقل في الساحل الشمالي. وعنوان ثالث أصغر: نجاة السائق وحرس المستشارين وتحكم السيارة. ومن أول السطر مكتوب: شهدت منطقة الساحل الشمالي صباح أمس حادثًا مروعا فقد اصطدمت سيارة نقل مخصصة لشحن معدات شبكات الكهرباء مع أتوبيس من نوع الميني باص يقل عددا من القضاة والمستشارين الذين انتهوا من المشاركة في مؤتمر دولي عن القضاء والعدالة الدولية انعقد بمدينة العلمين لمدة يومين في ذكرى الحرب العالمية الثانية، وحضرته وفود من قضاة ممثلين لعدد من الدول الأوربية والعربية، وفي ساعة مبكرة من صباح أمس انطلقت سيارة الميني باص لتعود إلى القاهرة تحمل المستشار قاسم حسين علوي رئيس محكمة النقض والسادة المستشارين زهدي نجيب والمستشار رفاعي أيوب والمستشار فكري صالح نواب رئيس محكمة النقض، وبعد انطلاقهم بدقائق

اندفعت سيارة لنقل معدات الكهرباء في اتجاههم؛ فحاول سائق أتوبيس القضاة تفاديها، لكنه لم ينجح حيث اصطدم بالسيارة وانتقل إلى مكان الحادث المروع مساعد وزير الداخلية فتحي أبو السعود والسيد مدير أمن مرسى مطروح شحاتة سليمان وعدد من قيادات أمن المنطقة، وقد تم نقل السادة المستشارين إلى مستشفى مارينا العلمين، حيث لفظوا أنفاسهم الأخيرة، وأكد السيد مدير الأمن أن أجهزة الأمن لن تهدأ قبل أن تلقي القبض على سائق سيارة النقل الهارب، وقد أعلنت وزارة الكهرباء أن هذه السيارة خرجت في غير موعد مخصص لها، وأنها اعتبرتها في حكم السيارة المسروقة، حيث ثبت أن جميع سائقي شبكة الكهرباء كانوا متواجدين في أماكن أخرى بعيدة عن مكان الحادث وقت وقوعه، وترجح مصادر أمنية أن السيارة تم سرقتها من جراج شبكة الكهرباء، وهي محملة بمعدات مسروقة كذلك، وجاري التحقيق مع مسئولي الجراج والتحميل بكل فروع شبكة الكهرباء.

غادة قد تحولت شفتاها إلى اللون الأزرق الميت، تحسست بأصابع مرتجفة صور المستشارين المنشورة وقد غطى

وجوههم دم كثيف وبانت جمجمة المستشار رفاعي مكسورة، وفي صورة أخرى كان جسد زهدي مفرودا على محفة والدم يكسوه تماما، قالت غادة:

- أنا مش مصدقة نفسي، كابوس يا كريم..!.

كريم كان قد نزع صفحة جريدة أخرى معلقة، وأخذ يقرأ فيها وجسده كله مع لفظ أنفاس كلماته وحروفه يهتز ويرتجف:

شُبهة جنائية في وفاة رئيس محكمة النقض ونوابه الثلاثة، هل هي مجرد حادث أم جريمة قتل مدبرة؟ أين ذهب سائق سيارة النقل الهارب..؟ وكيف لم تتمكن الداخلية من القبض عليه حتى الآن..؟ كانت هذه هي العناوين يا جلال. ثم قدم صفحة الجريدة لجلال الذي أمعن فيها:

- جورنال مش حكومي، أنا افتكرت الحادثة دي...

رد تامر وقد انسحبت روحه وحدق في باب الغرفة:

- حادثة ولا جريمة.....؟

سحب وائل الجريدة وأكمل القراءة همهمة حتى علا صوته بسرعة:

- اسمعوا، يلقي توقيت الحادثة بظلال من الشك حول طبيعتها، خصوصا أنها جرت بعد أسبوع من حكم النقض ببراءة الدكتور كامل المسلماني لخمسة عشر عاما من تهمة نشر أخبار كاذبة عن البلاد في الخارج، وبث إشاعات تهز ثقة الشعب في نظام الحكم وزعزعة السلام الاجتماعي، وهو الحكم الثالث لمحكمة النقض الذي تصدره في هذه القضية على مدى ثلاث سنوات بعد أن أبطلت حكمين سابقين بسجن دكتور المسلماني وهو أمين عام حزب الجبهة وأهم معارضي الرئيس شهرة في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، والحادثة نفسها تأتي قبل يومين من إعلانم محكمة النقض حكمها في قضية نائب مرشد عام جماعة الأخوان المسلمين المحكوم عليه بخمسة عشر سنة سجن بتهمة تلقى رشاوي دولية...

في رعب يزداد بالجهل قالت عزة:

- أنا مش فاهمة ولا كلمة.

رد تامر:

- تعالوا نخرج نفهم.

علقت غادة:

- من غير ما نستحم فعلاً ونغير هدومنا.....؟؟!

الجميع اعتبر جملتها خرقًا لا يستحق الرد، لكن وائل أمهلهم وهو لا يزال يمسك بجريدة وقال:

- هنا فيه خبر بيقول إنه صدر قرار من النائب العام بحظر النشر في قضية حادثة المستشارين.

سأله صبري:

- هل قبضوا على سائق النقل؟

ظلال ابتسامة ساخرة رقصت على شفتي جلال، كانت الأحرف السوداء تهتز على الصفحات المعلقة، تتحرك أمام عيونهم مفكوكة ومتحللة، تسقط من الصفحات وتتساقط على الأرض محدثة صوتًا معدنيا له رنين مكتوم ورفيع، آلاف من الحروف تبرز من الصفحات على الحوائط، ترتجف وتهتز، تتفكك ميمات وشينات وصادات وألفات وياءات ونونات وحاءات، وتقفز من سطورها وورقها، وتطير أمام أعينهم لتتهاوى على الأرض التي امتلأت بحروف متكسرة ومحطمة ومتحركة كأنها الأسماك ترتج فيها الروح بعد موتها، تتقافز على أقدامهم وأحذيتهم تخبط في سيقانهم، شعروا به أشواكًا ودبابيس تنخز وتجرح وتشُك، بينما

تصفعهم الصدمة إذا بصور المستشارين تخرج من إطاراتها في صفحات النعي والوفيات، تنزل مشيا من الجدران للهواء الفاصل بينهم، تمزق الصفحات وتخربش الجدران، تهبط للأرض والبلاط، تمشي بينهم برؤوس بلا أجساد، والنصف العلوي من كل صورة لكل مستشار تدور وتلف وتتخطى الحواجز، كأنها لعب ودمى تتحرك بالزمبلك أو أجهزة التحكم عن بعد، لامسوا صدور وأكتاف الشلة كلها، وسط الصراخ والنحيب والاضطراب والارتباك خرجوا يتقدمهم جلال وتامر من الباب مبهوتين مذهولين محدقين ومحملقين مكسورين ومرتبكين ومرجفوين ومشوشين وشاحبين ومتجمدين وراكعين النظرات والقسمات والكلمات، أمسكوا دون أي اتفاق بأيدي بعض متشابكة الأكف والأصابع، عبروا إلى قاعة الفيلا فلم يجدوا أثرا للمستشارين، وجدوا صور الشلة هناك، صورا لأنفسهم مذعورين مفزوعين تجري على شاشات أجهزة التليفزيونات الأبيض والأسود، وقد صدرت منها أصوات صراخ وزعيق، فزع ونجيب بكاء ترتتفع من المستوى المنخفض إلى أعلى وأعلى حتى تكاد تخرق الآذان، عزة ارتجت وهي تشير لهم على اللوحات المعلقة على

الحوائط، كانت ساعتها مياه الأمواج في اللوحات المرسومة تندلق وتنزلق من اللوحات إلى الأرض، تتسرب قطرات ونقطًا وبقعا، ثم تكثر وتتكاثر لتغرق الأرض وتنتشر على السجاجيد والبلاط وردهات خشبية وتصل إلى أحذيتهم وعظام أقدامهم، جروا نحو باب الخروج من الفيلا فهبطت المراوح من الأسقف حتى وصلت إلى حواف رؤوسهم وقد دارت ولفت بأقصى سرعاتها التي أطلقت وشيشًا صاخبا مخلوطًا بأصوات الصراخ والنحيب الصادرة من أجهزة التليفزيون، مما طغى على حناجرهم الصارخة في قلب الفيلا، أمرهم جلال بخفض رؤوسهم فورا لتفادي قطع رقابهم، كانت المراوح لا تزال تقترب إلى أسفل بسرعة أقل فبالغوا رعبا في الاستجابة فناموا على الأرض بصدورهم وزحفوا بأجسادهم لاهثين ممزقين من الارتعاش والارتجاف، ترتفع عيونهم إلى فوق حيث المراوح الهابطة خوفًا وتغرق ملابسهم وأجسادهم في ماء منهمر يغمر الرؤوس ويبلل النظارات الجزعة الفزعة ويحول دون رؤية واضحة فيضلون حتى تكاد تنقطع أنفاسهم وتنسحب أرواحهم من أجسادهم المنهكة والمنتهكة، اصطدم رأس وائل بشيء فصرخ ظن أنه

ريش مروحة قاتلة، لكن جلال خبطه في ظهره وهو يشده من شعره ويهتف فيه:

- افتح الباب، افتحه من عندك..

كان باب الفيلا وقد تشاركوا في فتحة وهم زاحفون على الأرض، أول ما خرجوا وطلوا بنظرات عيون مبلولة على الفضاء خارج الفيلا، حاولوا النهوض في مشقة وبطء وتردد مخافة ملاحقة المراوح لرقابهم، اتكأوا واتكلوا على بعض، وتكاتفوا وتساندوا، ووقفوا ثم أفاقوا لنجدتهم فهبطوا سلالم الفيلا جريا لاهثًا، وحين وصلوا إلى بوابة الفيلا الخارجية وقد عبروا ممشى الجنينة ومروا على مساحات الخضرة والشجر تسمروا في أمكانهم، وقد أصابت كل خلجة من خلجاتهم حالة من الشلل التام والمؤكد، كانت دائرة من أصحاب الجلابيب السوداء والعمامات والأوشحة الخضراء الملفوفة على الصدور والرؤوس كأنها لثام لا ينخلع أبدا، قد التفوا ووقفوا في مواجهتهم ويحاصرون الشلة كلها في قلب دائرة محكمة، وفي لحظة بارقة مارقة أخرجوا جميعا من طيات جلاليبهم وعباءتهم سيوفًا من جواربها، من مكامنها،

سيوف بدت حادة ومسنونة ولامعة وهي تهتز ملوحة أمام عيونهم.

كانت الشمس على الحافة الخلفية للأفق في طريقها لشق الوجود القاهري الممعن في ترف السهر وسهر الترف، هنا في هذه الفيلا المترامية في قلب منطقة بني أُمية كما أطلقت عليها فيرونيكا، ضحكت بصوت صاخب وبكلمات تصحب حوافها بخار حمام السباحة:

- طبعا شوية جهلة مش عارفين مين بنو أُمية؟

شرر النظر المخلوط بشبوب العواطف كان رد فعلهم الوحيد على مهاجمة فيرونيكا، كان ضعفهم تجاهها ينمو فروعا حول شجرة حبهم الجارف المشترك لها، ضبطوا أنفسهم ذكور نحل لتلك الملكة القادمة من روسيا لترقص على خشبة قلوبهم، سألت عزة في نوبة حسد ويقظة تأمل طبيبها النفسي:

- هل ناس بغِنَى هؤلاء الشبان وفتوة مراكز آبائهم وسطوة عائلاتهم المالية والسياسية في حاجة أحيانًا للتهزيق والمرمطة على يد امرأة.. هل هذا مرض نفسي يا دكتور؟

ابتسم واستفسر فأضافت:

- يعني لما تقول لواحد فيهم ـ جلال اسمه جلال ـ إنت يا جاهل فاكر نفسك إيه، أبوك صحفي منافق وانت تعاب لا تُفزع إلا فراخ وأرانب بلدكم، على فكرة أنا قمت صرخت فيها ليلتها وقلت لها مبقاش غيرك انت يا رقاصة شحاتة من موسكو اللي تقولي على شعب مصر فراخ وأرانب.. عارف يا دكتور جلال نفسه ووائل وتامر وكريم، حتى غادة ضحكوا على وقال جلال اسكتي انتي يا عبيطة، هي فيرونيكا التي دافعت عني وقالت لهم اعذروها فاكره نفسها في برنامج صباح الخير يا مصر.

لم يفهم الطبيب كثيرا عن فيرونيكا، ولكنه أخبرها أنه يمكن للإنسان.......

فقاطعته عزة قائلة:

- قبل ما تكمل يا دكتور، جلال لا يمكن يكون إنسان، ولا واحد فيهم.

ضحك الطبيب وفسر:

- نعم هناك جانب مرضي، في ناس معينة ممكن يتلذذ بالإهانة، وهناك جانب سوي في أي مريض يمكنُه أن يسمع كلاما خالصا وشجاعا وغير منافق لعل ذلك يوقظ ضميره.

لم تكن عزة تؤمن أن لهم ضميرا، حتى هي، لكن ربما هي الوحيدة التي تشكو حتى المرض من أطلال ضميرها، أما هم فلا شيء يهز قلاع حياتهم الحصينة بما في ذلك مدافع فيرونيكا التي كانت عزة تضبط نفسها تحبها وتعجب بها أحيانًا وهي تلعن سنسفيل عائلات هؤلاء الرجال الذين يلحسون حذاءها دون أن يلمسوا ثمرة صدرها، عنف فيرونيكا غلافٌ سميك يلف هذه الرقة الشفيفة التي تلم القلوب في قبضة يد ناعمة رغم عظام أصابعها التي تبدو نحيفة وبارزة، فيرونيكا ديمتري نيكولاي، شبت في قلوبهم نار الحرائق لما شافوها مع تامر، جلست بينهم وهي تبتسم وتلتفت وهي تحدق في قوة وجسارة في الأحداق، أبعد وأعمق نقطة في نفق الحدقة، تقتحم نني العيون كأنه علاج بأشعة الليزر لقصر النظر، كانت أكبر سنًا منهم قليلاً، عودها الباليهي برقته ودقته وانحناءاته المنحوتة بأزميل الطبيعة مع خفقة رقصتها ضمن فريق الاستعراض الروسي، مع ميل الغصن الأعلى من جسمها بثمرة المحرم اليانع، يجعلها في منطقة فينوس التي تجز شهوانيتهم من جوف أرواحهم، أما حين تجلس وتنظر وتناقش وتنْقُشُ وشمها على عقولهم

فيدفعها ذلك إلى منطقة الأستاذة والمرشدة، شيء ما في فيرونيكا لم يجعلها من اللحظة الأولى معهم تلك الراقصة الروسية التي تتقدم زميلاتها في استعراض النادي الليلي في هذا الفندق الحديث، الذي صار تجمع شباب تلك الطبقة، جلال حاول أن يمد يد نفوذه فقطَعتْها سكين حسمِها، وائل كان من يومها حاجا إلى معبدها، اكتفى بالاحتلام دون الحلم، كريم تجنبها وتجاهلها وتحاشها؛ فسقط صريع هواها، أما تامر فرغم تعرفه الأول بها، إلا أنه كان يدرك أنها تغوص في غموض وتلوذ بحصن أبعد ما يكون عنه سورا، صبري اتخذ موقعه المعتاد في مطبخها ليس إلا سارة عشقتها وكانت الألكترون المصاحب للنواة، زهرة عباد الشمس المقبلة على قبلتها أينما كانت، وأضمرت غادة وعزة كراهية تنفث حقدا واحتلت هذه الدائرة المسورة بأسلاك كهرباء عارية في حياة الشلة، بيضاء بحمرة تمزج بين وهم الخجل وطزاجة الحسن ونحافة بسمنة تظهر في نقطة منطقة ما تستحق السمنة، أطول امرأة قصيرة، صوتها قوى بنعومة، وشفتاها مع أنفها حالة نفرتيتية مدهشة، تتحدث اللغة العربية بما يناسب فتاة روسية أنجبتها أمها في حلوان بفيلا بجوار عيونها الكبريتية،

حينما كانوا يمرون عليها بعد العرض فتركب مع عزة في سيارتها، بينما تتلاحق وراءهم سيارة شيروكي واحدة يقودها كريم أو جلال، فتدخل بهم في حواري وأزقة وتعبر مناطق ضيقة وشوارع متربة ثم تقف فتذهب بهم عند عربة فول مدمس، يكتشفون حضور البعض في ساعات الفجر من أجل تلك الأكلة السخنة الجماهيرية، في توقيت يخلو من جماهيرها، تقترب من معمل المدمس في المحل المفتوح خلف العربة، وقد جلس صبيان وعجائز مع نيران المواقد ونقل القدور وتفريغ جوالات الفول الخام، تحاورهم وتضاحكهم وتمد يدها خلسة فتضع جنيهات في جيوبهم وكانت تسيطر على عيون الباعة الذين يتجاهلون البكوات وحالة النفوذ الفاضحة التي تنفث مع عطورهم بينما يقبلون على الملكة، كان هذا لقبها عند عربة الفول أو لدى بائع الكبدة وسندويتشات السجق على ناصية باب النصر، الذي كان يصب لها الشطة الحارة وهو يشير لها على سطر في قائمة الطعام لسندويتش شرائح كبدة مشوية؛ فتنطلق في ضحك يفجر الشجن والشهوة، لقد أطلق على هذا السندويتش اسمها، وعندك ستة فيرونيكا حامي وصلحه، وفي دروب

قاهرية لم يتصوروا أنها موجودة سوى في أفلام السينما الأبيض والأسود، تأخذهم لعربة كشري على قدها وهي تؤكد لهم ولصاحب العربة أنه سيكون أهم بائع كشري في مصر خلال ستة أشهر، وتظل تتابعه وتتابعهم حتى تتحقق نبوءتها مع هذا الزحام المتكالب عليه وعلى كشره، لم يكن لها أصدقاء سواهم رغم أنها هي التي تقول في مواجهتهم:

- أنا مش عارفة ربنا بلاني وابتالني بيكم ليه..؟

يرد تامر:

- صحيح انتي كان لازم تعرفي مثقفين كبارا أو شعراء ومخرجين سينما.

ويضيف وائل:

- أو عيال خرتية من الذين يصاحبون الخواجات وينامو معاهم ويقبضوا منهم.

فترد فيرونيكا كصاروخ أفلت من حاملة طائرات:

- مبقاش إلا انت يا مزور يا بن المزور اللي تقول عليه خواجاية، انت مغشوش في الشعر الأصفر والتلات لغات...؟ لا يا حبيبي أنا باحب البلد دي أكتر من أي هِلاف فيكم عايش على تدمير اقتصادها وسرقة ثروتها وتزوير انتخاباتها.

كان وجه وائل يغلي بحمرة العار، لكنه وقد تعود على قذائفها الكيماوية الشريرة يصمت وتتكلم غادة:

- لكن ليه انتي صحيح مصحبانا يا فيرونيكا......؟

ردت في ابتسامة تمحو غضبه المنفلت:

- انتوا اللي صاحبوتني، ثم أنا مصاحبة مصر كلها

انتفض جلال:

- يعني إيه؟

- ليس المعنى الذي يعشش في ذهنك يا جلال.

- وماذا في ذهني؟

- انت بتقول أكيد هذه المرأة تلعب علينا دور الراقصة الشريفة العفيفة، وتلاقيها تعرف رجالة قد كده ومستعبطانا، والنبي فيه في البلد دي رجالة شُبان مثل الفُل وسامة وكمال أجسام ومال ونفوذ وعز أكتر منكم، مستحيل يبقى أكيد أنتم الأولى لو كنت راقصة غانية.

لا تزال تذكر هذه الليلة كأنها بالأمس، ليلة السادس من أكتوبر ألف وتسعمائة وثلاث وسبعون، في مبنى السفارة السوفيتية، وقتها حيث كان هناك اتحاد وكان سوفيتيا، تلك الوجوه المزدحمة من النساء الخائفات والمرتبكات، أطفال

صغار وصبية في سن المراهقة، وقد أرهقهم سهر مفاجئ وغياب عن المدرسة وإعداد حقائب ولم لعب وأمهاتهم يبكون وآباؤهم في صلابة يربتون عليهن ويقبلون الأولاد ويوصون على سماع كلام الأمهات، كان العدد قد وصل حسبما سمعت من "يودين" سكرتير السفير السوفيتي فلاديمير فينوجراف إلى ألفين وسبعمائة من نساء وأطفال الخبراء السوفييت في مصر وموظفي مصانع وشركات ومشاريع الكهرباء والسد العالي جاء القرار واضحا واستأذنوا الرئيس أنور السادات أن يقوموا بترحيل عائلات العاملين السوفيت من مصر قبل إعلانه حرب أكتوبر بساعات، وافق وفي وقت قياسي كانت الأمهات والزوجات والأطفال السوفيت يركبون أتوبيسات ذات موتور عالي الصوت وقوي السرعة، مغلق النوافذ ومسدل الستائر، وموسيقى سيمفونية تتصاعد من كاسيت الأتوبيس وبعض من النساء يترنمن بأغاني جلب النوم لأطفالهن متجهين إلى الإسكندرية، في ليل رمضاني معتاد الضجة والصخب، حيث يغادرون في سفن، ومنهم من توجه بالأتوبيسات إلى مطار القاهرة، دخلوا في طابور منظم من باب خلفي وفي حراسة من شرطة ذات ثياب رسمية ووجوه

قلقة متحفزة وآمرة ناهية في عمال وموظفين، وعجلات حقائب وحزمات من جوازات السفر مرصوصة ومضمومة في حقائب جلدية صغيرة معلقة على كتف شخص تدور العيون كلها من ظهره لوجهه، من كتفيه لساقيه مطرح ما يروح، ذهبوا في رحلات جوية سرية وخاصة ومفاجئة وليلية إلى موسكو أو غيرها، سواء وارسو أو بودابست، ليلتها شمت رائحة الخطر والخوف وهي لا تزال ابنة الرابعة من عمرها، ممسوكة بقبضة أمها الطويلة والعريضة والمتماسكة، كان وداعها قصيرا لوالدها الخبير الهندسي لصواريخ الدفاع الجوي قبل أن يذهب للجبهة في مواقع متقدمة للجيش المصري في مواجهة إسرائيل، فيما بعد وحين كانت تسمع كلمة حائط الصواريخ كانت تتخيل صورة والدها مرسومة عليه بطول وعرض الحائط، كانت أمها من مسئولي السفارة مع لوياتين ولوباتشيف وأكوبوف الذين لم يناموا طيلة يومي الرابع والخامس من أكتوبر أكثر من ثلاثة ساعات لإخلاء سري، حيث أعلمهم السادات بأن شيئًا ما سيحدث ولم يشُكوا أنها الحرب، وفي بزوغ فجر اليوم الثالث رفضت أمها أن تركب آخر أُتوبيس للمطار وقالت إنها

ستظل مع ابنتها وزوجها ديمتري نيكولاي في القاهرة، لكن والدها لم يكن في القاهرة، كان هناك في الجبهة المصرية مع مترجم اللغة الروسية محمد شرف صديقه منذ جاء والدها لمصر بعد حرب السابع والستين، سكن في مساكن العاملين السوفيت، ثم أجر له محمد شرف بيتًا صغيرا في حلوان ذلك الذي ولدت فيه فيرونيكا بعدها بعام، لا تزال تتذكر حديقة البيت بشجرة ليمون وحيدة وارفة وزاهية، وممشي الخضرة وأحواض الجرجير والنعناع، وحوض الورد البلدي الذي أمسك بها والدها ووضع يده في أصابعها وفردها لتقطع الوردة الأولى في أول شجرة تنبت وردا، بينما أمها تلتقط الصورة الأبيض والأسود تلك الكاميرا السوداء الثقيلة ذات العدسة الضخمة، تضع هذه الصورة على زجاج تسريحتها في الفندق، تتذكر الجنايني عبد الهادي الذي كان والدها يداعبه ويسأله هل أنت قريب عبد الهادي بتاع فيلم الأرض؟ بحثت عنه لما رجعت لمصر وبحثت عن البيت فوجدت الرجل قد مات، والبيت قد انهد، فأدركت أنها لم تجد مصر التي تركتها، كان والدها فخورا بعشقه للحضارة المصرية واختلط مع عدد من الأصدقاء القريبين من محمد شرف

وكانوا جميعا اشتراكيين متحمسين للغاية بينما كانت مهمة والدها بعد الكأس الثالث من الفودكا أن يسخر من اشتراكيتهم، ويخبرهم أنه يحب الاشتراكية فقط لأن لديه قلبا، لكن من يملك العقل يعرف أنها مجرد حلم رجل عاطل هو كارل ماركس، كان يتفق عليه صديقه ألفريد إنجاز وكان مصطفى شقيق محمد شرف يأخذها من يدها في هذه الجلسات الممتدة لصبح حلوان، ويستغل أنه أكبر منها بعشر سنوات ويرفعها فوق كتفه وتمسك له بحبات التوت في تلك الشجرة التي تتفرع من البيت المجاور حتى جنينة بيتهم الذي يعج بصخب السهرة الممزوجة بأكواب البيرة وكؤوس الفودكا وسندويتشات الرومي والجبنة الحلوم وأطباق الزيتون وصواني الخيار المقطع والخس المغسول والمفروش بورقاته على صحون بلاستيك مندية، كما كان مصطفى يستغلها في سرقة زجاجات بيرة له من خلف أخيه الذي يمنعه من شربها لصغر سنه، لا تزال تلك الصور تصطخب في أحلام فيرونيكا وتسطو على كابوسها هذه اللحظة التي دخلت على أمها مطبخ بيتهم فوجدتها محنية واضعة ذراعيها بمرفقيها على فخذيها، وكفاها يحتضنان وجهها بخبئانة وقطرات من

ماء دمع تتسرب من أصابعها، وجسدها يرتج ووقع صوت الكرسي على البلاط يقرقع من هز أمها له، همست بذعر طفلة:

- ماما...

انتبهت أمها، ورفعت كفيها فبان وجه متغضن مقطب باكٍ ومبال بدموع حمرتْ خديها وأنفها، خطفتها في حضنها وعرفت بعدها أنه اليوم الذي عادت فيه أمها من مستشفى المعادي، حيث أخبرها السفير بإصابة زوجها على الجبهة، وأمام غرفة المستشفى قال لها طبيب بزيه العسكري:

- نحن آسفون جدا يا هانم، السيد ديمتري فقد بصره أثر ضرب موقعه على الجبهة، فنال شظايا أحرقت جزءا من جبهته، وحتى أنفه بينما فقد بصره تماما.

وحين بكى أمامها ديمتري وهو يمسك يده فاختلطت الأكف المرتعشة، وفيما يشبه النحيب المشترك أخبرها أن محمد شرف قد استشهد؛ فشهقت وبكت فشافَ دموعها رغم عماه، بعد عام من حرب أكتوبر عادت أسرتها إلى موسكو، أمها الموظفة الإدارية في الخارجية استمرت في عملها الحكومة ووالدها عاش على معاش التقاعد، بينما كرس حياته

لدراسة اللغة العربية إحياء لذكري صديقه محمد شرف، أما فيرونيكا فقد كبرت وقد تدربت وتعلمت رقص البالية وانضمت إلى فرق الهواة ومدارس البولشوي لكنها في اللحظة الحاسمة لاختيارها أصبحت طالبة في الآداب وتخصصت في الأدب العربي، في آخر سنة دراسية لها مات والدها جاءت لتوقظه في الصباح فلم يرد ولم يصح، قال لها الطبيب إنه مات بذبحة صامتة، ويوم وقف يلتسين على الدبابة في الميدان الأحمر لينهي الإنقلاب ضد جورباتشوف ويتمكن من رقبة الدب الروسي انتحرت أمها، وفي انحدار الاتحاد السوفيتي ومع تفكك الإمبراطورية تفكك كل شيء في حياتها، ووجدت نفسها تجمع بقايا الطعام من صناديق القمامة وتشرب الفودكا المخطوفة من أيدي السكارى الهائمين في الشوارع وتحمي نفسها من البرد باحتضان الكلاب المتشردة وتمد يدها للتسول أمام السياح في الميدان الأحمر، وفي بار حقير في زقاق مجهول تعرفت على نادية التي أخبرتها عن الجنرال عباس المصري، كان لواء سابقًا في الشرطة وتدرب فترة في موسكو، أما الآن فهو صاحب مكتب تشغيل فتيات استعراض وراقصات روسيات في مصر والبحرين، تقدمت

له في موسكو في تلك الغرفة الضيقة في هذا الفندق المتوسط خصصها لاختبار واختيار البنات، كان جهما وغليظًا وسمينًا، أدركت من الوهلة الأولى أنه لن يقبلها لو عرف خبرتها ولغتها العربية، هو في حاجة لقطط مغمضة فغمضت، وجاءت لمصر بتعاقد سنوي مع نادٍ ليلي، على أن يحصل الجنرال عباس ومكتبه على ربع قيمة الراتب السنوي، عندما وصلت فهمت أن المطلوب عاهرة نظيفة راقية، قامت ثم بدأت تستخدم لهجتها المصرية وأداء الملاءات اللاف الذي شاهدته في الأفلام السينمائية، وخربشت وتوحشت، وبنت سورها في حديقة الحيوانات المفتوحة التي تعمل بها، أول ما فعلته هو البحث عن مصطفى شرف، كانت متأكدة أنها ستلقاه وسيعرفها، تقطعت خيوط الوصول إليه، زارت بيتهم القديم فوجدته متهدما، راحت للحي الذي كان يعيش فيه فلم تتلقَ أي جواب على أسئلتها، ضابط من شرطة السياحة لما سمع صديقة لها تحكي أمامه عن صاحبتها التي تبحث عن جارها المصري القديم وعدها بأن يجده لها، بعد يومين كان الضابط يخبرها أن مصطفى شرف يقضي عقوبة الأشغال الشاقة خمسة عشر عاما في سجن طرة شديد الحراسة على

ثمة قضية العائدين من أفغانستان، فقد ذهب هناك ليجاهد ضد السوفيت وينصر الإسلام ويرفع رأيته، ولما عاد سرا عن طريق السودان قبضوا عليه في تنظيم يخطط لعمليات إرهابية في مصر، لم تصدق فيرونيكا، لكن الضابط وهو يتأسى قدم لها صورة مصطفى بلحية كثة وملامح جادة، وتلك النظرات التي تعرفت عليها فورا، وفهمت أن هذا العالم أكثر قسوة مما تحتمل، بعدها تعرفت على دكتور تامر الذي دخلت معه شلة أنجال السادة، ومن الرمشة الأولى تعاملت معهم بهذه الروح الاستغنائية التي تتعفف عليهم وتتقرف منهم، أظهرت كل ما أطمرت داخلها من عدوانية وعدمية، كانت تدوس على جروحهم الشخصية بحذائها، جردت قلبها من شفقته وهي بينهم تسمع وترى وتعيش وتنصت وتتصنت وتسترق السمع وتختلس النظر، وتحضر المشاهد وتشارك في المناظر، وكانت كلما أمعنت في سفك كرامتهم تشدهم إليها فراشات يحترقن حول نار اللهفة المجهضة والشهوة الممنوعة والرغبة المكبوتة، وحدها سارة التي تشابكت قلوبهم ربما لأنهم عافوه حين كان شعرها يتساقط من العلاج الكيماوي، ربما لأن استشراء السرطان في جسدها كان

يصنع من تلك الفتاة المرفهة الغافلة المدللة مشروعا تطهريا يغسل ذنوب عالمها بإشعاعات الكيماوي، كانت فيرونيكا إذا سلمت على الشلة قبلت قبلة التحية العابرة الباردة، يومها أقبلت على جلال فسلمت وقبلت، فإذا به يطيل القبلة ويلصق الشفة على الخد فتدفعه بقبضة يدها متعجلة ومتغاضبة، وبعنف بدا مؤكدا في غلاظتة وقرفة، ضحكت غادة لما لمحت اللحظة بينما أطرق تامر وقد تسمرت نظرات وائل، في الركن الزجاجي المطل على حمام السباحة وهم يتابعون قفز فيرونيكا وغادة في الماء مع أضواء القصر الناعسة، سكب جلال في جوفه لهب الكحول بينما قال وائل:

- لازم تتأدب....

دخل كريم وهو في ملابس السباحة وقال متهللاً:

- سارة جاءت يا جماعة.

لمحوها وهي تدخل، فتهب عزة من جلستها المسترخية إليها، وتندفع فيرونيكا وغادة صاعدتين من الماء نحوها، كانت ترتدي بنطلونًا وقميصا بسيطين وتلف رأسها بإيشارب محكم وأنيق يخفي صلع الكيماوي، قال تامر:

- المسألة بتأثر في قوي.

- هل كنت تفضل ألا تراها؟

قالها جلال ويبدو أنها الجملة التي وافق عليها الجميع بهزات الرؤوس وإيحاءات العيون وإيماءات الأيدي، في اليوم التالي تحرك وائل، أخبر جلال أنه تحدث مع اللواء عباس ورد جلال:

- لما نشوف.

وشافوا.

كان تامر يمسك بعصا الجولف وقد ارتدى زيا رياضيا ثمينًا وأنيقًا، ووقف بجواره كريم وهو يتابع اللعبة، ويتمم على ردائه الأنيق الذي يبدو كأنه لاعب جولف أمريكي على غلاف مجلة رياضية متخصصة، كانت فيرونيكا متأكدة أنهما لا يلعبان بإتقان أو حرفنة، لكنهم يستكملان جوانب الغِنَى وشروط الطبقة، الساحة الخضراء بمرتفعاتها ومهابطها، خضرة نضرة ومشذبة ومنضبطة في قلب بلد تتعاطى العشوائية وتعيش على الفوضى، الأشجار الباسقة وقد جاءت جاهزة من أوروبا، نخلات كأنها مرسومة في لوحة من الطبيعة الصامتة، حفرات الجولف وكأنها عيون أرضية مداسة تحت الأحذية الرياضية برايات وأعلام على عيدان

من معدن، تضربه رياح خفيفة فترفرف الرايات، سيارات الجولف تمخر في الطريق، وقد هبط منها بزيه المعتبر والمنمق جلال ووائل الذي بان عليهما ترقب انفجارات صغيرة من فم فيرونيكا الفالت، ما الذي ستفعله وقد أخبرها اليوم اللواء عباس أن عقدها انتهى مع المكتب والنادي الليلي ولتعتبر نفسها مفصولة بلا مال أو تعويض من الغد، اقتربا وقد التف فجأة صبيةُ الملاعب خلف الجميع يمسكون ويحملون جرابات الأدوات وزجاجات من العصائر وقطعا من الشيكولاتة المغمسة بالنبيذ، فجأة وقد ركبت فيرونيكا دماغها وقررت الرحيل، قالت:

- أتعرفون أن ربع مياه الكرة الأرضية تضيع على ري ملاعب وأراضي الجولف في العالم، تعرفوا.. أنا سألت مهندسا متخصصا قال لي أن مياه هذه الأرض تكفي لدخول مياه الشرب لمحافظة كفر الشيخ، هذه طبعا غير شرم الشيخ يا وائل.

ومضت، حدق جلال في وائل غاضبا ومستنفرا:

- هل لم يخبرها عباس الزفت بتاعك ده؟

سأل تامر وهو يتابع جسر النظرات بين وائل وجلال:

- يخبرها بإيه؟

- بأننا قطعنا عيشها وفسخوا عقدها، لما نشوف أنف الكبرياء الكاذب من أين سيؤكل؟

كان هذا جلال لكن وائل أضاف:

- أما نشوف ستتحمل لإمتى.. وستأتي راكعة بعد كام يوم؟

قال كريم:

- أنا سأجد لها شغلانة، ما فعلتوه شيء قاسٍ وحقير؟

نهره جلال:

- كريم إتلم، كلنا عايزينها، اضغط عليها شوية وخليها تترمي على كتفنا.

عاد تامر وسأل:

أي كتف.. هل تظن أنها ستركع لك؟

رد مستغرقًا في نفث حقد:

- المهم تركع، ليس مهما لمن؟

لم تتوقف فيرونيكا عن طقوسها اليومية، ولا معاملاتها معهم بنفس الدرجة وبذات الهمة والصفاقة الأنثوية الناعمة المخلوطة بخشونة جادة:

- على فكرة أنا اشتغلت موظفة بعقد مؤقت في السفارة الروسية.

مرت الجملة وهي تستعير قرط غادة وتلبسه وعزة تجاملها:

- ياه يجنن عليكي.

طمأنهم كريم:

- وأنتم زعلانين من إيه، مرتبها من السفارة لن يكفي إيجار الشقة المفروشة، هي تحت ضرسنا.

كانوا ساعتها في النادي الليلي، وقد خلا الاستعراض الروسي من فيرونيكا، وتقدم نحوهم محرم العشماوي المطرب الممل الذي يملك هذا النادي، وهو يرحب بتملق قوادين، وأدب قرودي فعاجله وائل بالسؤال:

- مباحث الآداب عندها فكرة عن البنات دي يا فنان.

أُخذ الجميع من سؤال وائل وقهقهة تامر وهو يتعجب من أين جاء هذا السؤال الموحي إلى عقل بغل، رد العشماوي:

- انتوا تؤمروا بإيه يا باشوات..؟

في الثانية صباحا كانت فيرونيكا تجلس في شقتها مع ثلاثة من بنات الاستعراض جئن يسألن عنها ويطمِئنن على

حالها، رن الجرس فجاء شابان في كامل اللياقة البدنية والوجاهة والمظهرية، عرفت واحدة منهما الشابين لفيرونيكا:

- قلنا يمروا علينا هنا وبعدين نطلع نكمل السهرة.

جرس آخر ثم تم كل شيء في سرعة منظمة، كأنها مسرحية أتمت بروفاتها بإتقان مدهش، اندفع جنود ومخبرون وضباط، اتفضلوا معانا، لموا أكوابا وزجاجات، وجواكت وشالات وفِرد أحذية مخلوعة، طفايات وأعقاب سجائر، ونزلت فيرونيكا معهم مسحوبة الروح مفجوعة القلب مشوشة النظرات مضطربة الأفكار باردة الأطراف هادرة النبض، ثم سحبت هاتفها المحمول من جيب بنطلونها وضغطت خلسة على رقم جلال، سمعت الرنة مرة وثانية وثالثة وأعضاؤها تتفكك، جاء صوته متوقعا ومزهوا:

- أيوه يا فيرونيكا.

همست بحروف مستسلمة متوسلة تحشر فيها بعض الكرامة:

- قولهم يسيبوني.

وسابوها في لحظتها.

كانوا على يخت كريم، يرسو هادئًا على بعد أميال بحرية في قلب منطقة الجونة، مستقرا وساكنًا مع هدأة الموج وتهادي الماء في مثل هذا الغروب الخريفي، جلال وكريم وقد أسندا ظهرهما على أريكة مرتبة وأنيقة على شكل نصف قوس تلتصق بمساحة عريضة من الخشب البني تنتثر عليه قطرات ماء مبثوثة من موج عابر، وقد أمسك كريم بكأس من الجن المخلوط بالبرتقال، بينما قبض جلال على علبة البيرة الأمريكية، وقد وضع أمامه صفًا مرصوصا من العلب التي أفرغها في جوفه، بينما كان تامر يجلس على مقعد معدني مطعم بالخشب ومسند من الأسفنج المغلف ببلاستيك فاخر، وقد أمسك بصنارة فاخرة الطراز فخيمة السعر، ومستندا على سور اليخت وهو يصطاد في راحة وتأمل متمهل مع جرعات من الويسكي يحرك قطع ثلجه بأصابعه ويمص أُصبعه بعد كل تقليبة كعادته، وائل كان نائما بالمايوه في استعراض آخر، هرمونات تنمية العضلات ونفخ الصدر وتعلية الأكتاف، وقد دهن نفسه بمرهم يلمع الجسد ويظهر الإنحناءات، وهو يحدق مع علب البيرة المرمية على صدره وعلى جانبيه، يحدق في غادة النائمة على كرسي البلاج في

مايوه بقطعتين رفيعتين تغطي خطوطًا فقط من صدرها وأسفل بطنها، كانت في توقيت مناسب جدا لهذه الرحلة فقد توقفت من أسبوع عن غطاء الشعر والتسبيح وزيارة دروس الشيوخ، وعادت بعد أجازة قصيرة قضتها في جدة إلى الخمر بشراهتها المعتادة، مع ضرب سجائر البانجو التي كان صبري يلفها بالآلة المعدنية في صفوف متراصة، ويقدم واحدة تلو أخرى لكل واحد فيهم بانتظام وبكثرة خرافية، وكانت شهوتهم للبانجو تزداد وتتضخم في مثل هذه الرحلات، وخصوصا عزة التي كانت تغرق في البانجو حتى تتفكك تماما وتعوم وهي نائمة على الأرض، تقرأ في مجلة نسائية لا تقلب صفحتها على الإطلاق، وتتجرع جن تونيك يجعلها تتخلص من المايوه بفك أزراره الخلفية كأن ذلك يخفف عنها حرا قائظًا، صبري وقد أعد كل احتياجات الرحلة التي تستمر يومين مدرب على تلبية مطالبها ولوازمها مع تدريب منتظم على خبرات قيادة اليخت حتى يعود بحارة بقاربهم البخاري السريع ليتسلموا قيادته وعودته للبر، وقد وفروا للبكوات الراحة والخصوصية على مدى الرحلة، وحدها كانت فيرونيكا جليسا مأسورا في هذه الرحلة، صعدت

من داخل اليخت وقد وضعت إيشاربا على رأسها وأحكمت زراير قميصها وحزام بنطلونها، وأمسكت سيجارتها تدخن بشراهة، وقد ارتعشت أصابعها وهي تمسك بكفها اليسرى كفها اليمنى حتى لا تفضح الرعشة قوة ضعفها وهشاشة صلابتها، تامر نصحهم وقد علموا ما أرادوا وبدا واضحا لفيرونيكا أن عنقها بين أصابع وأظافر الشلة أن يعطوها فرصة الحفاظ على آخر متر من الكبرياء وتسلم رايتها بهدوء وبراحتها مختارة بلا عنف المواجهة، وافقوا واعتبروا ذلك دليل رجولتهم وجدعنتهم وأشاحت عزة بوجهها وهي تسمعهم فاعتبروها إشاحة غِيرة تافهة، أما غادة فكانت تهز رأسها وهي تسأل عما يعجبهم فيها، وتتمتم بشتائم مضغوطة ومكتومة، أما صبري فاكتفى بتعليق مشى كشفرة موسي على جلودهم:

- يا ترى ح تختار مين فيكم الأول؟

ذهلوا لحظةً، وتجمدت عيونهم بين الدهشة والذهول، كانت فيرونيكا قد شغلت موسيقى تتصاعد صاخبة صارخة، بينما بدأت في رقص بإيقاع منضبط وبالتفافات منتظمة وبأنفاس لاهثة قالت:

- هل فيه مرة واحد فيكم ركب أتوبيس زحمة قوي ولقى ست شايلة ابنها على كتفها أو راجل عجوز ماسك أنبوب الربو في إيده خايف من الخنقة، عمركم شفتم بنت بتجري وراء الأتوبيس وبتحط رجليها على درجة الباب فالأتوبيس يتحرك فتقع على الأسفلت، والكتب تتحدف منها، وتقوم تلم الجيبة عشان رجليها بانت وتدور على الطرحة أحسن شعرها انكشف وانفك قدام الناس، عمركم ركبتم تاكسي والسواق قعد يحكي عن مصاريف المدارس والواد ابنه اللي عنده ورم وقسط التاكسي اللي متأخر عليه، عمركم اتخانقتوا مع سواق ميكروباس عشان مزود الركاب عن العدد وكل شوية يسب الدين للعربيات التانية، عمركم قدمتم ورق عشان قرار القومسيون الطبي، ولا عديتم على مبنى وزارة الصحة ولقيتم في الشارع الجانبي يجي ألف بني آدم واقف مستني قرارات العلاج على نفقة الدولة، عمركم زرتم عنبر العظام ولا الحريق في القصر العيني، شفتم فصل مدرسة فيه مئة واتنين تلميذ وقاعدين على الأرض وفوق الشبابيك، ولا أجرتم كرسي في مدرج كلية التجارة، عمركم شفتم صور أمل دنقل وهوه في غرفة رقم تمانية في معهد السرطان، عمركم وقفتم

خدمة في الجيش ومشغلين الراديو الترانستور بحجارة ملفوفة بأستِك على الراديو وهو مشغل أم كلثوم في عز البرد والليل والوحشة، عمركم شفتم راجل بيعيط عشان الجاموسة بتاعته ماتت، ولا شفتم عيلتين بيتخانقوا ليلة كتب الكتاب على قايمة العفش ومبلغ المؤخر اللي ح ينكتب في القسيمة.

كانت المفاجأة التي حشرت حذاء الدهشة في أفواه الجميع بدأت تزول مع انفجار فقاقيع الخرم وأدخنة البانجو في الجهاز العصبي.

صرخت فيها غادة:

- وانتي وحياة أمك عمرك شفتي ده فين؟

لك فيرونيكا كأنها فقدت حاسة السمع وواصلت:

- أبويا فقد عينه وبصره عشان البلد دي محمد شرف استشهد عشان ترابها وحتى مصطفى الحمار راح أفغانستان عشان فهموه إن ده هو الإسلام، وأنا فضلت أحب البلد دي وأقول أحسن من بلادي، الدرب الأحمر أحلى من الميدان الأحمر، ناس تعبانة وغلبانة وعبيد ولاد عبيد لكن أهي أحسن من بلادي، لكن هم اللي هناك وانتم اللي هنا، كلاب ولاد كلاب، ناهبين البلد ومزورين وحرامية وبتكرهوها وبتكرهوا

ناسها، ولا تعرفوا حاجة عنها وكلكم بجنسية أمريكاني على كندي على فرنساوي، أنتم ولاد القحبة كلكم.

لحظتها قذفها جلال بكأس الخمر تلاه كريم بكأس آخر ووصل لها الكأسان في لحظة واحدة يضربان حافة رأسها، وقد تكسر زجاج وانحشر في خصلات شعرها، ونزف خيط من دم من جبهتها، وتحمر قطع زجاج على صدرها وتتساقط عند قدميها فخرست تماما، وتوقفت عن الرقص مسمرة في الأرض فرماها وائل بعلبة البيرة؛ فخبطتها في أعلى أنفها فاهتزت وترنحت، ومالت وانحنت وتراجعت ومدت ذراعها لتستند على الهواء، وهي تحاول النزول من فوق المائدة التي وقفت عليها فتعثرت وانكفأت على السور وارتجت وسقطت في الماء تهوي وهي تصرخ وتشهق.

تجمدوا جميعا وتثبتوا مجمدين مشدودين ومشدوهين وهي تقاوم الموج بذراعيها ورأسها ينغمر في الماء وكرات الهواء المخنوق تنبعت من الماء وتفرفر بقدميها وتضرب الموج بساقيها، ثم تظهر رأسها صغيرة لوهلة، وهي تلهث مسلوبة القوة:

- الحقوني....

ثم تسقط مرة أخرى، تقاوم وترفع رأسها وهي تدفع جسدها المهدود المكدود للهواء أنا باغرق، ح أموت..

تقدم تامر يهم بشيء فأمسك وائل بكتفه، قامت عزة وهي تضحك بهسترية وتهمس بكلمات متقاطعة:

- بجد، تموت، ليه.

قالت غادة وهي تنظر مستفهمة لجلال فأومأ لها وقال:

- سيبوها.

صبري وقف جنب كريم وتساءل مترددا

- أنزل انا أنقذها.......؟!

نظر كريم لجلال الذي نظر لوائل فوجد عيونه صوب تامر الذي كان يحدق في الموج وقال:

- فيرونيكا غرقت.. قتلناها.....!

التفت وائل وهو يسبقهم جميعا في الجري:

- اختفوا، خلاص اختفوا...

وسط لهاث الأنفاس والرجفات المحمومة والعرق المتفجر والملامح المهزومة والوجوه الموهومة والنظرات الزائغة التائهة المتحجرة المتسائلة والألفاظ المرتبكة والحروف

المتقطعة والكلمات المضغوطة والجمل المضغوطة التفتوا حيث نظر وائل، كانوا مشتتين ومشوشين ومتوترين ومندهشين فلم يتبينوا ما قاله ولم يتفحصوا ما رأوا لكنهم توقفوا وتنهدوا وتمهلوا وأخرجوا آخر زفراته الملتهبة.

كانت أصوات حوافر تثير الغبار والأدخنة من الأرض والأتربة، لكن ليس أكثر من هذه الأصوات، لا صور، صهيل أحصنة تعدو وتركض في الأجواء والأركان، تنطلق من منحنيات الشوارع وتعبر أسوار الأرصفة، لكن لا تظهر أمامهم الأحصنة أبدا، كأنها كائنات من هواء صاخب، من دماء تجري في عروق متوهمة أو متخفية، يشعرون الأحصنة بالصهيل والحوافر بالطرق والدق، وتجوس حولهم ووراءهم خطوط من أضواء تبرق وتلمع على أشكال أجساد فرسان وقسمات رجال، ثم تختفي وتنطفئ لتبلعهم عتمة، فقط كانت نصال سيوف ترتفع وتهوي بصوت يشطر الهواء ويذبح الصمت، يتلفت كريم فيراها فيصرعه الخوف، يمعن فيها وائل، فيركع كأن السيف سيطير عنقه تولول غادة صارخة بينما يتكور جلال وعزة كأنهما توائم، جنينين في بطن أمهما، صبري يرتجف، وهو يتسمر مثبتًا في الأرض

فقد كان أول من رأى هذا الرمح المارق القادم من كف مخفية، من ذراع لا مرئية مرميا نحو كريم الذي تنبه لصوت صبري الصارخ ونظرته المذعورة المحذرة فلمح الرمح فألقى بجسده على الأرض زحفًا، ثم توالت الرماح كأنها مطر في ليلة تعسة، كانوا يرون مروق الرماح ويحيرهم هذا السن المدبب بذراعه الحديدية الطويلة كيف ينغرس في الأرض كأنه شمعة مرشوقة في تورتة عيد ميلاد، من ساعة خروجهم من فيلا القضاة وهم يجرون ويركضون تطاردهم خيول ليست موجودة وفرسان غير منظورة وسيوف تبرق وتختفي، ورماح عاصفة ملء البصر وتخزق أملهم في أن يكون هذا كله خيالاً وخبالاً، توقف قذف الرماح وتراجع صوت الحوافر وهدير الصهيل، فقام وائل وجرى وقال لهم ما قاله:

- اختفوا، خلاص اختفوا ..

فقط كان كريم يسأل:

- أين سارة، لماذا تختفي كثيرا؟

وقالت غادة وهي تلم خلايا أعصابها تحت جلدها:

- صحيح أين هي؟.

وفي عصبية وروح تخرج من أنفها:

- ليه كل شوية أدور عليها ولا أجدها؟

لكن سارة مدت أصابع رقيقة مرتجفة باردة ثلجية تماما مست رقبة غادة فصرخت وتفاجأت بسارة التي أمالتها عزة إلى صدرها:

- تعالى يا حبيبتي.

كان إيشارب سارة على رغم السعي والجري واللهث والرعب منضبطًا ملتصقًا ملفوفًا برأسها.

كان الظلام قابضا على خصر المكان، والعتمة موحشة في ولوجها الشوارع والدروب المخططة والمرصوفة، فجأة صاح صبري وهو يشير للأعمدة ذات المصابيح المثبتة في الأرصفة وقد أنار العمود الذي يقفون تحته فألقت شعلته دائرة من الضوء على الأمتار التي يتمشون عندها، لكن قبل ما يدرك الجميع ملامح تلك المنطقة من القرية التي وصلوا إليها بعد هذا الفرار من فيلا القضاة وأشباح الموت ومطاردة الرماح والسيوف، رأوا هذا النور المصبوب من العمود يتنفس دخانًا وقد قذف فوقهم أدخنة كثيفة ثقيلة كأنها تشق صدورهم تلف أعناقهم، تخرق عيونهم تنتفخ وتكبر وتسد

أنوفهم وتكاد مناخير كل واحد منهم تتفجر أشلاء من مزق الجلد والعظم، أمسكوا بوجوههم وتامر يصرخ فيهم:

- حاولوا أن تتوقفوا عن التنفس.

ضربه وائل بكتفه وهو يترنح ويهذي:

- نَفَسِي مخنوق..

جره جلال بصعوبة وهم يجرون يخرجون من منطقة عمود، فإذا بعمود آخر يطلق ضوءه، وفي وهلة ينفجر الضوء دخانًا يقذف حمما إلى أنوفه، فيصرخ وائل من الخنقة وجلال من الحشرجة وتامر من الكحة وغادة من السعال وعزة من الدموع ومخاط الأنف، سارة أمسكت بكف صبري الذي شعر ببرودة أناملها المعتادة ضمها إلى أنفه علها ترطب هذه النار التي تحمى حول أنفه وفمه، ملأ الدخان عروقهم، أوردتهم وشرايينهم، مسامهم وفتحات أجسادهم، حينها صاح تامر وقد تغلظت حروف صوته وتحشرجت نقاط حروفه فوق لسانه:

- تعالوا، هنا باب فيلا، أنا هنا، سامعين صوتي....؟

شعروا أن سارة وقد بان بياض ثوبها واضحا بين كثافة الدخان تقودهم بكفها وذراعها نحو وقفة تامر، جروا ملهوفين

على الباب الحديدي الذي أصدر صريرا عاليا وتقلقلات جنازيرة وهو ينفتح.

كانت الغرفة ضيقة بصالونها المذهب القديم التي تناثلت خيوطه وتفككت سوستْ فرشه وتقشرت ألوانه، البياض باهت وفي ركن كان هذا المنظر الطبيعي البليد لغابات أوروبية تكال غصون أشجارها نثرات الثلج يملأ الحائط ملصوقًا منذ زمن كان كافيا لتمزق قطع من أطرافه وتوزع حفر في بقع من جوانبه، ثم صورة مؤطرة في برواز منقوش بالورد للأب بملابسه العسكرية حين كان مساعدا في الجيش وتحت صورته بدت صور ابنه أقسى تأثيرا وأثقل وطأة على الجالسين أمام الرجل، يحركون أقدامهم ويومئون برؤوسهم ويجرون بسبحات في أكفهم تمتمةً وحوقلةً، الغرفة مزدحمة حتى أن كثيرين لا يعرف عنهم الأب شيئًا في جلسته المنحنية وتقوس ظهره المجازي والواقعي، يتضح فقره وقلة حيلته للأعمى في هذا الحضور الكثيف الذي ملأ الزقاق سيارات شيروكي وحرسا ببذل كاملة تحوي مسدسات وطبنجات حكومي، وسيارات من قسم الشرطة وعساكر تشريفة، وقماش فراشة منصوب على الجدران ومفرود أمام

المحلات، مع سجاجيد حمراء في مدخل البيت المخنوق ببوابة حديدية صدئة ومبطنة بصاج من الصفيح يطرقع مع حركة الداخلين والخارجين ونسمات الهواء الواردة النادرة وسط كتمة المكان، ما كان لوائل أن يفكر يوما أنه سوف يدخل هذه المنطقة المدفوسة جنب شريط مترو كلما مر المترو ألقت البيوت المتهالكة الشهادتين تأهبا وتهيبا لسقطة متصدعة، ثم كان تأفف جلال أشد عبئًا من نظرات صادق الغزولي والد وائل وصحبه، وهم يهمون بالصعود لهذه الشقة في الدور الثالث تطل غرفة صالونها على سور المترو وكوبري المشاة، الذي كانت وجوه عائدة من شغلها الليلي صاعدة من رصيف المترو تعبر عليه، خلفهم يومض هذا الإعلان الكهربائي المنور فوق سطح بيت بعيد يبدو واضحا لركاب المترو، يطفئ نوره ويضيء كل لحظة بزرقته وصفرته، الآن ووائل يتهرب بنظراته من الحشد الكابس على أنفاسه في الغرفة؛ فيتابع العابرين على الكوبري كأنهم ضباب ودخان آدمي، كان دكتور صادق الغزولي قد جاء بعد تدخلات وتوسطات من أمين الحزب بالحي واستدعاءات دؤوبة من مأمور القسم وضابط النقطة لرب العائلة الذي

تمنع ثم أرخت إلحاحات ابنه الكبير وبناته الثلاثة عليه أن يقبل بالدية التي عرضها صادق الغزولي عليه عوضا وتعويضا عن والده الشاب وأسرته الذي دهسهم وائل بسيارته، كان الحادث قد نُشر في الصحف وبدأت أفواه تنفخ فيه نارا ومنافسو صادق في البرلمان والحزب يشنون عليه حملات مسنونة عبر الصحف التي طالت الحادثة شرحا وتفصيلاً فسارع وقبل قدمي فهيم السعداوي أن يتدخل ويوقف التشهير به ولم ينس أن يذكره أن نائبا معارضا يثير معارضات، يثير تساؤلات في البرلمان حول تجاوز السعداوي وزملائه رؤساء التحرير للسن القانوني، وقد نسي تماما جرم ابنه ولم ير في الأمر إلا نصالاً تحاول أن تطعنه في ظهره فتضيع المستقبلَين معا، مستقبله ومستقبل ابنه، فتحرك على محاور سريعة وبحد أقصى من السرعة ومتجاوزا قوانين المرور، تكلم بشكل عابر وخاطف مع محمود داود الذي وافق على تحمل تكاليف التعويض من جيبه الخاص فوائل ابني، استدعى موظفين من زملاء القتيل ووعد بنقلهم لعمل أرقى وأغلى أجرا فقط ليتحدثوا عن شكلهم في أن القتيل كان ممن يتعاطون البانجو، ثم رمى رمشًا على

أسرة الزوجة التي راحت مع ابنها وزوجها إلى رب غفور رحيم، هكذا قال لشقيقها المحامي بعد أن أحضره له وسطاء وقال أحدهم أمامه وهو يومئ برخص تُهمته أن المرحومة كانت شقية شوية، فقام صادق الغزولي وصفعة بالكف على وجهه أمام شقيق المرحومة المنتفض جرحا وطمعا، بعد الصفعة بدقيقة كان موافقًا على دية وتعويض ولم أوراق القضية في المحكمة.

- إزاي يا دكتور صادق؟

قال الشقيق فرد صادق عالما عليما.

- وانت مالك يا وله، انت مش لك الدية...؟

فرد الشقيق بهمهة وتهتهة فقاطعه دكتور صادق:

متقلقش أنا عارف إن أختك وابن أختك يساووا عندك أكثر من كنوز الدنيا..

كانت الأوراق تخرج من ملف لتدخل أوراقًا أخرى في ملف آخر، ومن درج لدرج كانت تتوزع وتتبدل، وحدها عيون والد القتيل كانت بضعف بصرها ونحول رموشها ورعشة حدقتها كافية لتبيان هشاشة عظام الأسرة في مواجهة قرع السلطة على طبول آذانهم، جلس صادق ومعه أعضاء

مجلس الشعب عن الدائرة الذي لم يرهم والد القتيل سوى في صور ملصقاتهم على سور المترو، ومعهم شيخ من الأزهر ممن يظهرون في برنامج حديث الروح قبل النشرة ويخطب في مسجد التليفزيون، ومذيع ممن يشتهرون ببرامجهم في تلبية حاجات الناس ومسائلهم وجوائز العمرة والحج، ومعهم وائل كارها ومكرها جاء ومحميا في حضور جلال الذي كانت بذلته أكثر ما يلمع في المكان المغمور بحزن كابي وكاكي، قال صادق الغزولي للرجل:

- نحن ننعي لك ابنًا عزيزا ونجلاً كريما وولدا بارا بأهله، وحفيدا غاليا طاهرا، لكننا أمام الموت لا نملك سوى التسليم بقضاء ا وقدره، نحتسبه عند ا ، داعين أن يغفر ا ذنبه وينقيه من الذنوب كما ينقي الثوب الأبيض من الدنس، ويدخله فسيح جناته مع الشهداء والصديقين وأن يتلقى كتابه يوم الصراط بيمينه، وأن يكون في الجنة مصاحبا وصحبا منعما بزوج من الحور العين، ووا لقد عز علينا هذا النجل الكريم حينما عرفنا شيمه وخصاله وكرائمه وفضائله، لكن هذه هي إرادة ا الذي لا راد لقضائه وهذا اختباره لنا وابتلاؤه، وأنا أعلم أن هذا الحادث كان سببا سببه

ا لإنقاذ أمره وإعمال حكمته وإنزال إرادته، مجرد سبب ساقه ا لنا عبرةً واعتبارا، وعشان كده يا حاج نحن نلتزم بشرع ا ، ملناش احنا دعوة بقوانين وضعية ولا مواد أنا اللي باكتبها يا حاج بإيدي عشان تتنفذ في المحاكم، لكن النهاردة أنا بانفذ شرع ربنا مش شرعي ولا شرعك ولا شرع مخلوق، لأ شرع الخالق، وبأقول إنه هناك دية مفروضة على ابني لأن ا كما جعله سببا لموت نجلكم العزيز، جعل نجلكم سببا لابتلاء ابني، وأنا يا حاج عارف إن الدية مهما كانت لن تصل لتعويض حزن والد على والده، ولن تساوي عندك ولا عندنا وا يا حاج شعرة من رأس المرحوم ولا حفيدك، لكن ربنا لما قال دية فأكيد لديه الحكمة العظيمة من ورائها، اللي هيه إيه.... اللي هيه السلوى والعزاء ورفع البلاء وإعمار الكون.

كان جلال مبهورا بخطبة دكتور صادق الذي بدا كأنه خطيب مسجد تجلى ولعلع، وكان وائل مبهوتًا بما يقول والده فقد رأى فيه براءته من أي ذنب، وبدا له الأمر كأنه وحي إليها بموت هذا الشاب المعلقة صورته فوق الرؤوس، يشير لها والده بين لحظة وأخرى في كلمته بجرأة القدرة على

تغسيل جثة ميت، أما الحضور فكانوا فخورين بأنهم حضروا جلسة على الهواء من جلسات مجلس الشعب التي تذاع في التليفزيون بعد النشرة المحلية، ومأخوذين بألفاظ الرجل ومرافعته كانوا ملهوفين على ذكر رقم الدية، وحين ذكره صادق الغزولي تنهدوا، وربما تمنوا أن يقتل لهم قتيل غدا، أخذ نفسا عميقًا وصعد بأعلى حروفه فخامة وقال:

- دية هذه الأسرة الكريمة عندنا هي مليون جنية يا حاج!

في السيارة، وحين جلس صادق الغزولي متنهدا ومهمودا ومصدوتًا في الكنبة الخلفية، سارع وأمر الحارس أن ينادي وائل بسرعة.

جاء وائل فمال عند نافذة السيارة وأدخل رأسه بنظرات ممتنة لوالده، قال له أبوه:

- أديك قتلت القتيل ومشيت في جنازته كمان، فاختفي اليومين دول لغاية جلسة المحكمة والبراءة وحياة الست والدتك.

دفعوا بابا خشبيا جهما ومرتفعا وخاضوا على بلاط بهو فيلا، كان الضوء فيها باهتا وبعيدا، لحظات وقد رموا أنفسهم إعياء وضياعا على الأرض ببلاطها البارد وتكشف لهم خلاء

الفيلا وفراغها الواسع الموحش، جدران عالية عارية بطلاء أحمرغريب وبلاط رخامي برقع مربعة كبيرة بلون رمادي كأنه مطلي بالدخان، قاعة كبيرة متسعة خالية من الأثاث والمفروشات، تنتهي بواجهة زجاجية ضخمة وهائلة تطل على البحر، من ورائها تبدو الأمواج هادرة تعلو وتنخفض بزبدها الأبيض وسواد الليل يتكسر عند أضواء متشابكة على الماء قادمة من مكان قصِي غير مدرك، يصل الموج والضوء إلى الرمال أمام الفيلا وواجهتها الزجاجية؛ فتعكس أشكالاً وأشياء على الزجاج تثير الرهبة في نفس تامر، بينما تمشي تجاهها سارة وتقف بردائها الأبيض الغريب، تلصق أنفها في حائط الزجاج وتلف أنفاسها بخارا دائريا على سطح الزجاج، شق الصمت رنة تليفون محمول، بدت مع فراغ المكان وخلوه كأنها طلقة صفارة سفينة فقفزوا من الأرض كأنما بثت فيهم أرواح أبطال العدو في أولمبياد، صرخت غادة:

- موبايل مين ده؟ معقولة، اشتغل؟

فتش جلال في جيبه:

- الجهازان اللي معي ضاعا في فيلا القضاة أو في الجري.

عزة تنبهت:

- توقف عن الرن، كانت رنة واحدة، هل هذا معقول؟

كان وائل يخلع ملابسه كلها بحثًا عن تليفونه:

- المهم إن الشبكة رجعت!

لم يجد وائل شيئًا لكن تامر وجد، فتح هاتفه فكان صامتًا أعاد المكالمات المفقودة التي لم يرد عليها، فوجد اسم جلال مكتوبا، بهت لونه وتغيرت عيون جلال إلى حمرة قانونية:

- من يستخدم تليفوني؟

بدأ كل واحد فيهم يحاول أن يتذكر متى فقد هاتفه، وأين سقط تليفونه؟ لكنهم أفاقوا على نحيب مكتوم قادم من هناك حيث البحر والموج، وحين التفتوا وجدوا سارة تجري على الرمال وتمضي تجاه البحر مندفعة.. كيف خرجت؟ ومتى وصلت للرمل والبحر؟ شعروا هم بالجمود والشلل، بينما صرخ تامر وقد ترنح واقفًا واستند على الحائط الزجاجي وخلفه يبدو الليل والموج وحشًا يقضم سارة بين فكيه، ساخطًا قال تامر:

- شايفين، مستنيين إيه..؟ ننقذ أنفسنا إزاي..؟ القضاة قالوا لازم نعتذر ونتأسف، نبدي ندما، هذا هو الحل الوحيد يا جماعة.

قالت غادة:

- نعتذر لمين؟

فرد جلال:

- وليه..؟ ماذا فعلنا لنعتذر..؟ إذا كان هذا يريح حضرتك يا تامر ويخرجنا من المصيبة ويرجع سارة دلوقت، نسمع كلام المجانين ولا العفاريت؟

أضاف وائل:

- قصدكم إيه من هذا الكلام الفاضي؟

عادت عزة وندهت:

- سارة؟

تنهد وائل:

- وإزاي نتخاص من الأشباح؟

التفتوا فلم تعثر عيونهم على سارة، لكن التفاتة سريعة من غادة كانت كفيلة بأن تشهق وتصرخ، وقفت سارة عند الباب

الخشبي الضخم وقد عادت مبللة تتساقط من ملابسها بقع ونقط ماء لازج ثقيل يبدو لونه بنيا كالطحينة:

- سارة، ليه رحتي هناك يا حبيبتي، قربي هنا جنبنا.

فقربت سارة وقد جلست على الأرض بين ساقي عزة الممددتين، وانتشر مع بقع الماء المفروشة على الأرض ذهول وهول.

قال تامر كأنه وجدها:

- فيرونيكا، علاء مثلاً أو عمرو عزت!

لم يتبين أحدهم ماذا يقصد تامر، برهة وفهموا أنه يواصل كلامه عن ضرورة الاعتذار، وحده جلال الذي انفعل ونهض وهو يدفع بقضبته تامر في صدره بغل مدوٍ:

- ماله علاء واحد شاذ منافس في البيزنس.

كريم تمايلت حروفه مترنحة وهو يلهث:

- فيرونيكا الرقاصة الرخيصة تحسبها بني آدمة علينا؟

رش الهوس نثراته على المكان فقام وائل وضرب بكفه رأس تامر من الخاف حتى ترنح:

- ثم عمرو انتحر نعمل له إيه؟

رمى تامر بجسده على وائل فسقطا سويا وتقلبا في الأرض، يتبادلان لكمات مكتومة وقبضات ملمومة، زعق فيه تامر وهو يلكمه:

- والناس اللي قتلتهم في الحادثة..؟.

أخذ كريم يضرب بقدميه الأرض الفارغة وأجساد تامر ووائل المتدحرجة وجلال الذي رمى بنفسه ليفرق بينهما:

- يعني احنا غلطانين عشان احنا مليونيرات ولاد مليارديرات.

ولولت عزة وهي ترى خيوطًا من دماء تتسرب من جوانب أفواههم وتامر يصرخ:

- والرشاوي والدوس على الناس بالجزم..؟

نهنهت غادة وهي تمسك بذارعيها واهية وتائهة خصر عزة لتبعدها عن ساحة الركل، بينما كان يهتف كريم كأنما يترأس مظاهرة:

- الناس هيه اللي بترمي نفسها تحت جزمتنا، تتذلل تشحت تتوسل تتساق تتزلف تتمسح تمسح الجزم.

صبري وقد شد تامر من تحت وائل وسحب جلال للخلف بينما تمكن كريم من أن يرفع تامر من على الأرض، وقد

تمزقت القمصان وانفكت الأزرار وسقطت البنطلونات وانخلعت الأحذية وتصاعدت الأنفاس اللاهثة واختلطت الدموع بالنحيب والصراخ بالصياح، بينما كان وائل ثائرا محمر العيون ناري النظرات محدق مبحلق مصمم مدمدم يجري مندفعا ناحية تامر الواقف في لهاث مرتج، تلقاه بلكمة لكنها لم تفلح في تعطيل اندفاعه وقد احتضنه من تحت ذراعيه وقفز به إلى الحائط الصلب، دوت قعقعة عظام تامر مع صراخ وائل، وقد اصطدمت رأسه بالحائط فانتثرت دماء من جبهته على اللون الأبيض الباهت ورشت المكان من حوله، وسط نحيب ونشيج البنات، ورعشات جلال تهز جسده المبلول عرقًا بينما تجمد كريم زاد تسمرا حين سمعوا فحيحا قادما من السلالم التي تقود لأعلى الفيلا، فحيح منفرد يتجمع ويتكثف وينصهر في جماعة كورالية موزونة، ودبيب أقدام هادئ منتظم، يتصاعد إلى عصف حوافر قطيع من الخراتيت يثقل على البلاط، كأنما زلزال ويرجه رجا، في أماكنهم كانوا يرقبون ويترقبون هذه الأصوات وهي تقترب هابطة كلمع برق وقيئ رعد من فوق الأسقف والسلالم إلى آذانهم التي يصمها الرعب والفزع، ظلال متحركة على الحوائط تتخبط

وتتكاثر بلون ثقيل غامق يعتم المكان، ويتحول الهواء إلى مئات من كرات دخان ملفوفة تدور في فضاء الفيلا، وتقترب كرة منهم لوجه غادة التي تحاول الهرب منها بهزة رأس وإشاحة يد، فتلطمها الكرة الدخانية فترمي ترابا على وجهها وتحشو فمها ذرات من دخان ملوث بالسواد القاتم، تهرب عزة فتلاحقها كرة الدخان حتى تضرب ظهرها فتسقط على الأرض صارخة، تهبط الأقدام على السلالم عشرات من الأجساد الملفوفة في أقمشة بيضاء رقيقة خفيفة وكوفيات وأوشحة خضراء على رؤوسهم وأعناقهم، طوال نحاف واسعو الحدقات ممسوحو الحواجب بيض الأسنان، كلهم بنفس التقاطيع والقسمات والملامح والهمهات والفحيح والتمتمات والسكنات والإيماءات والإشاحات، كان أكثر ما يثير انفجار الرعب في جوف الغموض الذي يعيشه وائل في إغماءته وتامر في كسرته، وجلال في دهشته وكريم في تجمده، وغادة في بلادتها وعزة في ذهولها، وصبري في تشتته وسارة في غيابها، أن تلك الوجوه التي تقتحم عيونهم هي رؤوس ملتصقة، كانوا جميعا توائم ملتصقة، الجسد والرأس ملتصقان من الكتفين أو عند الصدر أو في منطقة

الظهر، توائم ملتصقة تحوم حولهم وتلف بهم وتدبدب على الأرض وتخربش على الجدران، ثم إذا بهم يتقدمون بأظافرهم يقشرون جلد وائل، ينزعونه كأنهم ينزعون جلدا عن بطن حمامة، يدسون أصابعهم في صدر غادة يفكون أعضاءها ويقذفون بها على الأرض، يجرون جلال ويشدون شعرة فيفصلون عنقه، يمشون بكفوفهم داخل جسد كريم الملقى على الأرض فيخرج دخان أسود كثيف من صدره، فجأة انفصل التوائم الملتصقون أمامهم، ظهر كل واحد منهم جسدا منفصلاً وقواما متكاملاً، داروا ولفوا اقتربوا ودنوا وأمسكوا بجلال، قذفوه في الهواء ليحطم الواجهة الزجاجية المطلة على البحر فإذا بعيونهم قبل آخر إغماضة لهم يلمحون الموج وقد ملأ المكان ووصل إلى حلوقهم وأغرق أجسادهم المفصولة وأعضاءهم المنزوعة، وفي نفس وعيها الأخير رأت غادة سارة واقفة بطولها تحت الماء وهي تمد يدا نحوها وتصرخ فيها بصوت تنفخه فقاقيع الماء تخرج وتدخل في فمها ووجهها الشاحب يتلون بزرقة داكنة:

- هل تريدين معرفة ما الذي كان كتبه الشبح على صدر جلال؟

لم تفهم غادة في غرقها المؤكد وغيبوتها الزاحفة ماذا تقول وماذا تقصد سارة وأي كتابة وأي شبح بل وأي جلال، لكن صوت سارة انبثق من حبال حنجرتها يخرق حجرة في قلبها تمزيقًا، فتذكرت رعب اللحظة وتصورت أمامها هذا الشبح الذي واجههم في الميدان وهو ينقر صدر جلال وينقش عليه حروفًا حمراء تقطر دما تشكل كلمات مبهمة وجملة مستغلقة، وبدت كأنها الآن فقط بين وشك الموت وحافة الختام تقرأ الجملة واضحة وظاهرة كانت جملة من كلمتين فقط:

- قولوا آسفين!

كان جنود بملابسهم السوداء ووقفتهم المتحفزة يقفون أمامه حين نزل من السيارة الفيات بجسده السمين وبذلته الزيتية اللون التي بدت مترهلة عليه، مسح نظارته من رذاذ مطر بمنديل قماشي هو وحده الذي يستخدمه هذه الأيام، وأمعن في هذه الوجوه الريفية والجنوبية التي تبالغ في غلاظتها وجمودها لتبدو لائقة بوقفة جنود أغبياء لا يفعلون سوى تنفيذ أوامر البك الضابط، كانوا يخفون عنه رمال الشاطئ وسور الفيلا المصنوع من الزروع والحشائش

والخضرة، كان باب صغير في نهاية السور يقود لرمال الشاطئ مباشرة دون الدخول لبوابة الفيلا الرئيسية، حاول الدخول نحوه فنفرت عروق جندي وقال له في خشونة:

- ممنوع يا بيه!

قال حسين الرمالي وهو يبتسم:

- ولما انت عارف إني بيه يبقى ممنوع إزاي؟

حينها رأى حسين مساعده يندفع نحوه في عوده النحيف وأنفاسه الممصوصة وقد جر في يده ضابطًا من قوات الأمن يجريان على الرمال التي تبطئ خطواتها وهو يزعق:

- وسعوا لسعادة وكيل النيابة يا عسكري انت وهو.

لم يعره جندي واحد أي اهتمام، إلا عندما نادى عليهم ضابطهم بصوت يجامل وكيل النيابة بشتيمتهم:

- وسع يا حيوان انت وهو للبيه الوكيل وسعوا، فمد حسين قدميه وخطا أمتارا وحين رأى المشهد تثبت فجأة وأخذته رعدة أوجعت قلبه، كانت الجثث مرمية بطول الشاطئ داخل حزام الفيلا، جثث سبعة، أمعن النظر وقد وقف خلفه وحوله ضباط بزي رسمي وآخرون من المباحث الجنائية وأمناء شرطة ومخبرون، لم يشعر سوى بأطيافهم

وأصواتهم تأتيه من بعيد متقطعة وملغزة المعاني، كانت الأمواج تقترب من الجثث الملقاة فتبلل الأجساد والملابس وتغمر الرؤوس والوجوه ثم تجزر عنهم فتظهر تلك الملامح لشباب منفوخي الوجوه مفتوحي حدقات العين ممزقي الملابس، بينهم بنتان عرت بعض جسديهما الرمية والموتَة، اقترب صوت أخيرا من طبلة أذنه:

- ولاد ناس، أصلاً القرية كلها ولاد ناس كبار قوي.

نظر حسين لتلك القصور والفيلات، صامتة في مهابة أمام عصف الهواء وصخب البحر، القرية خالية رغم ازدحامها بأسماك البحر الكبيرة في هذا البلد، شيء ما من التعالي والغطرسة في انحناءات المباني، في التفافات الشرفات على البحر، في اتساع المساحات وقباب البوابات، لماذا شعر وخز حرارة في جسده ونقط عرق تصعد حتى قفاه، وهو يدرك أن الجثث تنطق بخطورة الساعات الفائتة وورطة الدقائق القادمة، سأل:

- متى اكتشفتم الجثث؟

- اليوم صباحا بعد السابعة والنصف، اكتشف حراس القرية هذه الجثث.

قال حسين وقد رمى نظرة على الفيلا:

- من يملك هذه الفيلا؟

- هذه فيلا خالية منذ الصيف الماضي باعها وزير سابق لشيخ عربي لم يتسلمها حتى الآن.

- هل تعرفتم على شخصيات الجثث؟

هنا امتقع لون الضابط، وهو يقدم له بيد مرتعشة مجموعة من البطاقات والهويات الممغنطة وكروت الائتمان والفيزا:

- من دقيقتين بس يا باشا، وقلنا لا داعي نبلغ حد حتى تامر؟

تسلم حسين الأوراق من يد الضابط المرتعشة فارتعشت نظراته وأكمل الضابط كلماته:

- أنا قلت على طول إن النهار ده نهار أسود..!

كان حسين يفرز البطاقات بين أصابعه ويتمتم بالأسماء ويتفحص الصور ثم نظر لأعلى حيث أحس مطرا يطرق رأسه:

- نهار أسود مما نظن!

بسرعة انفتحت مظلات مطر سوداء كثيرة في أيدي المخبرين وأمناء الشرطة، وقد انتشرت على مساحة الشاطئ،

رفعوها فوق رؤوس الضباط تقيهم من المطر، وضع مساعد حسين المظلة فوق رأسه رئيسه هو ويضيف:

- بإذن ا نتم المعاينة قوام قوام قبل ما المطر يغرق الدنيا وتفسد مسرح الجريمة.

التفت حسين وهو ينادي متوترا وشاخطًا:

- فين المصور، يصور حالاً الجثث؟

اقترب من خلف المخبرين شخص طويل عريض جهم ومسن وقال في ثقة وهو يهز الكاميرا العتيقة في يده:

- حصل يا افندم.

ألقى عليه حسين نظرة خالية من الثقة وزجره قائلاً:

- صور تاني قدامي.

كان المطر يشتد في زخاتة والموج يرتفع ورائحة اليود تعبئ الأنوف والمظلات تهتز وتطير أطرافها وتقاوم الهواء والأقدام تجري ثقيلة وغاضبة، وحسين واقف شقه فزع كئيب وغَم ثقيل حط على قلبه، وهو يتابع ضوء فلاشات الكاميرا يبرق باهتًا على جثث ممددة في هدوء مزلزل.

لم يفهم حسين سر المكالمة إلا حين دخل بحقيبته ودهشته قصر محمود داود، كانت القاعة المطلة على البحر تشغي

بكبار البلد وكبائر الأثم، انتفضت عروق حسين وهو يرى وزير العدل شخصيا يسلم عليه ويمد يده لكف النائب العام وهو يقول له:

- اتفضل يا أخ حسين.

لم يكن لهذا الحسين أن يتفضل في وجود رؤسائه وهو الريفي المقذوف في نيابة هذه المنطقة يأسا من لحلحته ومرونته، جاء لها فانتفخ كرشه مع إحباطه وفراغه حتى وجد نفسه الآن مع من طاب لقاءهم سنة كاملة ولم يردوا عليه حتى مدير مكتبيهما، ثم وهو ينزلق بسمنته داخل مقعد وثير وأمامه موج يهدر وأمطار تهوي ومعاطف معلقة على مشاجب مخصوصة، وعشر من الحراس كاملي البدل السوداء وصارمي الوجوه، وثلاث من السفرجية بملابسهم التقليدية يحومون بالقهاوي والشايات، وحين تقدمت خادمة فلبينية بصندوق سيجار إلى الكنبة التي ضمت الثلاثي المفزع محمود داود وصادق الغزولي وفهيم السعداوي، أدرك حسين أنه يجلس أمام ثلاثة كبار يملكون سبعة مليارات جنيه على الأقل، ويملكون هذا البرود الصلد الغامض والغريب في عيونهم المتحجرة، لم يلمح تحت هذه الجفون شيئًا من حزن،

بل ولا حتى ملامح هذا التوتر المحموم الذي يهزه ويرجه تماما، كأن محاجر عيون هؤلاء قطعا من ثلج مدور مقلب في كؤوس زجاجية فارغة، أوشك أن يسأل النائب العام وقد التصق به على الأريكة، لماذا لا يبكي هؤلاء على عيالهم؟

دس الوزير في جنبه نظرة حادة قذفت سما في جوف دهشته وقال له:

- ممكن نشرح للباشوات ما حدث بالضبط؟

كان فهيم السعداوي يمد يده ويقضم كعب سيجارة وصادق الغزولي قابضا على مسبحة ذهبية في يده تكر حباتها في تكتكة منتظمة، أما محمود داود فقد كان تمثالاً من شمع لا يذوب، يضع رجلاً على رجل.

تشابكت أصابع حسين مع بعضها وكاد يشعر ضغطاً يكسر عظمه وقال:

- أحب أسجل عزائي في كل فقيد غالٍ.

نهرته نظرات متقاطعة من النائب العام ووزير العدل فعدل كلامه وهو يفتح حقيبته الجلدية الممتلئة، ويخرج كيسا معبأ بأجهزة هواتف محمولة بعضها مكسر الأطراف وكلها من أحدث طراز التكنولوجيا، ويفرد أوراقًا من داخل ملفات

كرتونية بينما يفتح ظرفًا ويسحب صورا فوتوغرافية كثيرة ومتراصة، ثم بدأ يتكلم وهو يقترب من جهاز الكومبيوتر المحمول الذي وضعه أمامه محمود داود وأشار له حسين مستأذنًا في استعماله فوافق بإيماءة متعجلة، وضع فيه الفلاشة وفتح الشاشة وحرك السهم نحو ملف الصور فبدأت صور قاتمة بزوايا متقاطعة وجوانب متباينة تظهر حاملة ملامح أبنائهم، كبر حسين الصور وبدأ يشرح:

بمناظرة الجثة الأولى وجد أنها طازجة لذكر في العقد الثالث من عمره تقريبا، وقد تفتت بعض عظام وغضاريف الرقبة.

تجاهل النظر للعيون المواجهة وتكلم كأنما يشرح محاضرة لطلبة كلية الشرطة، همس وأضاف:

- كما تبين وجود الإصابات التالية:

جرح قطعي بالرسغ الأيسر، وجرح قطعي بالساعد الأيسر، وجرح بالعضد الأيمن، وجرح بمقدمة الساعد الأيمن، وجرح قطعي بسيط بالسبابة اليمنى والوسطى، وجرح قطعي بالحاجب الأيمن، وجرح قطعي بالحاجب

الأيسر، وجرح قطعي بالأنف، وجرح قطعي بالرأس طوله حوالي ١٥ سنتميتر.

وقد عثر على خصلة شعر في يد المجني عليه يقبض عليه بشدة في حالة توتر.

أغلق حسين صورة الجثة وفتح صورة أخرى لها من زاوية عكسية وأخرى جانبية، ثم ضغط على ملف فخرجت صورة جلال لتملأ الشاشة وقد ازرق وجهه وبانت خطوط جروح في جبهته وعنقه، وتمتم حسين وهو يقرأ اسم جلال كاملاً وقد تحول إلى أذن كبيرة كي يلتقط أنفاس فهيم الخافتة المكتومة في صدره، أطرق ثم فتح ملفًا آخر، لتظهر جثة ثانية فعاجله النائب العام بسؤال مباغت:

- جثة مين؟

- وائل.

قالها وهو يكبر الصورة ويشرح:

جروح نافذة في الصدر والرقبة عددها ثلاث طعنات، وجرح قطعي في الرقبة أسفل الفك الأيمن، وجروح قطعية تعددية اتقائية على الرسغ الأيمن.

آثار لكدمات في الصدر والفخذين مع جرح غائر سطحي في الفخذ اليسرى بجوار الحوض حوالي ٣ سم. شوهدت فتحات للجروح من سترة المجني عليه أمام كل موضع لإصابته في الصدر. لوحظ بداية ظهور علامات الزرقة في صدر المجني عليه كذلك، مع تيبس في الجثة. عثر على شعرة في يد المجني عليه اليمنى وقد أمسك بها بقوة في حالة توتر.

تتالت الصور ثم تحول حسين إلى جثة ثالثة بادر باسمها، كان كريم..

- الرأس لم يتبين، بالفروة انسكابات دموية.. كسور مضاعفة في عظام الرقبة، كسور في عظم الترقوة وخلع بالكتف الأيسر، تلوثات بلون بني محمر بالأنسجة الرخوة حول الحنجرة، مع كسر بالقرن الأيمن للعظم اللامي.. الغضاريف الحنجرية خالية من الكسور.

الصدر انسكابات دموية.. عظام القفص والأضلاع زرقاء منتشرة الكسور.. التجويف الصدري به سائل ارتشاحي مدمم يقدر بحوالي لتر بكل جانب.. الرئتان منكمشتان، وينتشر فوق سطحهما نُقط نزفية.. القلب بحالة عادية.

هنا تدخل السيد الوزير وقد دمدمت ألفاظه بالنفور والعصبية:

- كفاية عرض يا حضرة الوكيل، فهمنا وضع وشكل الجثث، خفتت حروفه بعدما لفظ كلمة الجثث، لم يكن يعرف وقعها على أولياء الأمور فاختبأ في عطسة مصطنعة وإشارة بيده لحسين أن عجل بها يا رجل.

هز حسين رأسه وواصل:

- فهمنا من وضع الجثث (تردد في الكلمة ولم يجد غيرها فخرجت متلعثمة مضغمة) أنها لا يمكن أن يكون شخصا واحدا وراء هذه الجرائم، فضلاً على أنه لابد وأن يكون في حالة بدنية قوية البنيان، أو متوترة الأعصاب هائجة تماما، بحيث يقوم بكل هذه الأفعال بدرجة من الإصرار والقوة، ويتحمل مقاومة عنيفة أبداها كل شخص من القتلى (عاد وصححها إلى الضحايا بدلاً من القتلى) الأدوات المستخدمة في الجرائم محيرة جدا هي أحيانًا قطع خشب، قطع زجاج مكسور وحاد، مبرد أظافر، سلاسل ذهبية، من ثم يصبح السؤال صعبا، من فعلها ولماذا؟ خصوصا أن هناك جروحا في جسد الضحايا متفاوتة في زمن حدوثها، يعني كدمة في

وجه وبعدها بساعتين كدمة أخرى، طعنة بآلة حادة وبعدها بثلاث ساعات طعنة أخرى، نفهم أن هناك ضحايا مشت وراحت وجاءت بجروح وخبطات ورضوض تتجدد وتكثر بمرور الوقت، هنا قبل ما أكمل كلامي لازم نلاحظ أمرين، الأول أن هناك بصمات وآثار من أيدي وقبضات ودماء الضحايا على أجساد بعضهم البعض، كذلك فحوصات المعدة والأمعاء، مثلاً تلاقي في أحدهم.......

ثم فرد ورقة وأخذ يقرأ جريا على سطور واختصارا في أوراق:

- جدار البطن خالٍ من الانسكابات الدموية والتجويف البريتوني خالٍ من النزف والارتشاحات.. المعدة خالية من الطعام لكن هناك آثار واضحة لمشروبات كحولية ولمواد مخدرة متعددة كيمائية وتخليقية وغشاء المعدة المخاطي بحالة غير عادية يشتم منها رائحة مشتبهة.. ويوجد احتقان حشوي عام في الأمعاء بنوعيها، والمثانات خالية من البول مع آثار بول منسكب في رقع في الملابس الداخلية لعدد من الضحايا علامة تبول لا إرادي قد يأتي من الرعب أو من عدم التحكم الإرادي في عملية ضخ البول..

لم يكن حسين في انتظار نشيجٍ أو نحيبٍ من آباء مكلومين، فشيء ما يطلي وجوههم شمعا، لكنه كان ينتظر رعشة شفةٍ، رجفة كفٍ، دمعة عينٍ، لم يجد ولم يعثر على ملمح حزن، ولم يتعثر في علامة تألم، لكنه ترك الكومبيوتر مفتوحا على صور صغيرة متراصة ومصفوفة بمقاطع من جثث، وواصل حديثًا تعمد ساعتها أن يكون محايدا باردا رغم فناجين القهوة وأكواب النسكافية التي توزعت على موائد أمام الجميع وهذا الدخان الصاعد من سيجارات وبايب.

المشكلة الأولى التي واجهتني هي احتجاز ست عشر حارس أمن من الشركة المكلفة والمتعاقدة على حماية القرية، أكثر من اثني عشر منهم كانوا إما نائمين في هذا الشتاء أو مزوغين عن العمل، فهناك حالة من الطمأنينة الكاملة أن أحدا لا يمكن له أن يجن ويفكر في السطو على فيلا أو قصر يملكه كبرات البلد، والحقيقة أن القرية منشأة منذ عشر سنوات تقريبا ولم تسجل حادثًا واحدا لسرقة أو غيرها من الأمور الجنائية المعتادة، أما التواجد الأمني الرسمي الحكومي فهو قاصر على موسم الصيف، وبطريقة كما تلاحظون سعادتكم شكلية، أما في الشتاء فالشركة الأمنية

الخاصة هي وحدها المنوطة بهذا العمل داخل القرية، يتبقى لنا الأربعة العاملون من حراس الأمن وهم اثنان حارسا البوابة الرئيسية وآخرون على البوابة الفرعية الشرقية، وقد أكدت أقوال حارسا البوابة الرئيسية أن سيارة جراند شيروكي مواصفاتها هي نفس مواصفات سيارة جلال فهيم قد دخلت من البوابة الساعة الثامنة مساء وقد أخبروا الحارسين أن سيارة ثانية تعطلت في الطريق وطلبوا جلبها، فيما عدا ذلك وحتى الصباح التالي لم يشهدا شيئًا ولم يتحركا من مكانهما، والسؤال هنا ما الذي يثبت أنهما بريئان من جريمة قتل محتملة؟ الدليل على براءتهما هو شريط كاميرا المراقبة الموضوعة على مداخل القرية، والذي يكشف عن بقائهما حتى الساعة السابعة صباحا على مقعدين داخل كشك البوابة أمام تليفزيون صغير وقد أشعلا نارا للتدفئة في الجزء الخلفي الخالي من الكشك، والتفا في بطانيتين ولم يزرهما أحد ولم يدخل القرية أي شخص في هذه الساعات من تلك البوابة، نفس الشيء مع البوابة الفرعية، شريط الكاميرا يبرئ الحارسين من أي شك، يتبقى لدينا سكان القرية أو المقيمون فيها في هذه الليلة، وما نستطيع أن نؤكد من خلال تحريات

الشرطة واستجوابات النيابة أنه لم يكن في القرية في مثل هذه الليلة الشتوية التي بدت باردة وعاصفة ولا بني آدم واحد من ملاك وأبناء وعائلات ملاك هذه القصور والفيلات، أما عمال شركة النظافة والصيانة فقد كان اليوم عطلة ومع توقع قدوم النوة الموسمية في هذه الأيام فلا أحد يعمل انتظارا للنوة وتبعاتها، إذن يبقى السؤال ماذا حدث ومن فعلها؟

قام حسين من جلسته ووقف وقد أعطى ظهره للبحر وتمعن في تلك الوجوه التي كانت تحدق فيه الآن بنظرات قناصة كأنما تنتزع كلماته من بين أسنانه وواصل.

هل كان موتهم في نفس المكان الذي عثرنا فيه على جثثهم أم في مكان آخر وتم نقلهم..؟ الإجابة على هذا السؤال تعني معرفة هل تم قتلهم أم أنهم ماتوا دون تدخل خارجي؟

كان يتوقع صخبا من ردود الفعل لكن الدخان وحده الذي انفعل لكلامه فتصاعدت دوائره من السيجارات فأحبطوا توقعه فاستمر حديثة وهو ينشط نفسه بمشي أكثر والتفاتات جسدية تتوتر وتتوتر.

الحقيقة المشي في التحقيق كان يدفع بنا إلى مزيد من الألغاز والفخاخ لكن هذه العلامات تجعلنا نتيقن أكثر أننا نقترب من الحقيقة، اتفضلوا.

ثم مال على جهاز السينما المنزلي ووضع شريط فيديو في جهاز الفيديو وقد قام النائب العام بنفسه وأظلم المكان المحيط بشاشة العرض التي فردها وزير العدل، الأمر الذي جعل حسين يدعو ا ألا تكون مشاهدته لتواضع وزير العدل والنائب العام سببا لرفده وفصله، سمع الوزير يطلب منه أن يشغل الشريط فضغط على الريموت كنترول وهو يصف ويحلل.

هذا شريط فيديو حملناه من أجهزة المراقبة وكاميرات أمن القرية، وهي كانت منتشرة في أماكن بعينها محددة ومرسومة في خريطة اطلعنا عليها، وأظن أن كثيرا من سادة هذه القرية يعرف الأماكن القديمة لوضع كاميرات المراقبة، فقد كان هذا كله بموافقة من كبار الملاك من وزراء ومسئولين، قبل أن يتم تحطيم هذه الكاميرات وإلغائها بعدما قرر سكان القرية الحفاظ على خصوصيتهم وحريتهم الشخصية في التجول والتنزه داخل أماكن وفي شوارع

وبلاجات القرية بدون عيون مراقبة ولا ذاكرات حافظات، تم التخلص من كل الكاميرات كما فهمت لكن الحال في بلادنا ليس دقيقًا تماما، فربما كانت هناك جهات تصر على وضع هذه الكاميرات لكن بصورة أقل جدا وبسرية للغاية؛ فكانت هناك كاميرا في الجهة الشرقية وأخرى في الجهة الغربية، وقد حصلنا على الشريطين معا لكن بعد معالجات فنية كثيرة خاصة أن هبوب الريح والملوحة والرطوبة لا تجعل الكاميرات وعدساتها في حالة كفاءة في كثير من الأحيان.

نظر حسين للشاشة وقال:

- ها هي شوارع القرية من زوايا متعددة خالية إلا من هواء يرمي ورقًا ومطرا يبلل رملاً، هنا نلمح دخول جلال وكريم من زاوية الشارع جريا مذعورين ووراءهم وائل وغادة وصبري وعزة، هناك فزع وهروب من شيء غامض، خصوصا لو أعدنا اللقطات نفسها سنرى أنهم يلتفتون للخلف كثيرا ويدفعون بعضا للاختفاء، في نفس الزاوية وعلى ذات الكاميرا طوال ساعات التصوير كلها لا يوجد أي أثر لأحد يلاحقهم ولا أي شيء يسعى خلفهم، هم يخرجون من هذا المكان ولا يظهر بعدهم ووراءهم أي

شيء، لو عدنا للقطةٍ سابقة وهم يهبطون مسرعين متوترين وجزعين جدا يتملكهم كما هو واضح ذعر واضطراب كأن شيئًا في السيارة يرهبهم ويخوفهم يجرون في كل اتجاه صارخين رغم أن اللقطات لا تحمل صوتًا، لكن من الواضح جدا في ملامحهم وحركة الشفاه حالة الصراخ، ثم الكاميرا ثابتة على السيارة ولا أي شيء فيها ولا يخرج منها أي أحد، الأبواب الأربعة مفتوحة على آخرها والسيارة من الداخل مكشوفة لنا تماما، والإجابة لا يوجد أي شيء يستحق فزعا أو خوفًا.

يلتفت لهم حسين محاولاً أن يرى عليهم أثر مشاهدة أبنائهم في لحظات العمر الأخيرة أحياء أمامهم، ساعتها فقط شعر دفقًا من حزن وغما مؤلما يسري في عروقهم، انكسرت عيونهم ضعفًا، وارتخت أصابعهم على سجائرهم كأنما تتفتت أعصابهم فرقًا، تعاطف معهم حسين على الفور، وكادت دمعاته تقفز فوق جفونه لكنه تماسك خصوصا مع تدخل السيد الوزير الذي سألهم:

- هل تحبون الاستراحة قليلاً؟

أشاح السعداوي برأسه رافضا في صرامة، وطلب بكفه من حسين أن يستمر فاستمر:

- الحقيقة أن الصور زادت الأمر غموضا لكن بعض الجوانب تكشفت مع التليفونات المحمولة.

ثبت حسين الصورة عند لقطة شوارع القرية خالية ثم وقف قبالتهم وأكمل:

- حصرنا التليفونات المحمولة بتاعة المجموعة كلها، ووجدنا هذه الأجهزة بعضا منها في القصر عند سيادتك.

وأشار لدواد وهو يؤكد:

- هنا، وبعضها عثرنا عليه في السيارة وفي شوارع حول القصر وعلى الرمل في البلاج الخاص، عارفين جميعا أن هذه الأجهزة متطورة تكنولوجيا وفيها الذي يسجل صوتيا ويصور فيديو وفوتوغرافيا، أولاً رصدنا مكالماتهم من الساعة الثامنة مساء وحتى السابعة صباحا، والغريب أنهم جميعا قد طلبوا واتصلوا بكم على تليفوناتكم، لكن كل الاتصالات لم تستمر سوى ثوانٍ، حتى ربما لا تكونون قد سمعتم لها رنينًا لديكم، يعني كانوا يتصلون ثم يشعرون أن الخط مقطوع، لكن نسمع مثلاً تسجيلاً صوتيا ربما تم

بالصدفة وبشكل عشوائي أن ضغط أحدهم على زر التسجيل، شغل حسين الصوت فجاءتهم أصوات مضطربة متداخلة:

- انتي فين يا سارة، سارة راحت فين؟ وائل شفت سارة!

شرح حسين وهو يوقف الصوت:

- هذا صوت غادة.

ضغط لعودة الصوت فجاء عاليا حانقًا:

- هية ناقصة بلاوي، أهه يا ستي ظهرت سارة، رحتي فين يا بني آدمه.

قال حسين وهو يضغط لتثبيت الصوت:

- صوت وائل وهو يرد وسمعنا أصوات جري وخبط، لكن هنا يتكشف كتير من الغموض.

عاد حسين برأسه وفرد ظهره ورأى ثورة الموج في البحر فهدأ صوته:

- مين سارة؟

سأل وأجاب:

- سارة صديقة من الشلة، وصديقة حميمة، لكن أحدا لم يرها معهم في السيارة وهم يدخلون القرية، ولم تظهر على شاشة كاميرا المراقبة، ولم تظهر كذلك في الفيديو الملتقط

عبثًا من خلال التليفونات المحمولة، والحقيقة أنه لا وجود لسارة أصلاً، سارة ماتت منذ تسعة شهور نتيجة الإصابة بالسرطان!

كأن حسين قد فخخ المكان ثم ضغط على زر التشغيل فانفجرت همهمات كالخوار وتنهدات كالاحتضار وصيحات كأنها استغاثات من بئر، ثم برك صمتٌ ثقيل خففه حسين:

- كيف يرون ويتحدثون مع ميتة، ليس هذا فقط بل في المقاطع التسعة التي تم تفريغها من تسجيلات أجهزة المحمول ومدتها سبع دقائق، صحيح مشوشة وصاخبة ومتداخلة لكن ميزنا فيها حوارات حول ظهور أشباح تطاردهم وتعتدي عليهم وكلمات مختطفة مع هذه الأشباح المزعومة، إذا أضفنا هذا كله للصور التي التقطتها كاميرات القرية ثم فيديو التليفونات المحمولة فنفهم أنهم ظلوا في حالة مطاردة وملاحقة طيلة الساعات السابقة على موتهم، لكن في جزء مهم من هذه اللقطات نرى التالي.....

وضع حسين قرص السي دي في الكومبيوتر مرة أخرى، وأجرى عمليات تكنيكية سريعة أطلقت صورة ضخمة تملأ شاشة الكومبيوتر، حيث صور متعاقبة مهزوزة وباهتة لكن

وائل واضح فيها تماما وهو يرتمي إلى الحائط بظهره كأن أحدا يرميه بعنف، يسقط وهو يقاوم ثم يقف ويندفع تجاه الحائط الفارغ المقابل ويضرب بكتفيه ورأسه بعزم ما فيه كأنه يصارع أحدا هائلاً، ثبت حسين الصورة وقال:

- مؤكد أنه يتخيل أن أحدا يضربه ويعتدي عليه وهو يرد ويقاوم، بينما كما نرى لا شيء إلا الفراغ، لكن لازم نأخذ بالنا من الصور وهي تهتز وقد كان المحمول في يد أحدهم ليس بقصد التصوير قطعا، لكنه كان مرتعشًا ومرتبكًا، بعد لحظة من هذه الصور يسقط التليفون المحمول على الأرض لكنه يظل يصور ويظهر هنا تامر.

يضغط حسين ليستكمل الصور، فتتحرك صورة تامر وهو يتشارك مع وائل في مقاومة هواء مطلق ثم سرعان ما يتبادلان هما الضرب والاعتداء، كأن كل منهما يتخيل الآخر شبحا يهاجم... كان سؤال وزير العدل آخر ما توقعه فقد سأله:

- هل هم شافوا أشباحا فعلاً وعفاريت لا نراها نحن؟

ارتبك ولم يفهم قصد الوزير هل هو يصدق وجود أشباح أم يختبر عقلانيته، أجاب بحماس:

هذا بالضبط الذي جعلني أعيد تشريح الجثث وأطلب من الطبيب الشرعي والمعمل الجنائي تفاصيل أدق عن محتويات معدة كل ضحية، والحقيقة جاءت واضحة لي، وأتمنى أنها تنهي غموض هذا الحادث المأساوي، لقد تعاطت الشلة وبشكل جماعي وقبل ساعات من وصولها للطريق السريع عقارات هلوسة متطورة جدا ومستوردة بطبيعة الحال وهي عبارة عن مزيج من أخطر مكونات عقاقير الهلوسة الاصطناعية، مثل ال إس دي والديميرول والدولفين وغيرها، ولدي تقارير طبية من ثلاثة من أهم أطباء الأمراض العصبية والنفسية في مصر تؤكد أن تعاطي هذه العقاقير المختلطة يدفع المتعاطي لتصور وقائع وأحداث ومشاهد وشخصيات متخيلة تماما وغير واقعية في عالم موازٍ، فهذه الحبوب تجعل الدماغ غير قادرة على الاستيعاب وتظهر آثارها بعد تناولها بنصف ساعة ويستمر المفعول اثني عشر ساعة، وتبدو للمتعاطي الأشياء أكثر لمعانًا وأقوى وجودا وقد تبدو الجمادات كأنها تتحرك، والشخصيات كأنها ضبابية، وبمجرد أن تبدأ رحلة العقاقير في الدماغ حتى يصبح التحكم فيها أو إيقافها أمرا مستحيلاً.

وقفة حسين كانت أكثر ثباتًا وهو يلقي جملته الأكيدة:

- لقد قتلوا أنفسهم بالخوف والفزع من أشباح رأوها نتيجة عقاقير هلوسة سيطرت عليهم فيما يشبه الهلوسة الجماعية والجنون المشترك، لا يوجد أي شبهة جنائية في حوادث الموت ويمكن أن نعتبرها انتحارا جماعيا.

كان حسين الرمالي يقود سيارته في هذا الطريق المهجور، برماله وصحرائه وفراغه ورهبته ووحشته، يضع ذراعه على نافذة السيارة ويحدق في الأسفلت الذي يومض من زخات المطر، وقد تعطل كاسيت السيارة فطغت إيقاعات هطول الأمطار على الأسفلت طبولاً ودقات متعالية منتظمة ودقيقة ومتكاثرة وحادة، أحكم حسين إغلاق النوافذ وضيق ياقة البدلة على عقنه محتميا من برودة تسللت إلى عروقه، انقبض قلبه مع أول رعدة أطلقت قذائفها من السماء، نظر إلى كومة الصحف على المقعد المجاور وقد نشرت تعازيا ونعيا ملأ صفحات بصور الشلة كلها جلال ووائل وكريم وتامر وصبري وغادة وعزة في صورهم المتأنقة وملابسهم الكاملة وابتساماتهم المرسومة ونظراتهم المغرورة، وأطلق النعي عليهم لقب شهداء حادث الساحل الشمالي، وظلت كلمة

شهداء تصعد وتتصدر كل عنوان وبين كل سطر وسطر في إعلانات النعي أو مقالات الرثاء، فجأة جأرت السيارة وأصدر الشكمان طرقعات وفرقعات مفزعة كبحت سرعة السيارة ثم تباطأت سرعتها، وحسين يقاوم توقفها ويضغط على البنزين بعزم ما فيه يخشى مرتعدا التوقف والتعطل في هذا الطريق المهجور في ذلك التوقيت المطير ببرقه ورعده، لكن السيارة كأنها مأمورة بالوقوف فوقفت، فارت أعصابه ودمدم غضبا وقد ارتعش فكه واندلع فجأة عرق غزير من جبهته وفوق عموده الفقري، فتح باب السيارة وهبط متثاقلاً متوجسا، وضع قدميه على الأسفلت فشعر كأنما سرى فيه صعق كهربائي، توتر وارتبك، قرر أن يفتح غطاء السيارة الأمامي ليكشف عن الموتور في الوقت الذي زاد بلّه وانكشف أمام هجوم المطر الذي شق ملابسه كأنه طلقات رصاص ينشر الرقع والبقع في بذلته كأنها شظايا بارود تخرق القميص والجاكت بتمزقات وثقوب، مد كفًا مرتجفة للغطاء فإذا به يتعثر ويترنح فيقاوم السقوط ممسكًا بمرآة السيارة الجانبية فيخلعها بقوة تشبثه، ويسقط زاحفًا على الأرض ملوثًا بالطين ومجروحا في كفه وشاعرا بوخز في

كعبه، حاول النهوض متعلقًا بباب السيارة، وقف على حيله وهو يمسح العرق والمطر عن وجهه بكفه فانتشر الطين طميا وخيوطًا على عينيه وأنفه وتسرب لشفتيه؛ فبصق وضرب بكفيه سقف السيارة؛ فإذا بصوت خافت يتصاعد وشيشًا ثم بوضوح كاسر، سمع حسين كل حروفه محفورة في رأسه:

- ما جرى لكم الليلة وا يعلم هل سيجري لكم ثانية، رسالة جاءتكم عبر كائنات تطاردكم وتلاحقكم وتعذبكم، كائنات من ماضيكم أو حاضركم، ربما أرادت الانتقام، وتتمنى النيل منكم والاقتصاص مما فعلتم، لكنها قد تهدف لشيء آخر فقط أن تبدوا اعتذاركم، فكروا بقوة فهذا التفكير قد يقودكم إلى النجاة، فقط السماء تريد أن تسمع اعتذاركم، أن ترى ندما منكم على ما فعلتم، أسفًا على ما جنيتم، براءة وتبرءوا مما شهدتم وشاركتم، وتذكروا أن بللكم الآن في بول الرعب هو مقابل غرقكم في موج النعمة، وأن ضعفكم من الجزع والفزع هو ثمن قوتكم، وانهياركم من الهوان والإهانة الآن هو ثمن غطرستكم وغروركم، وأن ما تشرعون به هذه الليلة من خوف رهيب هو نتيجة ما تحسون به من تجرؤ

على الحق وعنفوان بالنفوذ والمال وتحصن بالسلطة والآباء، أمامكم فرصة وقد رمينا لكم بأطواق النجاة تقدموا وخذوها أو انصرفوا واتركوها.

كان الرعب أكبر من احتمال حسين الرمالي فقد اشتغل الكاسيت الذي كان معطلاً، ودار قرص الشريط بصوت غامض ومهيب ظل يتساءل حسين الرمالي وكيل النيابة النابه، من صاحب هذا الصوت وهذه الكلمات التي سجلها جهاز هاتف محمول ليلة موت الشلة كلها، كانت الكلمات واضحة وقوية وآمرة وناصحة ومحذرة منذرة، فُكتْ كل طلاسم اللغز إلا هذا الصوت وتلك الكلمات التي احتفظ بها على شريط كاسيت أداره عشرات المرات منذ حقق في القضية وبحث في ملابساتها، ولم يكشف لمن؟ ولم يعرف لماذا؟ صدمه صوت الكاسيت كما رعبه كذلك، ومدفوعا بكبرياء وكيل نيابة خشي أمام نفسه من إعلان جبنه وإظهار خوفه راح ناحية غطاء السيارة، وفي قوة متخبطة أخذ يفك ويدق ويركب ويرفع ويغطي، ثم ذهب إلى مقعد القيادة في السيارة فأغرق المقعد ببلل المطر والغضب، أدار مفتاح السيارة فصرخ الموتور وصمت، داس محموما بقدم متخشبة

على البنزين حتى اهتزت السيارة بفعل قدمه المتوترة الضاغطة فإذا بالموتور ينطق صوته، وفي فرحة حسين الملهوفة نسي أن ينزل غطاء السيارة الأمامي، وسار بها أمتارا لا يرى وقد أغلق الأبواب والنوافذ، أفاق على غطاء السيارة المرفوع فتمهل ليقف بها، لكن فجأة كانت يد تخبط غطاء السيارة فيرتطم وينغلق ويحدث صوتًا كالقنبلة ألجمت حسين الرمالي عن النطق والتفكير، وقد هربت دماؤه من شرايينه فرار المذعورين، وواجه هذا المشهد جافًا من العقل والدم والنبض، كان رجل طويل نحيف يرتدي جلبابا من السواد القاتم ويرتمي شاله الأخضر على عنقه ويغطي أسفل فمه وعمامة خضراء يلف بها رأسه بإحكام وإتقان، قد وقف أمام السيارة واقترب بعدما أغلق غطاءها ناحية حسين الرمالي، وطرق على نافذة باب حسين الذي نظر له مبهوتًا ومجمدا ثم التقطت أعمق نقطة في طبلة أذنه أبعد لفظة خرجت من حنجرة الرجل وهو يقول له شيئًا غامضا ومبهما، الكف المرجوفة فتحت زجاج النافذة وسمع حسين الرمالي الجملة كاملة وواضحة:

- ممكن توصيلة لمصر يا سعادة البيه.....؟

كانت اللهجة راجية وحنونة ومتوسلة رغم خشونتها ثم أشار الرجل إلى سيارة بيجو بيضاء واقفة معطلة على جانب الطريق:

- أصل العربية عِطلت في المطره والوحلة. فلو توصلنا أنا والرجالة ينوبك ثواب.

نظر حسين إلى حيث السيارة هناك على جانب الطريق المعاكس وقد هبط منها ثلاث رجال يرتدون تلك الجلاليب والعباءات السوداء الواسعة، وقد تحزمت عمامات خضراء محكمة على رؤوسهم، وكوفيات وشالات خضراء تلف الأعناق وتغطي الأفواه والأنوف وبدأوا يقتربون من السيارة، متجهين نحوه في قوة وثبات وعيون تبرق في العتمة التي بدأت تحط على الطريق.

النهاية

القاهرة – بوكيت بتايلاند – كوالامبور بماليزيا – الهرم

من نوفمبر ٢٠٠٣ حتى ١٨ – يناير ٢٠٠٥